كتاب الهلال

د. رشاد الشامى



الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية

كتاب الهلال
سلسلة شهرية تصدر عن
دار الهلال
الإصدار الأول يونيو ١٩٥١

رئيس مجلس الإدارة **مكرم محمد أحمد**

رئيس التحرير **مصطفى نبيل**

مدير التحرير **عادل عبدالصمد**

مركز الادارة
دار الهلال ١٦ ش محمد عز العرب
ت : ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط
فاكس : FAX -3625469

العدد ٦٢٤ - رمضان ١٤٢٣ - ديسمبر ٢٠٠٢ -

No 624 - Dec. 2002

أسعار بيع العدد فئة ٧ جنيهات
سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢٠٠٠ فلس - الكويت ١٢٥٠ فلس - السعودية ١٢ ريالا - البحرين ١,٢ دينار - قطر ١٢ ريالا - الامارات ١٢ درهما /سلطنة عمان ١,٢ ريال - المغرب ٤٠ درهما - فلسطين ٣,٥ دولار - سويسرا ٥ فرنك

عنوان البريد الإلكتروني : darhilal@idsc . gov . eg

الشخصية اليهودية الإسرائيلية
والروح العدوانية

بقلم دكتور:
رشـــاد الشـامى

دار الهــلال

الغلاف للفنان :
محمد أبوطالب

مقدمـــة

اتجاهات دراسة الشخصية اليهودية الإسرائيلية :

فى محاولة لتحديد مفهوم الشخصية الإسرائيلية سعيت لحصر وجهات النظر العربية فى مجال دراسة هذه الشخصية، ووجدت أن هناك اتجاهين رئيسيين فى دراسة «الشخصية الإسرائيلية» يشيعان فى أدبيات الدراسات الإسرائيلية فى العالم العربى:

١ – الاتجاه الأول :

وهو اتجاه يرى أن الإسرائيليين المعاصرين هم امتداد لذلك «الجنس اليهودى» القديم الذى حدثتنا عنه الكتب السماوية، ويرى أن هناك وحدة فى العناصر المادية والحضارية المكونة لهذه الشخصية ، وأنها تجمع فى طياتها كل خصائص الشخصية اليهودية التقليدية ، وأن حقيقتها وطبيعتها ومقوماتها تظل هى حقيقة وطبيعة ومقومات الشخصية اليهودية . ومعنى هذا إرجاع أى موقف يتخذه إسرائيليو اليوم إلى واقعة وردت فى أسفار العهد القديم أو إرجاع تصرف يتخذه رجل الشارع الإسرائيلى فى الوقت الراهن إلى رواية نقلتها لنا التوراة أو كتب التراث

المسيحي أو الإسلامي عن سلوك اليهود في موقف معين حدث في التاريخ القديم، أي التأكيد على مركزية الدين والتراث والتاريخ اليهودي القديم كعنصر وحيد لاستنباط معالم «الشخصية الإسرائيلية» والسلوك الإسرائيلي المعاصر.

والمآخذ على هذا الاتجاه تنحصر فيما يلي:

١ - التسليم بوجود واقع تاريخي مادي متصل منذ نشأة الديانة اليهودية حتى اليوم يجمع بين اليهود السوفييت واليهود العرب، وبين يهود ألمانيا ويهود اليمن مثلاً، ومعنى هذا هو التسليم بوجود وحدة سسيولوچية بين هؤلاء اليهود رغم عدم تشابه الظروف الاجتماعية والاقتصادية والتاريخية المحيطة بهم.

٢ - النظر إلى اليهود على أنهم جماعة ذات خصائص فريدة مميزة تجعل منهم جماعة تختلف عن بقية البشر.

٣ - الخلط في استخدام المصطلحات أو المسميات «إسرائيلي - يهودي - صهيوني»، دون تحديد دقيق لمفهومها والتعامل معها على أنها ألفاظ مترادفة لجوهر واحد.

٤ - الاستخدام غير الواقعي لمقولات الفكر الصهيوني مثل «الاستمرارية التاريخية» و«التاريخ المشترك للأقليات اليهودية» «والأمة العبرية» وغيرها من المقولات العنصرية التي تحاول أن

تثبت فى وجدان العالم أن اليهود اليوم هم ورثة أسباط بنى إسرائيل القدامى، وهى مقولات تنطوى على العديد من المغالطات التاريخية والفكرية والاثنية.

٥ - تجاهل أن الواقع الخاص بالتجمع اليهودى الإسرائيلى من خلال «دولة إسرائيل» فى العصر الحديث هو واقع يرتبط بمعطيات جغرافية ولغوية وإجتماعية وسياسية وسيكولوچية تتجاوز بكثير حدود الدين اليهودى كمصدر أوحد ووحيد لتفسير السلوك الإسرائيلى الذى لاشك وأنه تأثر كثيراً بهذه المعطيات ولكنه بالإضافة إلى هذا تأثر أيضا بمعطيات واقع الصراع العربى الإسرائيلى.

ومن هنا، فان التركيز على الانتماء الدينى اليهودى الذى يستند إليه أصحاب هذا الاتجاه قد يصلح مصدراً وأساساً لدراسة «الشخصية اليهودية» فى واقع اجتماعى وتاريخى وجغرافى متعين أكثر مما يصلح مصدراً وأساساً لدراسة «الشخصية اليهودية الإسرائيلية» بحكم اختلاف الظروف وملابسات التكوين الاجتماعى والتاريخى والعقائدى التى خضعت لها هذه الشخصية .

٢ - الاتجاه الثانى :

ويرى أصحاب هذا الاتجاه أن الذين نواجههم اليوم

كإسرائيليين ، ليسوا بحال من الأحوال هم إمتدادا «للجنس» اليهودي القديم، وأنه ليس ثمة وجود لتراث يهودى واحد ، ولا لتاريخ يهودى واحد.

وهذا الاتجاه ينظر إلى الشخصية الإسرائيلية المعاصرة على أنها تمثل مرحلة منفصلة من مراحل سابقة تمثلها «الشخصية اليهودية الجيتوية» ثم «الشخصية اليهودية الصهيونية». وهذا الانفصال فى المراحل لايقتصر على كونه حضاريا أو ثقافياً أو جغرافيا، بل يتعداه إلى نفس التعبير اللغوى، أى إلى رموز الاتصال، وهو إنفصال لابد وأن ينعكس ويثبت وجوده فى ذات «الشخصية اليهودية الإسرائيلية»، التى تخضع لظروف الواقع الجغرافى الجديد فى المنطقة العربية، والبيئة اللغوية العبرية، والمناخ الفكرى والثقافى والاجتماعى والسياسى للمجتمع اليهودى الإسرائيلى، وملابسات الصراع العربى الإسرائيلى.

وهذا الاتجاه هو إتجاه أقرب إلى التصور الموضوعى فى تناول «الشخصية اليهودية الإسرائيلية»، وقد إتخذته هذه الدراسة منهجاً لها، وتم على ضوئه تقسيم المراحل التاريخية لهذه الشخصية على النحو التالى:

١ - الشخصية اليهودية فى اطار الانعزالية الجيتوية.

٢ – الشخصية اليهودية فى اطار الانعزالية الصهيونية.

٣ – الشخصية اليهودية فى اطار الانعزالية الإسرائيلية.

العدوانية :

أما فيما يتصل بالعدوانية كسمة سلوكية، يمكن القول بأن لها وجود فى الطابع القومى للشخصية اليهودية الإسرائيلية، فينبغى أن نؤكد أنه ليس ضروريا أن تكون كل «حقائق السلوك الانسانى «حقائق» اجتماعية، أى أنها ليست بالضرورة نابعة من القيم العامة المشتركة فى المجتمع كله. فالقول بأن نسبة معينة من أهل مجتمع بعينه «عنصريون» أو «عدوانيون» يساوى القول بأن نسبة من أهل نفس المجتمع شعرهم أشقر. إن العنصرية أو العدوانية قد تكون موقفاً «فرديا» أو حتى موقفا جماعياً طارئا أو مصطنعا بسبب حالة عدائية مع جماعة أخرى، أو بسبب التعبئة المعنوية الموجهة. وقد حدد دوركايم أن الحقيقة الاجتماعية تكون كذلك إذا كان لها وجود ثابت فى منظومة قيم المجتمع (أى فى الجانب المعنوى من ثقافته) ، وإذا كان لها تأثير ذهنى ونفسى على الإنسان الفرد . ومن الواضح أن الحقائق الاجتماعية بهذا

المعنى يصعب ملاحظتها بشكل مباشر، وينبغى أن تدرس بموضوعية وبشىء من الحياد، وخاصة إذا كانت مرتبطة بقيم مجتمع بعينه ، وتتميز عن سلوك سائر المجتمعات، وتفرض فروضا ومطالب مختلفة نوعياً بحكم ظروف ثقافية ودينية وتاريخية وسياسية.

والمجتمع الإسرائيلى بحكم ظروف تكوينه منذ بداية الصهيونية فى العصر الحديث وعلى إمتداد مرحلة الاستيطان الصهيونى فى فلسطين ثم مرحلة الدولة، ونشوء الصراع العربى الإسرائيلى، وبحكم ملابسات هذه التطورات ، وبحكم ارتباطاته بالقوى الامبرالية، وبحكم التجارب التاريخية التى مر بها اليهود عبر التاريخ ، وفى العصر الحديث بصفة خاصة على يد النازى، وإستناداً إلى قيم دينية يهودية تمجد العنف فى مواجهة غير اليهودى، أفرز نمطا يهودياً عدوانياً ألقى بظلاله على مجمل السلوك العام لكل من ينتمى لهذا المجتمع. وبالرغم من هذا، فإن هذا الحكم يبقى حكما غير مطلق، وينبغى أن نتعامل معه على أنه يخضع لاستثناءات فى هذا المجتمع لاتفتقد إلى النزعة الإنسانية وإلى الثقافة الشمولية المتحررة من كافة خصوصيات الواقع الإسرائيلى التى أفرزت هذه الروح العدوانية تجاه العرب.

مصطلحات الدراسة

★ **الشخصية العبرية :**

الشخصية المرتبطة بإحياء التراث الثقافى العبرى فى فلسطين والمنقطعة الجذور عن الواقع اليهودى فى شرق أوروبا، بصفة خاصة ، بكل سلبياته التى رفضها الفكر الصهيونى ذو الاتجاه الثقافى والروحى العبرى، كما رفضها المستوطنون الصهاينة فى الواقع الاستيطانى الصهيونى على أرض فلسطين فى العصر الحديث.

★ **الشخصية اليهودية :**

الشخصية المرتبط بالانتماء للدين اليهودى، وبالتراث الثقافى اليهودى، سواء كانت هذه الشخصية متدينة أو علمانية.

★ **الشخصية اليهودية الإسرائيلية :**

الشخصية التى تعتنق الدين اليهودى وتقيم فى دولة إسرائيل عن طريق الهجرة أو الميلاد فى المرحلة المعاصرة من مراحل تطور التاريخ اليهودى فى العصر الحديث سواء لدوافع دينية أو لدوافع صهيونية سياسية، وذلك لأنه ليس كل يهودى إسرائيليا.

★ الشخصية اليهودية الصهيونية :

الشخصية التى أمنت وعملت من أجل تنفيذ إلهي، ونادت بعودة اليهود إلى ما يسمى «أرض الميعاد» تحت مظلة الصهيونية العالمية أو القوى الامبريالية أو عن طريق العنف المباشر.

وقد تم تخصيص «الشخصية اليهودية الصهيونية»، على إعتبار أنه ليس كل يهودى فى العالم هو صهيوني بالضرورة، ولأن هناك جماعات يهودية في العالم مناهضة لمضمون العقيدة الصهيونية وأهدافها.

★★★

الفصل الأول

الشخصية اليهودية
فى إطار الإنعزالية الجيتوية

إذا كان الوجود الإنسانى لأى شعب أو جماعة لا يمكن فهمه إلا فى إطار الإنساق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والدينية لهذا الشعب أو تلك الجماعة ، فإن التعرض للشخصية اليهودية فى هذا الإطار يصبح أمرا معقدا بقدر تعقد هذه الشخصية التى تمتد جذورها ، وتتحدد خصائصها فى إطار من الظروف والعوامل المتداخلة والمتناقضة التى تتصل اتصالا مباشرا بواقع الظروف التى تعرضت لها الأقليات اليهودية فى العالم ، وهى ظروف كانت تختلف تماما من بلد إلى آخر ، بحيث يصعب تصور أى واقع تاريخى مادى مشترك بينها .

وعلى هذا الأساس، فإن الحديث عن «شخصية يهودية» بين الأقليات اليهودية المبعثرة عبر تضاريس الكون البشرى ، والتى تخضع لتأثيرات ثقافية ولغوية متباينة ، هو مثل الحديث عن تاريخ مشترك لهذه الأقليات ، ويعتبر من قبيل الابحار فى محيط هائل ملىء بالجزر والشعاب التى لم تكتشف بعد .

إن أول مايلفت النظر ، بناء على هذا ، فى الشخصية اليهودية ، هو أن هذه الشخصية لم ترتبط فى وجودها باطار جغرافى محدد ، ومن هنا فإن الجغرافيا لم تكن جزءا من

هويتـها ، ولم تكن كذلك سـمـة من سـمات تراثها الذى تميز بتعدد مراكزه الجغرافية .

ونظرا لأن البـحث يتناول بشكل أساسى ظاهرة سلوكيـة خاصة بالشـخصيـة اليـهودية داخل إطار الواقع الاسـرائيلى المعاصر فى المنطقة العـربية ، وهـى ظاهرة الروح العدوانـية فـإن تقـصـى جـذور هذه الشـخـصـيـة اليـهودية الاسـرائيلية المعاصرة ، لابد من أن يقودنا وفقا لتطورات تاريخ الصهيونية فى العصـر الحديث ، إلى يهود وسط وشرق أوربا ، لأن هذه المنطقة كانت منطقة التفاعلات والأحداث والأفكار التى قادت إلى ظهور الصهيونية وأدت إلى قيام دولة إسرائيل فى العصر الحديث .

لقد ثبت بنـاء على شواهد كثيرة تاريخيـة ودينية أن اليـهود قد رحلوا إلى الشـاطـىء الشمـالى من البحر الأسـود وترانسكا فانيا وطوران فى القرن الأول الميلادى ، وكـانوا فى خلال هذه الفترة متـأثرين بالثقافة والعادات الاجتماعية والدينية المأخوذة من جيرانهم الهللينيين .

ويؤكـد المؤرخـون على أن كـثـيـرين من يهـود فلسطين قـد وصلوا منذ مـا قـبل المسـيح بقـرون عديـدة (بعـد سـقـوط الهيكل الأول فى القرن السادس ق. م) إلى شـواطىء روسيا

وانتشروا عبر منطقة القوقاز . ووفقا للأدلة التاريخية فإن هناك جماعة يهودية استقرت فى جورجيا حوالى عام ١٣٢ ق . م مع اندحار ثورة بركوخبا ضد الرومان .

وقد وجدت آثار لتلك الجماعة فى كثير من الحفائر التاريخية فى منطقة جورجيا ، ولا سيما فى العاصمة القديمة لتلك الولاية . وبعد ذلك بمرحلة متأخرة ظهر اليهود فى أجزاء أخرى من روسيا ، وقد استقروا فى البداية فى كييف ولتوانيا حوالى القرن الثامن الميلادى . وفى بداية القرن الخامس عشر الميلادى كانت هناك جماعة يهودية فى منطقة بيلوروسيا . ووردت أول إشارة إلى اليهود فى تاريخ موسكو عام ١٤٧٤ (٢). ولكن ما يعرف عن تاريخ وثقافة هذا الاستقرار اليهودى المبكر فى روسيا مازال قليلا للغاية (٣). وقد كانت أكبر هجرة مؤثرة على تاريخ اليهود تلك التى حدثت من اتجاه شرق أوروبا فى اتجاه الغرب نحو ألمانيا بالذات .

وتعود أدلة الحياة اليهودية فى ألمانيا ، وعلى الأخص على ضفاف نهر الراين ، إلى عصر الامبراطورية الرومانية . فمع مطلع القرن الثامن الميلادى كان هناك وجود لجماعات يهودية فى بعض المدن مثل كولون ومينس (٤) وبتأثير مالاقاه اليهود على يد الحملات الصليبية هاجرت عشرات الآلاف من الأسر من غرب إلى شرق أوروبا .

وهناك أسطورة قديمة تحكى كيف أن مجموعة من اللاجئين اليهود الذين تركوا ديارهم بعد المذابح التى حلت بهم إبان ما يسمى الموت الأسود (١٣٤٧ - ١٣٤٨) قد اتجهت إلى منطقة مجهولة تقع شرق نهر أودر ، وحينما تساءلوا عما إذا كانوا وجدوا أخيرا فى هذه البلاد الملجأ الآمن، أجابهم صوت من السماء وأمرهم بالعبرية «بولين» (إبق هنا) ، وأصبح اسم تلك البلاد هو بولين العبرية أى بولندا المعروفة حاليا. وقد توالت موجات المهاجرين إلى بولندا من الغرب . وشجعهم على هذا ترحيب حكام تلك البلاد بهم ، حيث كانوا حريصين على الاستفادة من براعة وخبرة اليهود فى تنمية الأقاليم المختلفة من المملكة . ورويدا رويدا ، التقى يهود الغرب بالجماعات اليهودية القديمة فى روسيا التى فقدت بالتدريج هويتها الانفصالية ، واندمجت بمتحدثى اليديش (٥) القادمين من الغرب .

واعتبارا من القرن السادس عشر فصاعدا ، تجددت حياة يهود غرب أوروبا ، ووجدوا وطنا آمنا نسبيا فى شرق أوروبا. وقد أتاحت لهم الامتيازات الكثيرة والحريات التى شملت الحرية الدينية ، والاقرار بالحكم الذاتى الطائفى ، تقوية وانعاش حياتهم لدرجة لم تكن متاحة لهم فى الغرب (٦) .

أما روسيا، فكانت حتى بداية القرن الثامن عشر من

الممنوع على اليهودي ، من الناحية القانونية دخولها (٧) .

ولكن حين كان القرن الثامن عشر على وشك الانتهاء تم تقسيم بولندا ، وضمت روسيا أجزاء منها آهلة بالسكان اليهود ، أى أن روسيا ضمت الأراضى البولندية والمسألة اليهودية معا (٨) .

وقد عاش اليهود فى روسيا وبولندا داخل إطار أطلق عليه بالعبرية «منطقة الاستيطان» (تحوم هاموشاف) وكان يشمل بولندا ولتوانيا وبيلوروسيا وأوكرانيا ، وهى المناطق التى سمح لليهود بأن يعيشوا فيها حتى منتصف القرن التاسع عشر (٩) .

وإذا كان من الممكن تحديد أبرز العناصر التى تحكمت فى حياة يهود شرق أوروبا حتى عشية فترة التنوير اليهودى (الهسكالاه) (١٠) فإن هذه العناصر هى :

١ - العزلة اليهودية :

ترجع التوراة، وهى السجل السياسى لتاريخ اليهود، تاريخ هذه العزلة الاختيارية إلى فترة إقامة بنى إسرائيل فى مصر حيث رسم لهم يوسف خطة الهجرة من أرض كنعان (سفر التكوين الاصحاح ٤٥) ، كما دبر لهم الإقامة فى أرض مستقلة بهم (سفر التكوين الاصحاح ٤٦) مستغلا تقدير

فرعون مصر له «فكلم فرعون يوسف قائلا أبوك وأخوتك جاءوا إليك . أرض مصر قدامك فى أفضل الأرض أسكن أباك وأخوتك . ليسكنوا فى أرض جاسان . وإن علمت أنه يوجد بينهم ذوو قدرة فاجعلهم رؤساء على ماشيتى» (تكوين الاصحاح ٤٧) . وما أن ذهب يوسف وذهب النفوذ العبرانى فى الحكم اللذان ضمنا لهم استمرار هذه الميزة بما ترتب عليها من ثراء وجاه حتى كلفهم فرعون مصر «الذى لم يكن يعرف يوسف» بالعمل كسائر المصريين فى مهنة الزراعة ، وصناعة البناء اللتين كانتا الصناعتين الرئيستين فى مصر . وقد اعتبروا هذا التكليف تعذيبا وعبودية ، وفكروا فى الخروج من مصر ، وأضفوا على أمانيهم ورغباتهم قدسية الهية تستر ما يخفونه من تآمر على أبناء الشعب المصرى ، وجعلوا يهوه إلههم القبلى، ينكل بالمصريين فى صورة عمليات انتقامية بشعة ردا على جميل الإقامة لخمسة قرون نعموا خلالها بخيرات مصر ، وهى الخيرات التى ندموا على تركها عندما عانوا الأهوال والجوع والتشريد فى التيه فى سيناء.

وقد أخذ الوجود اليهودى داخل المجتمعات القديمة وفى العصور الوسطى أشكالا متعددة مثل «حارة اليهود» فى مصر ، و«قاعة اليهود» أو المسبتة (نسبة ليوم السبت) فى اليمن (والمِلاح) فى المغرب (١١) .

أما في شرق أوروبا، فإن مناطق الانعزال اليهودي اتخذت تسميات متعددة مثل :

أ - **الشـتـتـل** : وهى كلمـة ييـديشـيـة تعنى «المدينة الصغيرة». وهو عبارة عن تجمع سكانى من اليهود يتراوح بين ألف وعشرين ألفا ، وكانت الحياة تدور فيه حول المعبد اليهودى ، والمنزل اليهودى ثم السوق الذى يلتقى فيه اليهود بالأغيار (غير اليهود)، ويصف موريس صموئيل وهو أعظم شخصية يهودية فولكلورية مدركة في هذا العصر ، شتتل مدينة كاسر يلفسكى ، وهو عبارة عن مزرعة يهودية نموذجية فى ولاية بولتافا ، خلد مواطنيها الأديب اليهودى شالوم عليخم فى كتاباته التى كتبها فى القرن التاسع عشر بقوله :

«المدينة فى حد ذاتها خليط من البيوت الخشبية التى تتجمع فى تضارب حول مكان السوق عند سفح التل .. وكاسر يلفسكى مكتظة كإكتظاظ الأحياء القذرة ، وهى فى الحقيقة حى قذر . وشوارعها ملتوية كمناقشات التلمود ، ملتوية على شكل علامة استفهام ، وتخرج منها حوار وأزقة وزرائب خلفية ، وأغنى اليهود فيها يمكن أن يكون فى إحدى صور أربع : غنى أو فقير أو بائع متجول أو صانع » (١٢) والشتتل عادة ما يكون مستقلا أو منفصلا حضاريا واجتماعيا وعرفيا عن البيئة المحيطة به (١٣) .

ب - **القـــاهال** : وهى كلمة عبرية تعنى جمهور أو جماعة كبيرة من الناس فى مكان واحد ، أو طائفة أو الطائفة اليهودية فى إحدى مدن الشتات اليهودى (١٤) ويعنى بها الخلية الأساسية لتنظيم حياة اليهود فى منطقة إقامتهم . وكانت مهام القاهال مشابهة لمهام الدولة تجاه مواطنيها . وتعتبر تجسيدا للحكم الذاتى من قبل الحكومة .

وقد اهتمت القاهال بمرور الوقت ، بتصديق من السلطات، بإجراء الزواج كما عهد اليها بتمثيل اليهود أمام السلطات وجمع الضرائب نيابة عنها .

وكـــان من حق القـــاهال أن تعين القـــضــــاة والربانيم (الحاخامات الاشكنازيم) ، وكانت المحكمة الحاخامية بمثابة تعبير عن القضاء الداخلى المستقل وكان من حقها فرض العقوبات ، والغرامات أو السجن أو التحريم والعزل الاجتماعى (١٥) .

وقـد عـرف بهـذا الاسم «قـاهال» بولندا المعروف باسم مجلس البلاد الأربع «فعد أربع هاأرتسوت» وكان يضم بولندا الكبرى ، وبولندا الصغرى ، وفولينيا ، ولتوانيا ، وهى الأقاليم الأربعة الكبرى فى مملكة بولندا (١٦) .

وكان من حق هذا المجلس فرض الضرائب وتعيين القضاة

وإقامة محاكم مستقلة وكانت مجالس الأحياء أو القاهال (أصغر الوحدات الإدارية) - تقوم بتنظيم جميع جوانب الحياة اليهودية من الداخل ، كالإشراف على الزواج والطلاق والختان . كما كانت تنظم حياة اليهود بوصفهم جماعة اقتصادية دينية فى علاقتهم بالأغيار (١٧) .

وفى النصف الثانى من القرن الثامن عشر تم شن هجوم نقدى على التنظيم القاهالى بأكمله ، بشكل لم يسبق له مثيل . وكان التعبير المتطرف عن هذا الاتجاه هو كلمات الشكوى التى قدمها عدد من أصحاب المنازل فى بلدة شاول فى لتوانيا للموظف المسئول عن الاقطاعيات : « نحن جميعا ، سكان شاول من اليهود ، نعلن بدموع عيوننا أننا لسنا فى حاجة إلى حاخام (راب) ولا إلى رؤساء لأنهم .. يعملون فى الابتزاز والمؤامرات ، ويضطهدوننا تماما ، ونظرا لأنهم مرتبطون فيما بينهم بروابط عائلية فإنهم ينهبون «بروطاتنا» (نسبة إلى البروطة وهو اسم عملة) حتى آخرها من أجل أن يزدادوا ثراء » (١٨) .

ولما تولى القيصر نيقولا الأول حكم روسيا عام ١٨٢٥ ، أوضح منذ بداية حكمه أنه يعتبر اليهود شعبا غريبا ، شعبا يجب أن يكيف نفسه بسرعة مع الأكثرية السلافية اليونانية الارثوذكسية ، أو يقاسى من النتائج الوخيمة . وقد

سن قانونا للتجنيد الاجبارى لليهود يقضى بأن يقضى اليهودى بالخدمة العسكرية إحدى وثلاثين سنة . وكان على القاهال أن تقوم بنفسها بتزويد السلطات بأسماء المجندين اليهود .

ولم يكن هناك إجراء أسرع من أن يفقد الأهالى الثقة فى الحكومة الذاتية اليهودية .. لقد كان من الشائع مثلا ، بالنسبة للعائلات الثرية أن ترشو سلطات القاهال بأن تزود السلطات القيصرية بأسماء فقراء اليهود . وقد اتضحت مرارة فقراء اليهود إزاء اليهودى الثرى مبكرا فى الثورة الحسيدية (التى قادها زعيمها الذى عرف باسم «بعل شيم طوف» صاحب السمعة الطيبة) ضد الحاخامات الربانيم فى القرن الثامن عشر)، وبلغت أقصاها خلال عهد التجنيد الاجبارى . وهناك أغنية يهودية شعبية تعبر عن هذه الثورة تقول :

للسيد روكوفر الغنى سبعة أبناء

يرتدى كل واحد منهم البزة الرسمية ،

أما الأرملة الفقيرة ليئة فلها ولد واحد

إصطادوه كما لو كان وحشا

فمن الواجب تجنيد الجماهير الكادحة

لأن أصحاب المحال التجارية أو الترزية – مجرد حمير
بينما أبناء الغنى الخامل
يجب أن يسيروا قدما ، دون أية مضايقات .

ويلاحظ أن الفن الشعبى فى هذه الفترة كثرت به الذكريات المفعمة بالأسى عن الخابرز « Khappers الوكلاء النهابين للقاهال الذين يسجلون أسماء المجندين (١٩) وفى عام ١٨٣٥ صدر قانون جديد يسمى «ميثاق العقود» طرد اليهود بمقتضاه من ريف ولاية كييف وخارج عاصمة كييف نفسها . وفى نهاية حكم نيقولا فى عام ١٨٥٥ كانت مناطق إقامة اليهود تتكون من لتوانيا وروسيا الصغرى وروسيا الجديدة، ومدن معينة فى أوكرانيا . وحرم على اليهود أن يستخدموا الخدم المسيحيين ، أو الزواج قبل سن الثامنة عشرة أو استخدام اليديش فى أية وثيقة من الوثائق الهامة (٢٠). وفى عام ١٨٤٠ طلب القيصر من وزير الدولة الكونت ب . د. كيسيليف عقد لجنة تكون قادرة على إصدر مبادىء جديدة وفريدة فى نوعها بالنسبة لحل المشكلة اليهودية . وقد جاء فى تقرير اللجنة أن أساس المشكلة إنما يرجع إلى التعصب الدينى اليهودى والانفصالية اليهودية ، وأن الذى غذى فى اليهود أنهم شعب الله المختار"هو التلمود الذى نفث

في اليـهـود «الاحـتـقـار التـام للشـعـوب التى تؤمن بديانات أخرى»، وزرع فى نفوسـهم الرغبة فى «أن يحكموا بقية العالم ، وتحت تأثيـر التلمـود وتعاليـمه «التـمردية» لا يمكن اعتبار وجود اليهود في أى بلد آخر، فيما عدا فلسطين، إلا إقامة مؤقتة في الأسر . وهذا العكوف، على التلمود هو الذى يفسر الولاء اليـهـودى لنظمـهم الخـاصـة بالنسبـة للحكومة الذاتية وبالنسبة لنظام مدارسهم الخاص (٢١) .

ولذلك اقترحت اللجنة : «التأثير على الثقافة الخلقية للجيل الشاب من اليـهود عن طريق مـدارس يهودية بروح مناهضـة للشريعة التلمودية الحـاليـة ، وإلغـاء القـاهالات ، وإخـضـا ع اليـهـود للإدارة العـامـة .. وحظر اسـتـخدام الزى اليـهـودى الخاص .. وتقسيم اليهود حسب مـهنهم إلى مفيدين - مثل التـجـار ، والمهنيين ، والمزارعين - وغيـر مـفـيدين، وهـم أولئك الذين ليست لهم مـهنة ثابتـة .. ويجب أن تفرض عليـهم قيود مـختلفة ، كالخدمة العسكرية فى الجيش لمدة تصل إلى ثلاثة أضعاف المدة العادية » .

وفي عـام ١٨٤٤ أصـدر القـيـصـر نيـقـولا أوامـره بإلغـاء القاهالات جـمـيـعـهـا ، وبهذا الطـريقة انتهت الحكومـة الذاتيـة اليهودية على الفور وأصـبحت الطائفة اليهودية تحت سلطة الإدارة الروسية العامة (٢٢) .

جـ - **الجيتو** : يعتبر الجيتو أشهر الأشكال الانعزالية اليهودية فى العالم ، بحيث أصبح يطلق على سبيل التعميم على كل شكل من أشكال الحياة اليهودية الانعزالية وسط الشعوب التى عاشوا بين ظهرانيها . والجيتو عبارة عن حى أو عدد من الشوارع المخصصة لإقامة اليهود .

أما بالنسبة لأصل كلمة جيتو، فإنه محاط بكثير من الشكوك. ومن المحتمل أن تكون الكلمة قد استخدمت للمرة الأولى لوصف حى من أحياء البندقية ، والذى يقع بالقرب من مسبك لصهر المعادن يسمى «جيتو أوجتو» كان محاطا بأسوار وبوابات فى عام ١٥١٦ وخصص كمكان لإقامة الطائفة اليهودية (٢٣) .

كان هذا الحى مخصصا لإقامة مائة شخص من اليهود. ن اليهود حتى ذلك الحين مشتتين فى المدينة ويتعرضون لا ستفزازات . وقد منحوا بناء على طلبهم حق البقاء فى المدينة بشرط أن يتجمعوا فى حى خاص «الجيتو الجديد» (هاجيتو هيحاداش) فى جزيرة منعزلة بين قنوات المدينة . وكان الحى محاطا بسور ، وبوابات وجسور تطوى خلال الليل. وبعد مرور خمس وعشرين سنة أضيفت إليه منطقة جديدة «الجيتو القديم » (هاجيتو هاياشان) ، وتجمع فيه بصفة خاصة اليهود القادمون من الشرق . ومنذ ذلك الحين

أطلق على هذين الحيين المغلقين اسما موحدا هو «الجيتو» (٢٤) .

وهناك من وجدوا أصلا للتسمية فى العبرية من الفعل «جت» (بمعنى الانفصال أو الطلاق) ، وفى اليديشية ، وفى اللاتينية وفى اليونانية ، وفى الجوتية . ولكن ليس هناك شك فى أن مصدرها هو كلمة «الجيتو نوفو» «geto nuovo» أى معمل سبك المعادن ، وهو مكان الحى اليهودى المنعزل الأول ، فى البندقية ، عام ١٥١٦ . وقد كان يهود ايطاليا يطلقون على الجيتو باللغة العامية اسم «جت» ، ولكنهم كانوا يطلقون عليه بشكل عام اسم «هاحاتسير» «الحوش» . وفى مدن جنوب فرنسا التى كانت تحت سلطة البابا ، والتى أتبع فيها نظام الجيتو على غرار النموذج الإيطالى ، كان يسمى بالفرنسية Carriere وبالعبرية «مسيلا» (النهج - الطريق) . وقد استخدم الاصطلاح اللاتينى platea judeaorun والألمانى judengasse (شارع اليهود) على الحى اليهودى، سواء كان ذلك بحكم القانون ، أو قد تكون بحكم طبيعة الحياة اليهودية ذاتها ، ولكن لم تكن لهذه الاصطلاحات نفس المعنى الدقيق الذى كان للاصطلاح الايطالى (٢٥) .

وعلى أية حال، فإنه حسما لهذه الشكوك، اصطلح على أن التسمية تستخدم لا لتعبر عن الجيتوهات الاجبارية فقط ،

وإنما لتعبر عن المجتمع الانعزالي الاختياري لليهود . وتعبر الكلمة كذلك عن الشكل المتشابه للجيتوهات الأخرى مثل أحياء المهاجرين وأحياء الزنوج في الولايات المتحدة الأمريكية، وأحياء الوطنيين في مدن جنوب افريقيا (٢٦) .

وقد ظلت هذه العزلة الاختيارية من قبل اليهود قائمة إلى أن أصدر البابا بولس الرابع (١٥٥٠ - ١٥٥٩) نشرة بابوية في عام ١٥٥٥ توصي ، لأول مرة ، بعزل اليهود إجباريا . وفي ٢٦ يوليو ١٥٥٥ والذي حل في التاسع من أغسطس (وهو تاريخ له دلالة خاصة عند اليهود إذ يحتفلون فيه بذكرى خراب الهيكل ويمارسون طقوس النواح والبكاء) اضطر يهود روما لنقل محل إقامتهم إلى الحي الجديد على الضفة الشمالية من نهر التيبر ، الذي أحيط على الفور بسور لعزله عن المدينة . وبعد فترة قصيرة اتبع هذا الاستحداث في سائر المدن الواقعة تحت سلطة البابوية ، واعتبارا من عام ١٥٦٢ أطلق على هذه المؤسسة الجديدة بشكل رسمي الاسم الذي عرف به حي اليهود في البندقية «الجيتو» (٢٧) .

ولم يكن معنى هذا العزل الاجباري أن اليهود كانوا لايعيشون بمعزل عن الشعوب التي يعيشون بينها ، بل العكس هو الصحيح . إن العزلة اليهودية كانت قائمة على مر العصور لأسباب دينية وطقسية . وتقول دائرة المعارف العبرية:

«إن واقع وطابع حياة اليهود دفعا بهم دائما إلى التجمع والإقامة سويا فى شارع واحد أو فى حى واحد، إن المحافظة على الشرائع الدينية (العدد الشرعى للصلاة) ، «المنيان» ، والمقابر والمطهر «بركة التطهير» ، والمساعدة المتبادلة للأقلية المضطهدة والمهانة ، وإنعدام الأمن لديهم كغرباء ومكروهين ، جعلتهم ينضمون سويا ويخلقون شوارع أو أحياء لليهود فى كل البلدان الأوروبية » (٢٨) وهكذا فإن البناء الحضارى للجيتو زاد من هذه العزلة .

وقد كتب إسرائيل أبراهامز يقول : «قبل أن تصبح السكني في مكان محدد أو فى الجيتو أمرا اجباريا ، كان اليهود أينما وجدوا يتجمعون فى أماكن منعزلة بالمدن التى كانوا يعيشون فيها» .كما كتب الزعيم الصهيونى ناحوم جولدمان رئيس المنظمة الصهيونية العالمية السابق يقول : «يجب أن نؤكد على أن الجيتو لا يعتبر اكتشافا يهوديا من الناحية التاريخية ، ومن الخطأ القول بأن «الجوييم» (٢٩) . قد أرغموا اليهود على الانفصال عن بقية المجتمع » (٣٠) .

ومن أشهر الأمثلة على تلقائية الجيتو، ماحدث بين يهود براغ الذين كانوا يعيشون خارج نطاق المنطقة المخصصة لليهود ، ثم قرروا فى القرن الخامس عشر أن ينضموا لاخوانهم الذين يعيشون داخل المنطقة : وكان اليهود يعترفون

بالجوانب الايجابية للجيتو ، لدرجة أنه كانت تقام الصلوات في المعابد كل عام في جيتو فيرونا ومنطوفا احتفالا بالذكرى السنوية لانشائه (٣١) .

وعلى أى الحالات ، فإنه مع صدور قرار البابا بول الرابع الخاص بإنشاء أحياء اليهود المنفصلة «الجيتو» ، تحول النظام الاجتماعى الاقتصادى الدينى للحياة اليهودية القائم على العزلة إلى نظام إجبارى .

وقد كان لهذا التأكيد على العزلة بعض النتائج بالنسبة للواقع اليهودى الجيتوى نذكر منها :

أولا : قلل من اختلاط اليهود بالمسيحيين يوما بعد يوم ، وبالتالى زادت الشبهات تجاه اليهود .

ثانيا : نظرا لقيود التوسع فى مساحة الأحياء اليهودية والاضطرار إلى التوسع الرأسى بإضافة طوابق جديدة على المبانى ، التى كان معظمها آيلا للسقوط ، ازدادت نسبة الكثافة السكانية مما أدى إلى انحطاط وتدهور المستوى الاجتماعى للحياة ، وتفشى الأمراض ، وتراكم القاذورات ، مما أثر أثرا عميقا على وجدان اليهود القاطنين – بالجيتو ، وعمق من انفصالهم عن العالم الخارجى ، وانحصارهم داخل عالم يتصورون أن كل ما فيه يهودى خالص .

ثالثا : انعدام الاحساس بالأمن لدى اليهودى خارج أسوار الجيتو ، التى كان يقف عليها حراس من المسيحيين يلزمون بدفع أجورهم ، كانوا يغلقونها فى الليل ، وفى الأعياد المسيحية الهامة . وهكذا أصبح اليهودى يشعر بأنه يوجد خارج أسوار الجيتو عالم غريب ومعاد وشرير ، أما داخل الأسوار فكان يجد الأمن والطمئنينة ، والثقة والإيمان العميق بأنه ينتمى إلى الأمة المقدسة والشعب المختار .

رابعا : تعمق الاحساس لدى اليهودى بأن الجيتو هو درع الأمان للحفاظ على الجماعة اليهودية وشريعتها ، وأن هذه الإقامة الانعزالية هى الشرنقة التى تحافظ على حياته الروحية إلى أن يحين الوقت الذى يشاء فيه الرب إعادته إلى ما يسمى «أرض الميعاد» مع حلول الخلاص المسيحانى . وربما كان فى هذا ما يفسر أسف الصهيونية ، بعد ذلك ، على انقضاء عصر الجيتو ، لأنه أنتج على مدى القرون يهودا يعيشون حياة يهودية مميزة تتباين وحياة الأقوام الذين يعيشون بينهم ، فكانوا يؤلفون أمة داخل الأمة تحميهم من الزوال الاندماجى .

خامسا : حدت فكرة العزل الاجبارى من أوجه النشاط التى كان يقوم بها اليهود فى مجال التجارة الدولية مما جعل الفقر يعم الحياة اليهودية ، ووصلت الطاقة اليهودية ذروتها

فى بداية القرن الثامن عشر . وقد ساعد على هذا الوضع كذلك تلاشى جبهة القتال بين المسلمين والمسيحيين عبر البحر الأبيض ، واكتشاف رأس الرجاء الصالح ، مما مكن التجار المسيحيين من التعامل مع الشرقين الأدنى والأقصى ، ففقد اليهود دورهم التقليدى فى هذا المجال .

٢ - الدين اليهودى :

لا يمكن فهم الطابع الانعزالى للحياة اليهودية دون القاء الضوء على دور الدين اليهودى داخل هذا النسق من الحياة . إن القوانين الدينية اليهودية المختلفة الخاصة بقوانين الطعام (الكاشير) ، وتحريم الزواج المختلط ، والختان ، وصلاة الجماعة (لايقل عن عشرة من المصلين ويسمى بالعبرية المنيان) ، وعادات الدفن الخاصة والعديد من المحظورات المقدسة التى تحرم متاع الدنيا وتوصف بعدم النظافة : لحم الحمل مع لبن أمه غير نظيف ، والمرأة الحائض غير نظيفة ، والسمك بدون زعانف غير نظيف ، والجسد العارى غير نظيف .. الخ . كل هذه القواعد والقوانين والمحظورات التى لاقت استهزاء الآخرين ، والتى فرضها حاخامات اليهود بتشدد لا يسمح بأى قدر من التجاوز ، هى التى عمقت من طابع العزلة اليهودية ، وكانت تهدف إلى تذكير اليهودى بانفصاله وتميزه وتفرده .

إن اليهودية ما برحت منذ ظهورها حتى الوقت الحاضر ، عبادة قبلية لجماعة خاصة متفردة ، ولم تتوقف فى أى وقت من تاريخها عن أن تكون جزءا لا يتجزأ من الثقافة الخاصة لتلك الجماعة ، وذلك كله رغما عن تطور فكرة الإله اليهودى ليصبح الحقيقة الروحية المطلقة للكون بأسره : أى رغم اسباغ صفة العالمية عليه ، وما يعنيه ذلك من الارهاص بصيرورة العقيدة اليهودية عقيدة للعالم بأسره . بيد أن تشتت اليهود بنزعتهم القبلية قاد إلى تحجر الديانة اليهودية ، ويعتبر المؤرخ أرنولد توينبى اليهودية أقبح أمثلة عبادة الذات الفانية صيتا (٣٢) .

ولقد ظل الدين اليهودى لفترة طويلة منذ القرن الثانى ق.م وحتى منتصف القرن الثامن عشر الميلادى هو العامل الرئيسى فى توجيه الحياة اليهودية، لدرجة أن المؤرخ اليهودى إسحق بير يقول : « إنه بالرغم من أنه كان للدين فى تاريخ اليونان والرومان ، وفى تاريخ أوروبا فى القرون الوسطى تأثير حاسم ، فإنك لتجد لدى هذه الأمم ، مع ذلك ، فصولا فى السياسة والأدب لا دخل للدين فيها ، مما يدل على أن تلك الشعوب قد وفقت فى عزل هذين الميدانين عن سلطان الدين عزلا تاما . أما عندنا ، فإنك لا تكاد تجد مثل هذين الميدانين فى الزمن القديم ، ومن باب أولى ، فى القرون الوسطى ، إلى عشية عصر التنوير الحديث » (٣٣) .

والدين اليهودى ، ليس مجرد دين يستلزم إيمانا بمبدأ لاهوتى معين ، ولا كذلك عبادة تفرض المحافظة على دورة من أيام السبت وأيام الصوم والأعياد المصحوبة بمجموعة من الطقوس والعادات . إن اليهودية هى كل هذا بالفعل ، ولكنها تضم بالإضافة إلى ذلك ، ما هو أكثر من هذا ، حيث تتحول إلى طابع حياة يتضمن العديد من الواجبات الملزمة يوميا لكل من يؤمن بها .

وهكذا ، فإن اليهودية ، على هذا النحو ، لم تكن مرادفة لكلمة الديانة اليهودية، إذ كانت اليهودية مفهوما أكثر اتساعا، فضلا عن أنه ، إلى حد ما ، يمكن أن ينظر إليها بنوع من الاستقلال عن مفهوم الديانة اليهودية التى تكون أحد عناصر اليهودية التى تمثل التعبير الكامل للحياة الداخلية لليهود (٣٤) .

وبالرغم ، من أن الدين اليهودى ، كدين سماوى ، يحتوى على الكثير من التعاليم السماوية التى تحض على الخير وتنبذ الشر ، إلا أن المحاولات التى تمت على يد حاخامات اليهود ، بعد أن تم تدوين التراث الشفهى اليهودى (التلمود) الذى يضم بين دفتيه اجتهادات هؤلاء الحاخامات فى تفسير الدين اليهودى . أدخلت إلى الدين اليهودى مجموعة من الأفكار المحورية ، خلقت عند اليهود ، استعدادا للانعزال عن الاغيار،

وعمقت بعض العقائد لدى اليهود ، مثل عقيدة «شعب الله المختار» ، و«الشعب المقدس» ، و«انتظار المسيح المخلص» ، وغيرها من العقائد التى أكدت مع مرور الأجيال انفصالية اليهود واحساسهم بالتميز والتفرد . وربما كان فى هذا ما يفسر لنا كذلك ، وجود كتاب مثل «شولحان عاروخ» (المائدة المنضودة) (٣٥) الذى يعتبر بمثابة دليل للحياة اليهودية بكل تفاصيلها وجزئياتها ، والذى يحتوى على نظام صارم للسلوك اليهودى فى الحياة اليومية على كل يهودى متدين أن يلتزم بالمحافظة عليه .

وقد فسر المؤرخون جميعا محافظة اليهود على أنفسهم كنتيجة للاخلاص لدينهم أو لقوميتهم، الذى برهنوا عليه عبر القرون . ولكن أبراهام ليون فى كتابه «المفهوم المادى للمسألة اليهودية» يرى «أن دراسة الدور الاقتصادى لليهود هو الذى يساهم ، لا غيره فى توضيح أسباب «المعجزة اليهودية» (٣٦)، وهو يستند فى هذا إلى فكر ماركس فى كتابه «المسألة اليهودية» الذى أوضح فيه أنه «يجب ألا نبحث عن سر اليهودى فى دينه ، بل فلنبحث عن سر الدين فى اليهودى الواقعى (٣٧) . ومعنى هذا أنه لايجب أن ننطلق من الدين لتفسير التاريخ اليهودى ، بل على العكس من ذلك ، علينا أن نفسر المحافظة على الدين أو القومية اليهودية ، انطلاقا من

«اليهودى الواقعى» ، أى من دور اليهودى الاقتصادى والاجتماعى ، لأنه ليست هناك أية معجزة فى الاستمرارية اليهودية، لأن اليهودية لم تستمر بالرغم من التاريخ ، بل سارت معه » (٣٨) .

وقد عبر الأديب الصهيونى يوسف حييم برينر (١٨٨١ - ١٩٢١) عن هذا الاتجاه بقوله : « لقد كان للأمور التجارية فى حياة أجدادنا دور أكبر من الأمور الدينية ، وعندما كان هذان الأمران يتضاربان لم يكن النصر حليف الدين . وإنه لخطأ كبير أن نصف تاريخ شعبنا بأنه حرب طويلة من أجل حفظ قدسية الدين ، فى الوقت الذى كانت فيه هذه الحرب الطويلة من أجل كسب الحقوق لأنفسنا » (٣٩) .

ومع أن هذا التفسير الاقتصادى لتاريخ اليهود وللاستمرارية اليهودية يستحق النظر بعين الاعتبار عند دراسة الظاهرة اليهودية ، إلا أنه ، بالرغم من ذلك ، لا يمكن إنكار أن المؤثر الوحيد الذى أثر بشكل واضح على وجدان اليهود حتى عشية عصر التنوير اليهودى كان هو الدين ، حيث كان الورع والتقوى يطغى على كل مظهر من مظاهر الحياة فى حدود «منظمة الاستيطان» «اليهودى فى روسيا» . إذ أنه لم يكن من الممكن تصور استمرار الحياة اليهودية لدى السكان النموذجية فى الشتتل دون وجود تسهيلات مثل

المعبد، والمقابر ومجتمع المدافن ، وحوش الطقوس الدينية للنساء ، وشروط ذبح اللحم الكاشير . ففي أوائل القرن التاسع عشر كانت القاهال قد أخذت على عاتقها الاشراف على وتنظيم الطقوس الدينية ، وكانت «المزوزوت» (عضادات الباب) (٤٠) موجودة على عتبة كل بيت يهودى ، وكان المتعبدون اليهود يضعون «التفليم » (٤١) بانتظام على أذرعهم ، وكانت النسوة تحضر بانتظام الماء المقدس مرة كل شهر ، وكانت قوانين كتاب «الشولحان عاروخ» تنظم اللوائح الأخلاقية للحياة الخاصة . فلما تم الغاء القاهال فى عام ١٨٤٤ انتقلت اختصاصاتها الاشرافية إلى مجالس إدارة المعابد التى تمسكت تمسكا كاملا بالمظهر الكامل للطقوس الدينية اليهودية .

وفى الشتتل النموذجية، كان الحاخام يعد الزعيم الدينى والعلمانى ، فى حين أن المعبد صار المركز الدينى والثقافى والتعليمى والاجتماعى . وكان هناك معبد واحد على الأقل ، حتى لو احتاج بناؤه إلى الاقتراض من الطوائف المجاورة . والمعبد (الشول Schule) (٤٢) عبارة عن بيت اردوازى اللون، وكان بصورة لا تتغير منزلا متداعيا به ثقوب ، وكريه المنظر إذا نظر إليه فى أية صورة من صور الجمال . وعلى الرغم من ذلك فإن الفوز بمقعد فى الشول كان يعد فوزا كبيرا .

وكان هذا المقعد إما أن يشترى لمدى الحياة ، وإما أن يؤجر سنويا إذ أنه بدون هذا المقعد لا يحق لأى إنسان أن يكون له شرف تقديم القراءة فى كتاب العهد القديم كل أسبوع . أما فى المجتمعات الكبرى فقد كانت توجد مجموعتان مختلفتان من المعابد : إحداهما «بيت هكنيست» ، وهو عبارة عن مقر عبادة صرفة كان يغلق خلال ساعات النهار ، أما الأخرى فهو «بيت هامدراش» (المدْارس) ، ويظل مفتوحا طوال اليوم للدراسة ، وللأغراض الاجتماعية إلى جانب الممارسات الدينية . وفى المجتمعات الكبرى كانت توجد معابد خاصة يمتلكها الأثرياء ، وهذا التنوع فى المعابد إنما يعكس الجنون اليهودى فى التكريس للطقوس الدينية .

ويصف الكاتب إسحق برليفنسون الفوضى التى كانت تسود معبدا (شول) فى فولهينيا فى منتصف القرن التاسع عشر فيقول :

« إن كل معبد أو كنيس لهما قواعدهما الخاصة» ..ولم يكن هناك أى توحيد فى الطقوس الدينية ، وكل ما كان هناك هو الفوضى الشاملة . إن هذا يهدم ما بناه الآخر ، وهذا الشخص يقفز فى حين يصيح الآخر ، وهذا يتأوه وينوح على ما ألم به من خسارة فى الوقت الذى تجد فيه الآخر يدخن فى هدوء ، وهذا يأكل بينما يشرب الآخر . وشخص ما يكون

قد بدأ صلاته ، بينما يكون الآخر قد أتمها . وشخص يتجاذب أطراف الحديث ، في حين تجد شخصا آخر يترنم بالأناشيد الدينية . وهنا شخص يتناقش حول أحداث اليوم ، وآخر غارق في الضحك .. » (٤٣) .

وفي السنوات السابقة للتطور في الصحافة اليهودية الفعالة، كان المعبد يقوم بدور مركز المعلومات للطائفة ، وكان المعبد كذلك مركزا لجمع التبرعات وتوزيعها . وكانت جميعات كثيرة من الجمعيات الحرفية وجمعيات المساعدة تحصل على دخل منتظم من الصناديق الخيرية التي توضع في أماكن الدخول والخروج بشكل واضح . وكان المعبد كذلك هو النادي الاجتماعي الذي يظهر فيه الأثرياء والمتفاخرون حيث يرتدون الملابس الغالية والمجوهرات ، ويرتدون شيلان الصلاة (الطاليت) المزركشة ياقاتها بالذهب ، وأغطية الرأس المصنوعة من الحرير . وكانت احتفالات الأسرة تقام في المعبد ، وكذلك احتفالات التعميد للصبي البالغ ١٣ عاما (برمتسفا) والزواج والختان . وحينما كان المحتفلون يشربون النبيذ ويأكلون الكعك ويرقصون رقصة الفرايلاش (رقصة شعبية يهودية) ، كان من النادر أن يهتموا بما إذا كان المبنى الذي يجتمعون فيه قديما ومتداعيا وذو رائحة كريهة (٤٤) .

وهكذا فإن المعبد إلى جانب كونه مركزا للحياة اليهودية

فى «منطقة الاستيطان» ، فإن وظيفته ، كما رأينا ، لم تكن كهنوتية فحسب ، بل كانت تتضمن دائما وظيفته كمركز للحياة الاجتماعية ، ومناقشة شئون الطائفة ، بالإضافة إلى وظيفته كمدرسة . وكان التعليم ، على هذا النحو ، فى أبسط صوره تعليما دينيا صرفا . ففى السنوات الأولى من حياة الصبى ، فى سن الرابعة ، كان يبدأ الصبى حياته المدرسية فى «الحيدر» (ما يقابل الكتاب عند المسلمين) وهو المدرسة الابتدائية الخاصة الصغيرة ، والتى كان يقوم بالتدريس فيها عادة معلما يسمى «ملاميد» بناء على اختيار والد الصبى .

وفى منتصف القرن التاسع عشر كان يوجد حوالى ستة آلاف حيدر فى «منطقة الاستيطان» يعلم فيها حوالى خمسة عشر ألف معلم . والسلطة الكهنوتية لنظام التعليم تبدأ «بالحيدر» وتستمر مع تلمود توراة» و «تتوج» «باليشيفا» (الأكاديمية التلمودية) التى تماثل الدراسات العليا ، والتى كان يحضرها عادة صفوة من الطلاب تمثل الأقلية .

وكان منهاج التعليم فى «الحيدر» النموذجى يتكون من الأبجدية العبرية ودراسة التوراة «الجمارا» (جزء من التلمود) وكان «الحيدر» يتميز بعدة سمات : الحفظ الصم الذى حل فى تلك الأيام محل الفهم ، والحالة غير الطبيعية التى يرثى لها لغالبية المدارس ، والرطوبة وجو العفونة ، والقذارة

والأرضيات الملطخة بالبصاق والبرودة الشديدة في الشتاء ، وأسراب الذباب التي لا تنقطع في الصيف . وأسوأ هذه الأمور جميعا هو المعلم ، الذي لم يكن في استطاعته أن يسمو بمستواه عن أي فرد لأن رسوم التعليم كانت متواضعة، بل كان يصعب على البعض أحيانا دفعها ، كما كانت معاملاته للطلبة تتسم بالقسوة والجلد والشتيمة .

ويصف شمارياهو لفين «الحيدر » فيقول :

« قد لا أكون مخطئا إذا قلت إن ثلث أوقات «الحيدر» كانت تضيع في المشاحنات التافهة الكريهة بين المعلمين والطلاب ، أما الثلثان الباقيان فكان يسممهما الثلث الأول . ومن يدرى كم من المواهب الكثيرة الأصيلة قد قبرت بفضل كرباج المعلم (سيدنا)، وكم من الضحايا ظلت مدفونة إلى الأبد تحت بقايا تلك المؤسسة المسماة بالحيدر ؟ ولا أستطيع أن أركز الاهتمام أيضا على الدور الفريد الذى كان غالبا ما يلعبه الحيدر في حياة الشباب اليهودى .

لقد كان يرى أبويه ، غالبا ، مرة لمدة نصف ساعة في الصباح قبل الصلاة الأولى ، ثم لمدة ساعة قبل أن ينام .. ولهذا فإن المعلم كان بمثابة الإله والسيد بالنسبة للطفل اليهودى . كما أن «الحيدر» ذا الغرفة الوحيدة الضيقة عديمة الضوء والقذرة فرض طابعه على الطفل اليهودى ، وطبع

بؤسه وخرابه عليه فى سنواته الأولى الرقيقة (٤٥) .

وفى هذا النظام التعيلمى الذى كان سائدا لدى كل يهود القارة الأوروبية كانت توجد ثلاثة أسس :

أولا : كان هذا هو التعليم التقليدى الموجه لمنح المعرفة باللغة العبرية والتوارة ، ولتوجيه التلميذ فى دوائر الفكر اليهودى الموروث وإعداده لطابع الحياة اليهودية الخاص .

ثانيا : كان هذا النظام نظاما تعليميا شعبيا وديموقراطيا، لأن كل فتى وشاب كان عليهما أن يدرسا قدرا ما ، وكانت كنوز المعرفة مفتوحة أمام كل واحد بقدر قدراته .

ثالثا : كان النظام التعليمى اليهودى قائما على الافتراض بأن شريعة إسرائيل هى ذورة أعمال الرجل اليهودى فى حياته ، ومعيارا لمركزه الاجتماعى (٤٦) .

ولم تكن هناك سن محددة ، أو أى تحصيل تربوى رسمى يحدد نهاية مرحلة الحيدر ، فإذا كانت الظروف المادية لوالد الطفل تسمح ، أو لو أنه كان مبدئيا قد كرس جهوده للدراسة، فيمكن أن ينتظم فى الأكاديمية التلمودية (اليشيفا)، وهى أكاديمية كانت تعتمد على شخصية الحاخام العالم (على غرار شيخ العامود فى الأزهر الشريف) بصورة خاصة . وكان طموح أى حاخام مشهور هو أن يخرج جيلا من الطلاب

المتقدمين فى دراستهم يسيرون على نهجه . وقد كانت توجد ثلاث فقط من هذه الاكاديميات فى لتوانيا عاصمة الثقافة اليهودية : فى فولوجين ، وميز ، وفيلنا . والحقيقة هى أن كل الطلاب الذين كانوا يلتحقون بالأكاديمية التلمودية كانوا من الفقراء تماما ، وكان من الصعب أن يستمروا فى دراساتهم إلا بفضل التبرعات التى كانت تجمع لهم من المجتمع اليهودى.

ولما كان كثير منهم قد جاء من المناطق المتطرفة ، فقد كان هذا الإجراء الذى تقوم به «اليشيفا» هو أن تبعث بمحصلين إلى أرجاء أوروبا وأمريكا لجمع الأموال . وكان طالب اليشيفا يحصل على خمسة وسبعين كوبك أسبوعيا يتعيش عليها وينتظر فى شجن أيام السبت ، إذ ربما تدعوه إحدى الأسر لتناول إحدى الوجبات . وعلى الرغم من ذلك فقد كانت وجبة اليوم الأسبوعى من النادر أن تتكون من شىء أكثر من البرغل المطهو فى الماء . وعلى هذا اللون من الطعام كان الطلاب يستطيعون أن يستمروا فى دراساتهم من الساعة الخامسة صباحا حتى الحادية عشرة مساء . وكان معظمهم يبيتون فى «اليشيفا» (المعهد التلمودى العالى) (٤٧) .

فى ظل هذا المناخ الانعزالى المتمحور حول الدين وسلطة الحاخام والايقاع التنظيمى ذى الطابع الاقتصادى الهامشى

المنحصر فى التجارة المتجولة ، وبيع الملابس المستعملة ، وفتح الحانات ، وعمليات الحياكة والصباغة والاقراض بالربا والصيرفة ، تبلورت السمات السيكولوچية الأساسية للشخصية اليهودية الجيتوية ، التى عانت نوعا من الانفصام في الرؤية جعل الصراع فى المشاعر والتناقض الحاد فى السلوك محورا رئيسا تحددت من خلاله السمة الرئيسية لتلك الشخصية ، وهي :

- عقدة التناقض بين الشعور بالاستعلاء والشعور بالدونية والاضطهاد :

لم يرث اليهود كتاب «العهد القديم» فقط ، بل ورثوا معه تاريخا طويلا من اللاشعور الجمعى بكل محتوياته ومكنوناته وعقده النفسية : الشعور بالذنب ، وعقدة أوديب ، والشعور بالدونية ، والشعور بالعظمة والتعالى ... الخ. وكتابات العهد القديم زاخرة بالأقوال التى تدلل على تلك الحالات . فبالنسبة لعقدة الشعور بالدونية، نقرأ فى سفر الخروج النص التالى : « فقال الرب ، لقد رأيت مذلة شعبى فى مصر ، وسمعت صراخهم وعلمت أوجاعهم ، فنزلت لأنقذهم من أيدى المصريين ، وأخرجهم من تلك الأرض إلى أرض جيدة وواسعة» (٤٨) . ومرة أخرى «فاستعبد المصريون بنى إسرائيل بعنف » (٤٩) و«مرّروا حياتهم بعبودية قاسية» و

«الآن هو ذا صراخ بنى إسرائيل قد أتى إلىَّ ، ورأيت أيضا الضيق التى يضايقهم به المصريون» (٥٠) . والوصايا العشر تبدأ بجملة : « أنا الرب الهك الذى أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية» (٥١) . وقد خلقت لديهم هذه القصص التاريخية الدينية إحساسا بالمذلة الدائمة ، عوضوه بعد ذلك بسلوك عدواني ووحشي تشهد على ممارسته مدوناتهم التى سجلت قصة غزو أرض كنعان من منظورهم الدينى القومى .

ولقد شقت عقدة الانعزال عن البشر ، والامتياز والاستعلاء على أمم العالم طريقها إلى النفسية اليهودية ، وأصبحت عاملا أساسيا فى تكوين شخصية هذه الجماعة من البشر منذ القدم ، عن طريق الأنساب والأعراق ، وعن طريق الذكريات الدينية والسياسية التى تضخمت وغلظت مع الزمن. وهنا يتضح مدى أهمية الخرافة والأسطورة فى خلق الإطار النفسى العنصرى اليهودى لدرجة تتجاوز الحقيقة التاريخية، ... وخاصة لأن كلا من الخرافة والأسطورة اصطبغتا مع الزمن بقدسية الدين . وقد رأى اليهود أنهم فى مجتمعاتهم المتفرقة فى أنحاء العالم ، والتى كثيرا ما تعرضت لكراهية الأمم الأخرى ، قد عاشوا ، منذ السبى البابلى فى القرن السادس قبل الميلاد ، والتشريد الرومانى منذ القرن الأول الميلادى ، يصارعون عوامل الفناء ، ويتغلبون بتضامنهم

الاجتماعى والدينى على كل مشاريع الإبادة التى خططت من أجلهم ، فكان من الطبيعى أن يأخذهم الزهو والغرور بهذا البقاء الدائم ، فظهرت فى تعبيراتهم اللغوية ألفاظا يطلقونها على أنفسهم ، لتؤكد هذا الغرور ، وتزيد من الالتحام والتضامن اللذين يربطان بعضهم ببعض ، وجعلوا هذه الظاهرة مرتبطة باختيار إلهى دون سائر شعوب الأرض ، وبإرادة الهية لا قبل للبشر بمقاومتها . ومن هنا لا يتردد اليهود فى تسمية أنفسهم «شعب الله المختار» ، حيث يعتقدون أن هذا الاختيار هو برنامج إلهى ، فبهم يعاقب الله الأمم الأخرى ، وهم الذين يبقون وحدهم فى آخر الزمان متسلطين على رقاب العالم . كذلك فإنهم يسمون أنفسهم «الشعب الأزلى» (عم عولام) ، «والشعب الأبدى» (عم نيتسح)، حيث يعتقدون أنهم مثل الله ، لا أول لهم ولا آخر ، ولا بداية ولا نهاية ، و«الشعب المقدس » (عم قادوش) (٥٢) .

ولا تقف فكرة الشعور بالاستعلاء العنصرى فى التكوين النفسى اليهودى عند ذلك الحد ، بل تنعكس فى العديد من التعبيرات التى تعكس الإيمان العميق لدى اليهودى بحقارة أمم العالم مثل : « جوى» التى يشار بها إلى الشخص غير اليهودى ، وتعنى القذارة المادية والروحية والكفر، و «عاريل» و «معناها» «الأقلف» ، أى غير المختتن ، الذى يبقى بدائيا

فطريا فيظل قذرا وكافرا فى آن واحد ، وكانوا يطلقونها على المسيحيين لعدم شيوع الختان بينهم ، و«ممزير» أى «ابن الزنا»، وهى تدل فى أسفار العهد القديم على الشعب المختلط الانساب ، وقد خصصها اليهود للمسلم ، نسبة إلى ما يعتقدونه من أن إسماعيل أبو العرب ولد من هاجر التى تعتبر فى نظرهم جارية وأجنبية (٥٣) .

وهكذا نجد أن الفكر الدينى اليهودى قد صاغ العقلية اليهودية فى إطار من العنصرية التى تسبغ على اليهود صفات المديح والتعظيم ، فى الوقت الذى تتعامل فيه مع الشعوب غير اليهودية بسيل من الأوصاف العنصرية والشتائم التى تؤكد على أن الاستعلاء العنصرى هو أساس ثابت فى تكوينها .

ويقول الأديب الصهيونى يوسف حييم برينر (١٨٨١ - ١٩٢١) عن هذه النزعة الاستعلائية لدى يهود الجيتو :

« يجمع كُتَّاب تاريخنا على أن أجدادنا يهود الجيتو القديم، كانوا يحسون بنوع من الكبرياء والسمو بالنسبة (للجوى) حتى عندما كانوا يقبلون يديه ويرتمون أمامه (٥٤).

وبسبب هذا الموقف الاستعلائى العنصرى من الجوييم (الشعوب غير اليهودية) تعطل جدل الوجود لدى الشخصية

اليهودية ، فلم يعد مرآة للذات تتعرف فيها الذات على نفسها، ويتخلق من خلال هذه المعرفة وعى الذات بوجودها حيث تحتل الرغبة في اعتراف الآخر بالذات حجر الزاوية فى هذا الوعى الذاتى .

ولا يكون لهذا الاعتراف بالذات من قبل الآخر جدوى ما لم يكن الآخر ذاتا معادلة مكافئة . إن ندية الآخر والاعتراف بهذه الندية هما الشرط العزوى لحرية الذات ولتوالد مشاعر الأمن بوصفهما حجر الزاوية فى نمو وتطور كل ما هو إنسانى (٥٥) .

وقد تحول هذا الاستعلاء العنصرى المشحون بالكراهية ، وعدم الاعتراف بندية الآخرين ، إلى اضطهاد من قبل الشعوب التى يعيش بينها اليهود « حتى فى المجتمعات التى اعتنقت الليبرالية والاشتراكية . فما انفك اليهودى فيها يهوديا، ولايزال هناك حاجز سيكولوجى يفصل اليهود من غيرهم على الرغم من تقرير المساواة رسميا . وهذا التناقض قد جر إلى المذابح والاضطهاد والنكبات التى حطت على اليهود ، فالعالم عاجز عن فهم اليهودية ، وما برح المفكرون يتساءلون عن كنه الطبيعة اليهودية (٥٦) .

وهكذا ظل الاستعلاء العنصرى اليهودى يجذب الكراهية ، والكراهية تولد الحقد ، والحقد يغرى بالاضطهاد ، وإذا

باليهود يدورون ، والعالم على أثرهم ، فى حلقة جهنمية مفرغة من الاستعلاء والحقد والاضطهاد ، حولها اليهود فى تاريخهم إلى ذكريات فى التاريخ اليهودى لنيران لا تنطفىء فى تلك الدائرة الجهنمية التى وصلت إلى ذروتها فى صورة نوع من العقيدة ، أو المبدأ السياسى والاجتماعى فيما سمى «معاداة السامية» (٥٧) .

ويؤكد دكتور قدرى حفنى فى دراسته عن سيكولوچية الشخصية الإسرائيلية هذا التناقض فى سلوك الشخصية اليهودية داخل الجيتو بقوله :

« جدران عالية تفصل بينهم وبين المجتمع من حولهم . كثافة فى العدد تميزهم . ارتفاع فى منازلهم يميزها . شارات خاصة (٥٨) تفرق بينهم وبين غيرهم . حياة نموذجية لتنمية وتضخم عنصر الإحساس بالتمايز ، ثم إذا نظرنا من الناحية الأخرى لتلك الحياة وجدناها حياة مليئة بالصراع ، صراع مع ذلك المجتمع الذى فرض عليهم العزلة ، وفرض عليهم الضرائب ، وفرض عليهم مهنا معينة ، دون غيرها ، وفرض عليهم زيا معنيا أو شارة معينة لابد من ارتدائهما حياة نموذجية أيضا لتنمية وتضخم الإحساس بالاضطهاد» (٥٩) .

ويرى د. فرج أحمد في معرض تحليله لهذه السمة السلوكية ، أن رفض العقلية اليهودية الاعتراف بندية الآخرين هو أساس منشأ ذلك التكوين الذى لا يمكن إلا أن يكون وعيا ممزقا شقيا ، وعيا يحمل فى ثناياه بذور ذلك الشعور المرضى بالعظمة والاضطهاد . وهما وجهان متناقضان متحدان ضروريان لشيء واحد . إنه عظيم، لأنه الشعب المختار والشعب الأفضل والأوحد والأقدر . أما سائر الشعوب فهى الأحقر . ولكن هؤلاء الاغيار (الشعوب غير اليهودية) لا يقبلون ذلك ولا يسمحون به ، بل إنهم يذيقونهم الأمرين ، ابتداء من السبى الرومانى وحتى الاضطهاد النازى . ويكون التفرق والشتات والنفى والتشرد . وبدلا من الاندماج والاختلاط ببقية شعوب الأرض ، يكون التمسك بالتعالى والنقاء والتمييز والقراءة هو الدرع الذى تحتمى به هذه الجماعات المتفرقة فى شتاتها ، متحصنة داخل أسوار «الجيتو» فى غرب أوروبا أو داخل «منطقة الاستيطان» فى شرق أوروبا . تعال من جانب يدفع إلى الاضطهاد ، واضطهاد يؤدى بدوره إلى مزيد من مشاعر الاضطهاد والظلم لا يبقى مهرب منها إلا فى مزيد من التمسك بالتعالى . وهكذا يتعقد الموقف وتتشابك حلقاته وتتداخل الأسباب بالنتائج ويمتزج الفعل برد الفعل بحيث يصبح الأمر فى نهاية

المطاف وقد غدا من الصعب معرفة أيهما أعمق جذورا ، وأشد تأثيرا ، تعالى اليهود وعزلتهم ، أم اضطهاد الآخرين»(٦٠).

ويتساءل الأديب الصهيوني حييم برينر عن هذه المشاعر المتناقضة داخل شخصية اليهودي في الجيتو بقوله :

« من أين أتى هذا الاحتقار من جانب اليهود للأغيار والشعور بالسمو عليهم ؟ هل كان اليهودي عديم الشعور حقا وميتا إلى درجة لم يشعر معها أن حياة الأغيار أكثر غنى وأكثر جمالا من حياته ؟ كلا ، إن هذا مستحيل ، ونحن لا نستطيع أن نصدق هذا .

فإذا كان هناك احتقار للأغيار ، فلم يكن ذلك سوى حسد طبيعي يشعر به الفقراء تجاه الأغنياء ، والرهبان تجاه الفرسان ، والعاجز تجاه القادر .

إن هذا الاحتقار لم يكن سوى استسلام لنصيبنا في الدنيا ، وأحيانا نوع من العزاء لآمالنا في العالم الآخر ، يتلوه صرير أسنان وغضب داخلي عن وعي أو غير وعي » (٦١) .

ويؤكد د. حامد ربيع، لدى تعرضه لملامح الطابع القومي اليهودي هذه السمة في الشخصية اليهودية ، فيشير إلى أنه

«يتصف بالازدواج فى شخصيته ، فهو مخيف من جانب ، وقنوع من جانب آخر ، وهو فقير فى بعض الأحيان ، ولكنه يحب المال ، ويظهر غنيا فى أحيان أخرى ، وهو يرضى بالعقاب الذى نزل به منذ الخطيئة الأولى ، ولكنه شكاك ومتذمر ومتربص لتحقيق تمرده وثورته فى أحيان أخرى(٦٢).

مراجع وهوامش
الفصل الأول

١ – دون العهد القديم وهو أقدم سجل دينى وتاريخى لليهود فى فلسطين على ضفاف نهر الأردن ، وأنتج التلمود وهو التراث الشفهى على ضفاف نهر الفرات ، وكان العصر الذهبى للأدب العبرى فى العصور الوسطى فى بلاد الاندلس تحت تأثير الثقافة الإسلامية ، وفى العصر الحديث كان مركز الإنتاج الفكرى اليهودى فى شرق أوروبا على ضفاف الفولجا والدنيبر ، ومع إقامة دولة إسرائيل انتقل مركز الفكر العبرى مرة أخرى إلى فلسطين .

٢ – اليهود السوفيت : الحقائق والخيال ، ص ٧ – ٨ .

٣ – سلزر . مايكل : إضفاء الصبغة الآرية على الدولة اليهودية ، ص ٢٤ .

٤ – نفس المرجع ، ص ٢٥ .

(★★) الموت الأسود كارثة راح ضحيتها نحو ربع سكان أوروبا وأتهم اليهود بأنهم هم سبب الكارثة بأن سمموا الآبار..

٥ – اليديش عبارة عن رطانة يهودية ، عبارة عن خليط من الألمانية وبعض اللهجات السلافية والأرامية والعبرية وتكتب بالحروف العبرية . وقد كتبت بها انتاجات أدبية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، ومازال قطاع من يهود أمريكا ذوى الأصل الشرق أوروبى يكتبون بها أدبا حتى الآن.

٦ – سلزر . مايكل : م . س . ذ ، ص ٢٤ .

٧ – ماهلر . رفائيل : تاريخ اليهود فى العصر الحديث (١٧٨٠ – ١٨١٥) ، ص ٣٦٩ .

٨ – نفس المرجع ، ص ٣٧٠ .

٩ – سلزر . مايكل : م . س . ذ ، ص ٢٦ .

١٠ – سيأتي حديث عنها فيما بعد .

١١ – دائرة المعارف العبرية ، الجزء العاشر عمود ٦٠١ – ٦٠٢ .

١٢ – ساخار . هوارد مورلى : مسار التاريخ اليهودى الحديث ، ص ١٩١ .

١٣ – المسيرى . عبدالوهاب (دكتور) : الايديولوچية الصهيونية ، ص ٣٣ .

١٤ – ايفن شوشان . أفراهام : القاموس المركز ، ص ٦١٨ .

١٥ – منتشر . أريه (دكتور) : معجم الوعى اليهودى ، الجزء الرابع (أحداث وظواهر فى تاريخ شعبنا) ، ص١١٧ .

١٦ – ساخار . هـ . م . م . س . ذ، ص ٣٢ .

١٧ – المسيرى . عبدالوهاب : م . س . ذ ، ص ٣٣ .

١٨ – اتينجر . شموئيل : تاريخ اسرائيل فى العصر الحديث ، ص ٥٣ .

١٩ – ساخار . هـ . م : م . س . ذ ، ص ٨٧ .

٢٠ – اتينجر . شموئيل : م . ص . ذ ، ص ١٠١ .

٢١ – ساخار . هـ . م : م . س . ذ ، ص ٨٩ .

٢٢ – اتينجر . شموئيل : م . س . ذ ، ص ١٠١ .

٢٣ – الموسوعة اليهودية (جواديكا) ، المجلد السابع ، ص ٥٤٢ .

٢٤ – منتشر . أريه : م . س . ذ ، ص ٧٣ .

٢٥ – دائرة المعارف العبرية : المجلد العاشر ، عمود ٥٩٥.

٢٦ – الموسوعة اليهودية (جوديايكا) : م . س . ذ ، ص ٥٤٢ .

٢٧ – دائرة المعارف العبرية : م . س . ذ ، عمود ٥٩٧ .

٢٨ – نفس المرجع ، عمود ٥٩٦ .

٢٩ – الجوييم : الكلمة عبرية على صورة الجمع ومفردها «جوى» ، وأصل اشتقاق الكلمة غير معروف ، ويرى بعض العلماء أنها جاءت من أصول غير سامية قديمة جدا ، واستخدمها العبريون في العصور القديمة بمعنى الهوام والحشرات التى تزحف في جموع كبيرة ، مكررة مرتين للتهويل ، فكانوا يقولون «جوى – جوى» . ومن هذا التركيب الازدواجى بقي فى لغتنا العربية – لفظ «غوغاء» ، ومعناه أيضا جموع الجراد ونحوه من الحشرات ، ثم انتقل إلى معنى الكثير المختلط من الناس ، ثم أصبح يدل على السوقة والأشرار بصفة خاصة . وقد سلكت «جوى » العبرية نفس الطريق فى تطورها ، من إفادة معنى الهوام والحشرات إلى اختلاط الناس ، ثم إلى سفلتهم وأشرارهم . ومن هنا خصصتها العنصرية الاسرائيلية منذ القدم للاشارة إلى الناس جميعا من غير بنى إسرائيل . وقد توسع أحبار اليهود في مدلول الكلمة فأضافوا إليها معنى القذارة المادية والروحية والكفر ، وأصبحت بمثابة سبة تلصق باليهودى الذى يتعدى حدود الدين .

٣٠ – جولدمان . ناحوم : التناقض اليهودى ، ص ٧١ .

٣١ – دائرة المعارف العبرية : م . س . ذ ، عمود ٥٨٩ .

٣٢ – شبل . فؤاد محمد : مشكلة اليهودية العالمية ، ص ٧٤ .

٣٣ – حسين . راشد : حييم نحمان بياليك ، نخبة من شعره ونثره ، ص ١٤ .

٣٤ – ربيع . حامد : تأملات فى الصراع العربى الاسرائيلى ، ص ٨٢ – ٨٦.

٣٥ – ليون . أبراهام : المفهوم المادى للمسألة اليهودية ، ص ٢٠ .

٣٦ – الشولحان عاروخ : بالعربية «المائدة المجهزة» أو المصفوفة «إشارة إلى أن المطلع على الكتاب يجد فيه مالذ وطاب من الأحكام والتفسيرات للشريعة اليهودية» . والكتاب عبارة عن تجميع لأحكام الشريعة اليهودية . عن كافة القضايا التى تمس حياة اليهودى . قام بتأليفه يوسف كاروه أحد حكماء «صفد» فى القرن الخامس عشر الميلادى . وينقسم الكتاب

إلى أربعة أجزاء هي : « أورح حييم» (نهج الحياة) ويتناول الصلوات والأعياد والمواسم ، و«يوره دعت» (معلم المعرفة) ويتناول المحلل والمحرم من المأكولات والطهارة والنجاسة والصدقات والنذور والحداد والختان .. الخ .. و«ايفن هاعيزر» (الحجر المغني) ويتناول قضايا الزواج والطلاق وكافة ما يتعلق بالنساء ، و«حوشن مشباط» (صدر القضاء) ويتناول أحكام المعاملات والحقوق والميراث والشهادة والعقود والوصاية .. الخ . ويتبع اليهود السفارديم واليهود الشرقيين أحكام النص الأصلي لهذا المرجع التشريعي ، بينما يتبع اليهود الاشكنازيم النسخة المنقحة وفق تقاليدهم والتي أضافها ربي موشيه السريلاش (رما) البولندي والذي كان معاصرا لكاروه . كان هذا الكتاب من أكثر الكتب تعرضا لهجوم رواد حركة التنوير اليهودية في شرق أوروبا بسبب تشدده في الأحكام الدينية والتشريعية .

٣٧ – ماركس . كارل . المسألة اليهودية ، ص ٥٥ .

٣٨ – نفس المرجع .

٣٩ – هرتزبرج . أفراهام : الفكرة الصهيونية ، ص ٢٣٧.

٤٠ – المزوزا : ملف من الورق مكتوب عليه صيغة صلاة التوحيد اليهودية «الشماع» يوضع في عضادة الباب التي تسمى «المزوزا» وتعلق على الجانب الأيمن من الباب . وجرت العادة على أن يقوم الشخص الداخل للمنزل أو المغادر له بوضع يده على المزوزا ويقول «ليحفظ الله خروجي ومجيئي من الآن وإلى الأبد» . وهناك عادة يتبعها البعض لتقبيل المزوزا لدى الدخول والخروج .

٤١ – التفليم : عبارة عن قطعتين من رق مكتوب على كل منهما أربعة اصحاحات من التوراة داخل حافظتين صغيرتين من جلد وتوضعان حسب الترتيب التالي : الأولى فوق الذراع الأيسر مقابل القلب وتثبت بسير من جلد يلف على الذراع ثم على الساعد سبع لفات ثم على اليد ، وتثبت

الحافظة الثانية بسير أيضا كعصابة حول الرأس فوق أعلى الجبهة فى الوسط مقابل المخ ثم يعود ويتمم لف السير الأول ثلاث لفات على الأصبع الوسطى . ويراعى أن يوضع «التفيلم» وقوفا وألا يكون فاصل بينهما وبين الجسم كخاتم أو ساعة ، وأن يلزم السكوت وقت وضعها . ويزال التفيلم بعد الصلاة حسب الترتيب الذى وضع به ، ولا يوضع «التفليم» فى أيام السبوت والأعياد الرئيسية في عيد الغفران .

٤٢ – شول : نمط معين من المعابد اليهودية كان سائدا في وسط وشرق أوروبا ، كان يتميز بارتفاعه ويسمي شول Schule, school ، لأنه كان يوجد بجواره ، بشكل عام ، «بيت مدراش» أو «تلمود توراة» وهى مدارس لتعليم التوراة .

٤٣ – ساخار . هـ . م : م . س . ذ ، ص ١٩٢ .

٤٤ – نفس المرجع ، ص ١٩٣ .

٤٥ – نفس المرجع ، ص ١٩٥ .

٤٦ – سناخار . هارى : مقالات يهودية (ماسوت يهوديوت) ، ضمن كتاب «مائة سنة من التاريخ اليهودى » ، ص ١٧١ .

٤٧ – ساخار . هـ . ن : . س . ذ ، ص ١٩٥ .

٤٨ – سفر الخروج ٣ : ٧ .

٤٩ – سفر الخروج ١٥ : ١٣ .

٥٠ – سفر الخروج ٣ : ٩ .

٥١ – سفر الخروج ٢٠ : ١ .

٥٢ – « لأنك شعب مقدس للرب الهك ، وقد اختارك الرب لتكون له شعبا خاصا ، فوق جميع الشعوب التى على وجه الأرض» .

(التثنية ١٤ : ٢) ويصف فرويد إدعاء اليهود بأنهم شعب الله المختار بأنه خرافة مطبقة ، ويقرر أن تلك حالة لا نظير لها على الإطلاق فى تاريخ

العقائد الدينية . ففى الحالات الأخرى يندمج الشعب ومعبوده اندماجا تاما منذ البداية ، وفى حالات أخرى يتحول الشعب إلى عبادة معبوده، أى يختار الناس معبودهم ، ولم يحدث قط أن اختار الله عابديه . وقد أخذ اليهود عن المصريين فى إطار هذا الاختيار الإلهى عادتين ، كانوا يتميزون بهما ، ونسبهما اليهود لأنفسهم كعهد بينهم وبين الرب وهما عادة الختان وتحريم تناول لحم الخنزير.

٥٣ – ظاظا . حسن : م . س . ذ ، ص ٢٥ – ٣٢ .

٥٤ – هرتزبرج . أفراهام : م . س . ذ ، ص ٢٣٨ .

٥٥ – فرج . فرج أحمد (دكتور) : الحرب والموت ، دراسة فى اليهودية الاسرائيلية ، ص ٢١٢ .

٥٦ – شبل . فؤاد محمد : م . س . ذ ، ص ٩٥ .

٥٧ – معاداة السامية هى ترجمة غير دقيقة للكلمة الأوروبية «أنتيسيميتيزم» التى تعنى حرفيا «المذهب المعادى للسامية» ، والمقصود بها هو «معاداة اليهود » أو «نبذ اليهود من المجتمع » أو «مناهضة اليهود» لأنهم الممثلون الوحيدون للجنس السامى فى المجتمع الأوروبى ، على حسب الدعوى العنصرية التى أشاعوا عن أنفسهم ، حيث يعتقدون أن كل ما حل بهم إنما يرجع لكونه يهوديا ، وأن من يسعون لايذائه مصابون بداء «معاداة السامية» والمنطق الطبيعى يقول عكس ما يدعيه اليهود ، لأن العداء للسامية هو رد فعل لعداء اليهود لغير اليهود ، أو عداء السامية لغير الساميين . وهكذا فقد أصبح شعار معاداة السامية سلاح ارهاب مسلط على كل من يدفعه ضميره أو تفكيره إلى معارضة مخططات الصهيونية من رجال السياسة والفكر .

وقد ترتب على هذا أن تمكن الصهيونيون من احتواء الفكر الغربى فاندفع مفكرو الغرب أو غالبيتهم العظمى إلى مناصرة الصهيونية دون تحفظ تحت وهم أنهم يناصرون قضية عادلة يدفعون بها عن البشرية وزر

العنصرية بما يعكس أضخم عملية «غسيل مخ» عرفتها البشرية .

٥٨ – كان اليهود يميزون وفق أوامر من بعض السلطات في العصور الوسطى بشارات معينة يضعونها على ملابسهم ، وقد كانت بداية تلك الشارات في العصر الحديث بواسطة النازى فى بولندا عام ١٩٣٩ . وبعد ذلك في سائر البلاد التى احتلها النازى خلال الحرب العالمية الثانية . وكانت الشارة عبارة عن قطعة من النسيج الأصفر توضع على الملابس وعليها نجمة داود السداسية وفى وسطها كلمة يهودى بلغة البلد أو حرف (J) أو حرب من كلمة (Jude) أي يهودى وفى بعض الأحيان كان يستعاض عنها بشريط يرتدى على الذراع.

٥٩ – حفنى . قدرى : م . س . ذ ، ص ١١٦ – ١١٧ .

٦٠ – فرج . فرج أحمد : م . س . ذ ، ص ٢١٣ .

٦١ – هرتزبرج . أفراهام : م . س . ذ ، ص ٢٣٩ .

٦٢ – ربيع . حامد : مقدمة فى العلوم السلوكية ، ص ١٨٢ – ١٨٣ .

الفصل الثانى

الشخصية اليهودية فى إطار الإنعزالية الصهيونية

فشل حركة التنوير اليهودية وظهور الانعزالية الصهيونية :

في أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر كانت أوروبا قد سئمت الحكم الاستبدادى الذى كان يسودها في ذلك الحين على يد الملوك والنبلاء والقساوسة الذين حطموا روح الشعوب . وحينئذ بدأ العلماء والفلاسفة في بث آراء جديدة عن دور الدولة وعن حق الإنسان فى عرض رأيه فى مختلف شئون الحكم (١) . وقد سميت هذه الحركة «حركة التنوير الأوروبية» Enlightenment .

وكانت الصفة الأساسية لها هى السعي من أجل تحرير العقل الإنسانى من القيود السابقة الخاصة بالإيمان ، ومن عبء الإرث التقليدى الموجود ، وجعل الحياة علمانية وحرة (٢) .

وقد اعتبرت حركة التنوير الأوروبية ، أن العقل هو مضمون وغاية الإنسان ، وأنه الأداة الرئيسة لبلوغ الحقيقة ، ومن أجل خلق مجتمع اصلاحى . وقد حارب دعاة فكرة التنوير الاستبداد الخاص بمبادىء الكنيسة ، وكل الآراء التى أثرت فى ذلك العهد على الفكر الإنسانى ، وحياة الفرد

والجماعة والدولة ، ونفثوا فى قلوب قرائهم حب الحرية . (٣) وهكذا بدأت الروح العقلانية تظهر فى أوروبا ، وبرهنت على أنها ذات تأثير فعال مثلها في ذلك مثل الرأسمالية بالنسبة إلى النظام الإقطاعى القديم . ورويدا رويدا أصبح الدين مجرد فكرة شخصية ومسألة ضمير فردى ، تحولت الكنيسة، وما يماثلها عند اليهود ، وهو المعبد ، إلى جميعات حرة ووظيفية تؤدى وظيفة محددة .

وكان هناك متحمسون لهذه الديانة الجديدة العصرية ، ديانة المنطق ، وكانوا يدهشون مما يجنى من جراء التمسك بالاضطهادات القديمة ، وحارات اليهود التى هى أمور بعيدة عن التبصر .

فبالنسبة للاضطهادات الدينية سارع العقلانيون المتحررون من نير الكنيسة وتعاليمها إلى تطبيق المبدأ المذكور في موضوع الدين . لقد اعتبروا الفرق بين الدينين المسيحى واليهودى غير ذى بال فى الحياة المدنية وقالوا : إذا كانت القرارات السياسية يجب أن يتخذها المواطنون باستخدام عقولهم وبتعقلهم للأمور ، فما يهم أن يدين المواطنون بأديان مختلفة (٤) .

أما بالنسبة للانعزالية اليهودية داخل «الجيتو» فإن عدداً

كبيراً من الفلاسفة الفرنسيين ، آمن بأن الشكل المنطقى يحتم عليه أن ينظر إلى اليهود ، بسبب ذلك ، على أنهم أشخاص غامضون وخرافيون ومتخلفون ، وربما أقل استنارة من الفلاحين الكاثوليك . وقد أصر البارون دوباخ فى مقاله «روح اليهودية» على أن الديانة اليهودية يتخللها البخل وروح المصلحة الذاتية ، فى حين أن ديدرو ، وصف اليهود فى مقاله الذى كتبه فى «دائرة المعارف Encyclopedia بأنهم شعب غامض ومتعصب» . بل إن فولتير ذلك الذكى الساخر ، قد أماط اللثام عن عيوب النظام القديم فى مزيد من القسوة والصلافة أكثر من أى كاتب آخر فى القرن الثامن عشر ، وكان يعتبر اليهود ، من آثار السامية البدائية ، حتى إنه اضطر لأن يقول : «إنك لتجد فيهم مجرد شعب جاهل ومتوحش زاول لمدة طويلة أخس أنواع البخل ، وأبغض أنواع الخرافات ، ويحمل كراهية لا تعادلها كراهية لكافة الشعوب التى تسامحت معه وكانت سبباً فى ثرائه (٥) .

كان هذا هو موقف ونظرة معظم زعماء الفكر التنويرى الأوروبى نحو اليهود ، نظراً لما كان يلف حياتهم من غموض وبدائية ، لأن الدين اليهودى داخل نطاق الجيتو كان هو المحور الرئيسى الذى تدور من حوله كل شئون الحياة اليهودية .

وهكذا لم يكن من الممكن أن يدخل المجتمع اليهودى فى أوروبا الغربية فى نطاق حركة التنوير أو النهضة، لأنه لم يكن مهيأ لذلك ثقافياً وعاطفياً ، وكانت الغالبية العظمى من اليهود التى فرت إلى أوروبا لازالت تعيش فى عالم تظلله المعابد وروح التلمود ، ولم يكن لديهم أى علم تقريباً بالتيارات الإنسانية التى تجرى فى الحياة خارج أسوار «الجيتو» .

«ولكن رويداً رويداً بدأت الآراء الجديدة عن حرية الإنسان تدخل إلى حارات اليهود الضيقة ، وحينئذ بدأ اليهود يشعرون بجو «بيت همدارش» الضيق الخانق (مركز للعبادة والدراسة فى آن واحد) ، وبعالم «الربانيم» (الحاخامات التلموديين) القاسي المتزمت ، ولم يعد يرى كثير من اليهود أى معنى لبعدهم الزائد عن الشعوب التى بشرت بحب الإنسان وبالحرية ، وتفجرت فى كل ناحية هتافات «لنخرج من الجيتو» ، و«لنتقرب من الشعوب» و«لنتعلم لغاتهم» ، و«لنتثقف ونتعلم الحكمة والمعرفة» (٦) .

وهكذا بدأت حركة تثقيف عصرية بين اليهود ، كانت بدايتها فى ألمانيا ، عبر عنها بما سمي «حركة التنوير اليهودية» أو «الهسكالاه» (٧) وهو الاصطلاح الذى استخدمه يهودا جيليتس لأول مرة عام ١٨٣٢ للدلالة على

عصر النهضة الثقافية اليهودية الذى استمر من عام ١٧٥٠ إلى ١٨٨٠ (٨) .

وقد رسم موسى مندلسون (١٧٢٩ - ١٧٨٦) الرائد الروحى لحركة الهسكالاه البرلينية وجهة نظر جديدة فى الفكر اليهودى عندما أسدى النصح لليهود لكى ينبذوا «عقلية الجيتو» ويندمجوا فى الشعوب التى يعيشون بينها وأصبح مندلسون فيلسوفاً شهيراً ، وأشار إلى أن الأشخاص المختلفين قد يكونون فى حاجة إلى ديانات متنوعة لمواءمة شخصياتهم المتباينة ، وأن اليهود المتدينين يمكنهم كذلك أن يكونوا مواطنين مخلصين للوطن الذى يعيشون فيه .

وبالرغم من أن «الهسكالاه» ، كما أدركها رائدها الروحى موسى مندلسون ، كانت حركة من أجل الإحياء الثقافى اليهودى ، فإنه سرعان مازاد فيها الجانب الاجتماعى السياسى، وتغلب فيها السعى من أجل العتق الذاتى على السعى من أجل الإحياء الثقافى :

«لقد سعى اليهود للحصول على حقوقهم المدنية الكاملة عن طريق الإندماج فى المجتمعات التى يعيشون بين ظهرانيها ، ولأن يكون ولاءهم الأول والأخير للبلاد التى ينتمون إليها ، وليس إلى «قوميتهم الدينية» التى لا تستند إلى

سند عقلي وموضوعي . وكان دعاة التنوير اليهودية (المسكيليم) يرون أن هذا ممكنا إذا ما تمكن اليهود من اكتساب مقومات الحضارة الغربية العلمانية ، وإذا ما قاموا بفصل الدين اليهودى عما يسمى «بالقومية اليهودية» حتى يتلاء موا مع الدولة العلمانية القومية فى أوروبا . وقد نادى دعاة الاستنارة اليهودية بأن تكون الدراسات فى مدارس التلمود مقصورة على الحاخامات وحدهم ، وطالبوا بأن يرسل اليهود أولادهم لمدارس الأغيار ، حتى يتقنوا كل الفنون العلمانية مثل الهندسة والزراعة ، وشجعوا ممارسة المهن اليدوية كما دافعوا عن تعليم المرأة ، وشجعوا الاندماج اللغوى ، ونادوا بالقضاء على الييديشية ، ودعوا إلى تعلم اللغة الأم ، ودعوا إلى إحياء اللغة العبرية باعتبارها لغة التراث اليهودى الأصلى . وقد كان دعاة الاستنارة يؤمنون بالعقل ، وبضرورة تقبل الواقع التاريخى المتعين ، ولذا وجهوا سهام نقدهم إلى التراث القومى الدينى اليهودى المغرق فى الغيبية واللاتاريخية ، فهاجموا فكرة «الماشيح» (المسيح المخلص) وأسطورة العودة ، وحولوا فكرة جبل صهيون إلى مفهوم روحى ، أو إلى أسم «للمدينة الفاضلة» التى لا وجود لها إلا كفكرة مثالية فى قلب الإنسان ، وأصبح الخلاص هو انتشار العقل والعدالة بين الشعوب غير اليهودية ، وليس بالضرورة مرهوناً بالعودة إلى أرض الميعاد (٩) .

وقد حققت حركة التنوير اليهودية فى غرب أوروبا ، فى هذا الاتجاه ، تغييراً شاملاً فى كل من الحياة والفكر اليهودى. لقد أسقطت كل الفواصل القومية التى تفرق بين اليهود وشعوب الأرض فى سبيل مزجهم فى أمة واحدة ، وغيرت كل صور الحياة اليهودية فى البيت والشارع والمعبد ، مستأصلة كل اشارة لأهداف سياسية أو صهيونية أو حياة قومية مختلفة .

وقد جرى غضب المتنورين اليهود (المسكيليم) بشكل خاص على المعبد اليهودى ، لأنه كان مشبعاً كله بالجو القومى اليهودى ، وهاجموا التراث اليهودى الشفهى (التلمود) ، وكتاب «شولحان عاروخ»، مبقين فقط على التراث المكتوب ، وقاموا بمحو كلمات «صهيون» و«أورشليم» من كتاب الصلوات ، وحذفوا كل الصلوات التى تدعو للعودة إلى صهيون ، أو «إحياء مملكة اسرائيل» . ووصل كثيرون من دعاة الاستنارة اليهودية ، ليس إلى حد إنكار القومية اليهودية فحسب ، بل إلى حد إنكار الدين اليهودى ذاته . وفى معابد كثيرة منع استخدام اللغة العبرية واعتمدت الصلاة بالألمانية والفرنسية ، كما كانت هناك محاولات لاستبدال يوم السبت بيوم الأحد (١٠) .

وبالرغم من نجاح حركة التنوير اليهودية، إلى حد كبير ،

فى تحقيق أهدافها ، فى غرب أوروبا ، إلا أنها جوبهت بمقاومة شديدة فى شرق أوروبا ، التى كانت أسوار الجيتو فيها أكثر سماكة ، وكانت قوى المعارضة فيها للتغيير (الحسيدية والربانيم) ، (١١) أكثر شراسة . والمجال لا يسمح هنا بمناقشة الظروف والملابسات التى أدت إلى فشل حركة التنوير اليهودية فى شرق أوروبا فى تحقيق أهدافها ، إذ أن هذا الموضوع مرتبط بقضايا متعددة تخرج عن نطاق هذا البحث ، ولكن الذى يهمنا هنا هو أن هذه الحركة قد ساهمت بشكل أو بآخر فى الإعداد الفكرى للصهيونية ، وذلك فى المجالات التالية :

١ ـ هاجم دعاة التنوير فكرة انتظار المسيح الذى سيأتى بالخلاص ، ونادوا بأن على اليهود أن يحصلوا على الخلاص بأنفسهم ، وقد أزالت هـــذه الدعوة الحاجز الوجدانى الذى كان يقف بين اليهود المتدينين والصهيونية ، إذ أنه أصبح من الممكن العودة لفلسطين دون انتظار لمقدم المسيح .

٢ ـ خلقت حركة التنوير طبقة متوسطة يهودية متشربة بالثقافة اليهودية والولاء الكامل لتراثها الدينى الغيبى ، ولكنها مشبعة بالأفكار السياسية والاجتماعية الغربية من قومية إلى اشتراكية ، وهذا الازدواج الفكرى أو التعايش بين نقيضين هو الذى أفرز القيادات والزعامات الصهيونية القادرة على

التحرك فى اطار معتقداتها الغيبية ، ولكنها تجيد فى الوقت ذاته استخدام المصطلحات والوسائل العلمانية (١٢) .

٣ ـ انتقد مفكرو حركة التنوير اليهودية الشخصية اليهودية بسبب طفيليتها وهامشيتها ، وأكدوا على أهمية العمل اليدوى والعمل الزراعى ، وطالبوا بتحويل اليهودى إلى شخصية منتجة ، وهذه قضية ورثها الصهاينة ودعاة معاداة السامية .

٤ ـ بعث دعاة حركة التنوير اليهودية البطولات العبرية القديمة أمثال شمشون وشاؤول ، وذلك حتى تنفض الشخصية اليهودية عن نفسها شيئا من خنوعها ، وتصبح شخصية سوية تمتلىء بالحيوية (١٣) .

٥ ـ أدت آراء مندلسون إلى انقسام اليهود ، فقد أراد قطاع منهم أن يصبح مواطناً عادياً ، بينما خشى القطاع الآخر من الاندماج اليهودى فى الحضارات الأخرى وامتصاصهم بالتالى ، وضياع الصفات اليهودية المميزة . وشكلت الصهيونية الوجه المعبر عن هذا الخوف من الامتصاص .

وقد عبر ناحوم جولدمان الرئيس السابق للمنظمة الصهيونية العالمية عن ذلك الاتجاه فى خطاب ألقاه فى ١٦

مـارس ١٩٦٣ فى إحـدى اجـتـمـاعـات المنظمـة بقـوله : «إن الاندمـاج هـو الخطر الكبـيـر الذى يهـددنا منذ اللحظة التى خرجنا فيها من الجيتو ومن المعتقلات». (١٤) ومعنى هذا من المنظور الصـهـيونى أن خـروج اليـهودى من قوقـعـة الجـيـتـو يعرضـه لعوامل التطور ، التـى إمـا أن تحيله إلى كـائن جديد وإما أن تقضى على ذاتيته اليهودية ، إن لم يتواءم مع البيئة الجديدة ، وهو ما خشى منه الصهانية .

– وبالإضـافة إلى العوامل السـابقة ، فإن حـركة التنوير ، بإحيـائها اللغـة العـبرية كلغة أدبيـة ، وبإذكائها نيران الحب لصـهيـون وفلسطين وتمجيـدها للأسـلاف كانت بمثـابة المدخل الحقيقى لانتشـار المثل الأعلى القومى بين اليهود .

وبفشل حركة التنوير اليهودية ، فشل الحل الإندماجى ، لما سـمى بالمسـألة اليـهـودية فـى العـالم ، وسـاهمت عـدة عـوامل أخــرى مــثـل : ظهــور القـــومــيــات فى أوروبا (١٥) ، ونمو الرأسـمـاليـة فى العـالم ، وازدياد مـوجـة مـعـاداة السـامـيـة ، وحـادثة اغـتيال القيـصـر الكسـندر الثـانى فى مـارس ١٨٨١ ، واتـهام أحد اليـهود بقتلـه ، ونشـوب مـوجـة من الاضـطهاد ضـد اليهود فى روسيا ، فى التمـهيد من أجل طرح الحل الصـهيونى باعتباره الحل الوحيد لهذه المسألة .

وحينما ظهرت الصهيونية على مسرح الأحداث وحدثت فى داخلها الاختلافات والتناقضات المختلفة فى وجهات النظر حول العديد من القضايا على امتداد خريطة الفكر الصهيونى من «العلمانية إلى الدينية» بدرجاتهما المختلفة ، كانت فكرة عودة اليهود إلى أسرة الشعوب ، أو نظرية «لنكن شعباً مثل سائر الشعوب» بمثابة الخيط الثانى الذى يمر عبر كل الفكر الصهيونى ، أو الشعار الذى يجمع المعسكر الصهيونى كله . كذلك فإنه بالرغم من وجود خلافات حول كل القضايا - بما فى ذلك العودة إلى صهيون ، والسيادة اليهودية وغيرها - إلا أن قضية إعادة بناء اليهودى كمخلوق يهودى جديد ، وضرورة اخراجه من ظلام «الجيتو» وجعله شريكاً لأسرة الشعوب فى العالم ، كانت هى القضية التى لا خلاف عليها أيضا بين كل تيارات الفكر الصهيونى . وعلى هذا الأساس فإن الفكر الصهيونى توصل فى تحليلاته للواقع اليهودى إلى أن انحطاط «اليهودى الجيتوى» هو الذى يفسر ولو بصورة جزئية ، كراهية اليهود ، وأصبح «الجيتو» بمثابة مرض لابد من علاجه (لم يعد «المنفى» بركة أنعم بها الرب على شعبه المختار ، أو عقوبة ، بسبب أخطائه») .

ومن هذا المنطلق كانت تفسيرات المفكرين الصهانية لظاهرة معاداة السامية فى العالم الغربى على إعتبار أن

اليهود هم المسئولون عنها ، لدرجة أن هرتسل فى كتابه «دولة اليهود» (١٨٩٦) عالج قضية كراهية اليهود بصورة بعيدة عن الانفعال ومتفهمة لمعاداة السامية التى رأى فيها مرضا يهدد كلا من اليهود والشعوب التى يعيشون بينها .

ويمكن القول بأنه مع نهاية الثمانينات من القرن التاسع عشر ، ومع فشل حركة الهسكالاه كحركة اندماجية يهودية شاملة ، كانت هناك ردود فعل يهودية أربعة على النحو التالى :

١ - ردود الفعل الفردية ، بأن يعتنق الشخص ديناً آخر ، وإذا لم يكف ذلك فإنه يندمج تماما بل يتخذ لنفسه اسما آخر لكى يمحو تماماً أى أثر لأصله اليهودى ، على غرار ما اتبعه اليهود فى مرحلة التأغرق حيث كان عيسى يسمى نفسه عيسون مثلا ، وقد تكرر هذا عندما تحول كل من يطلق عليهم اسم موسى إلى موريس . وتلك حلول فردية ، ولا يمكن إلا أن تكون فردية .

٢ - المشاركة فى الحركات الليبرالية أو الاشتراكية لتغيير المجتمع ، على أساس أن ذلك التغيير سيحقق الخلاص من معاداة السامية . ولذا فقد اختار عدد من اليهود المشاركة مع الآخرين فى تلك الحركات الليبرالية من جانب والاشتراكية من جانب آخر .

٣ – القومية الإقليمية . ومثال ذلك اليهود المتحدثون بلغة اليديش فى أوروبا الشرقية ، الذين كانوا يطالبون مثلا بالاستقلال الثقافى ، أى أن يكون يهود الإمبراطورية الروسية هيئة خاصة لها حق انتخاب جالية وممثلين لها .. الخ وكانت هناك عدة أشكال من القومية الإقليمية منها الشكل الاشتراكى المعروف وهو الحزب الاشتراكى الديمقراطى اليهودى المعروف بإسم «البوند» . وقد انتهى أمر هذه الحركة بالحل السوفيتى .

٤ – القومية الشاملة التى تجمع كل اليهود بهدف خلق قومية يهودية لها أرضها الخاصة ، وهذا ما يسمى الصهيونية . وقد اتخذ هذا الاتجاه أشكالاً مختلفة ابتداء من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين ، بما فى ذلك الأشكال الاشتراكية المقصورة ، مع ذلك ، على الأمة اليهودية المتوقعة ، وهى القومية التى اتجهت بمطالبها نحو فلسطين العربية ، حفاظاً على الشخصية اليهودية التى كانت فى طريقها إلى الاختفاء والتصفية (١٦) .

* ويقول دافيد وينز : «لقد كان هناك بديلان لوضع اليهود : فلقد رأى اليهود فى غرب أوروبا أن الحل يكمن فى التشبه Assimilation كعضو متساو فى الحقوق . وكانت فكرة أن اليهود أمة بغيضة بالنسبة له ، حيث أنه كان يعتبر أن اليهود

لا يشتركون إلا فى الدين فقط بشكل عام . أما اليهودى فى شرق أوروبا فقد تطلع إلى النموذج القومى على اعتبار أنه من الممكن أن يصوغ قدره داخل اطار أمة مستقلة لا تعتمد إلا عليه . وكان الاطار المحدد الذى تبنته الصهيونية لحل المشكلة اليهودية هو حياة الجيتو فى روسيا وشرق أوروبا .

ومن أجل ذلك فقد أيد الصهاينة القومية اليهودية ، ورفضوا فى نفس الوقت جهود اليهودى الغربى من أجل الاندماج داخل المجتمع الأجنبى ، أو أن يكون معتوقاً وفق المفاهيم الخاصة بالشعوب غير اليهودية» (١٧) .

ويتفق الصهاينة مع المدرسة المنافسة لهم ، وهى مدرسة الفكر اليهودى المتحرر التى تنادى باندماج اليهود فى كل دولة فى عناصر تلك الدولة ، فى الرغبة فى علاج اليهود من ضعفهم كطائفة شاذة ، لكن تختلف نظرة كل من المدرستين فى التطبيق .

لقد كان قوام المثل الأعلى للاندماجيين ، هو أن يصبح اليهودى فى هولندا أو انجلترا أو أمريكا مجرد مواطن هولندى أو إنجليزى أو أمريكى ، يهودى الدين . ويستندون فى ذلك إلى أنه ليس ثمة ما يبرر اخفاق المواطن اليهودى فى أى بلد مستنير فى أن يصبح مواطناً راضياً فى هذا البلد ،

لمجرد تصادف توجهه إلى المعبد اليهودى يوم السبت عوضا عن الذهاب للكنيسة يوم الأحد .

* ويرد الصهاينة على ذلك بإجابتين :

الأولى : وتشير إلى أنه بفرض قدرة طريقة الاندماج على أحداث النتيجة التى ينسبها لها المدافعون عنها ، فإنها قابلة للتطبيق فقط فى تلك البلاد المستنيرة . وأمثال هؤلاء اليهود يكونون أقلية ضئيلة جدا من يهود العالم .

الثانية : وتدعى أنه فى ظل أحسن الظروف لن يتأتى حل المشكلة اليهودية بهذه الطريقة لأن كون المرء يهودياً أبعد مدى من مجرد كونه يهودى الدين . فاليهودى الذى يسعى لتحويل نفسه إلى هولندى أو إنجليزى أو أمريكى ، يشوه - فى أعين الصهاينة - شخصيته اليهودية ، وأحرى به أن تنفذ عملية الاندماج على أساس قومى لا فردى . فبدلا من محاولة الاندماج يجب على اليهود أن يتحولوا إلى شعب يماثل الشعب الإنجليزى ، بإنشاء وطن قومى له يغدو فيه سيداً . (١٨) .

وهكذا يمكننا أن نفهم مخاوف الصهاينة من الإندماج اليهودى فى الشعوب الأوروبية . لأن هذا الاندماج كان يعنى فى المقام الأول امتصاص اليهود كأقلية فى نطاق

الأغلبية ، وهو ما سوف يؤدى مع توالى الأجيال إلى فقدان الشخصية اليهودية لخصائصها التى تميزت بها عن طريق حياة العزلة داخل الجيتو . ومن هنا كان لابد من أن تراودهم الأحلام فى إنشاء وطن قومى لليهود (أو بمعنى أصح جيتو كبير) يحولون فيه اليهودية إلى مجتمع يبقى متماسكاً عن طريق القومية .

«سمات النمط اليهودى الصهيونى»

تتضح معالم الشخصية اليهودية فى اطر الانعزالية الصهيونية بشكل واضح من خلال أدبيات الفكر الصهيونى المتنوعة ، وبصفة خاصة لدى أدباء العبرية الحديثة الذين جسدوا الواقع الجديدة لهذه الشخصية ، ومن أبرز هؤلاء الأدباء الشاعران شاؤول تشرنحوفسكى وحييم نحمان بياليك (١٩) اللذان عبرا عن كل مكنونات هذه الشخصية بصدق تجلى فى السمات التالية :

١) التمرد علي اليهودية التقليدية والانجراف نحو العلمانية :

لقد أصبح الفرار من «الجيتو» لدى قطاع كبير من الجيل الشباب اليهودى هو بمثابة «خروج» (على غرار خروج اليهود من مصر) واقعى ، وزاد عدم الاكتراث بالمعرفة اليهودية

وبالمثاليات اليهودية ، وهجرت النماذج اليهودية للمعيشة . وبالرغم من أن الدعاية التقليدية للاندماج فى الشعوب ، والدعوة إلى التنوير اليهودى قد كبحت بالمذابح (البوجرومز التى قامت في روسيا) ، فى مطلع الثمانينات من القرن التاسع عشر ، وبالاضطهاد اللاحق على يد الحكومة القيصرية ، فإن اندماجاً لا شعورياً استمر خلال الحركة القومية اليهودية ، لأن كثيرين من قادة هذه الحركة كانوا من «التشبيهيين» Assimilists فى طابع حياتهم ، وكانوا بعيدين عن اليهودية ؛ ومن هنا فقد بدأ الحماس الدينى فى الفتور وخبا تماما نور التوراة .

وقد كانت النتيجة الطبيعية لذلك، أن الصهيونية وجدت فرصتها للنمو على أثر فقدان الدين اليهودى لطاقته . وقد عبرت انتاجات الأدب الصهيونى عن هذا الاتجاه ، وطرحت قضايا مازالت تجعل من هذه الانتاجات الأدبية انتاجات معاصرة . ومن بين هذه المسائل مسألة : من هو اليهودى المعاصر ؟ أو بصورة أخرى : ما هى علاقة اليهودى المعاصر أو الصهيونى بالتراث الروحى لليهودية التقليدية ؟(٢٠) .

وإذا كانت حركة التنوير اليهودية ، قد وجهت معظم سهامها المسنونة ضد الدين اليهودى باعتباره مصدراً للتخلف والتحجر اللذين سادا الحياة اليهودية عبر العصور ،

واللذين حالا بين اليهودى وسعادته ، برفض الاندماج فى الشعوب التى يعيشون بين ظهرانيها ، فإن الصهيونية قد ثبتت نفس هذا الموقف (بالرغم من أنها استخدمت الدين واستمدت مفاهيمها من أصول دينية) باعتبارها ساعدت كحركة علمانية ، بوعى أو بلا وعى ، على تدمير الموطن الروحى وحجر الأساس للحياة اليهودية فى «الجيتو» وهما «المعبد» و«بيت همدراش» . والأديب اليهودى الذى كان مؤمناً بقيمهما ، ويتغذى على هذه القيم لم يكن ليتقبل تدميرهما بسهولة . لقد كان يتطلع إلى رؤية روابطه مع الماضى اليهودى متداخلة مع ميوله نحو قيم الثقافة العلمانية ، ومن الطبيعى أن يكون من الصعب حل هذه الورطة التى مازالت تشكل عنصراً رئيساً من عناصر الصراع داخل الفكر والحركة الصهيونية حتى الآن (٢١) .

ونغمة الصراع هذه تتضح بشكل أساسى فى جانب كبير من أشعار حييم نحمان بياليك (١٨٧٣ ـ ١٩٣٤)، وسأكتفى فقط بنماذج تدلل عليه . وأبرز النماذج الدالة على ذلك قصيدة «أمام دولاب الكتب» (لِفنى آرون هَسفاريم) التى كتبها عام ١٩١٠ . إنه فى هذه القصيدة يسترجع الأيام الغابرة حينما كانت الكتب الباهتة والصفراء هى كل ما يعرفه ويعايشه ، وكان يظل يمعن النظر فيها ليل نهار لدرجة أن جزءاً من

روحه كان ينغمر فى مضمونها ، ولكنه بعد سنوات من التيه فى العالم الكبير ، عالم المعرفة والثقافة ، يقف مرة أخرى أمام الدولاب حيث الأوراق القديمة الثمينة مرتبة فيه ، ويحاول أن يستعيد صلاته بها ، ولكنه يشعر أن مفتاح عالمه القديم قد ضاع ، وأن عالم الأسرار مع هذه الكتب قد فقدت . ويدخل الشك قلبه فى أنه ربما يكون التمسك بروح الماضى شيئا لا طائل منه ، وأنه إضاعة للوقت فيما لا منفعة من ورائه ، وأن كنوز الماضى لا يمكن أن تثريه ، وأخيراً يعرب عن حيرته وشكه لأنه فقد القدرة على فهم لغة الأسرار الخاصة لهذه الكتب :

تقبلى سلامى ، يا كتباً قديمة الصحف
ولا ترفضى قبلاتى يا صريعة الغبار
فإن نفسى عادت من رحلة فى جزر غربية
كحمامة هائمة متعبة الجناح ، خائفة
عادت ترف من جديد على أعتاب عش الصبا
هل مازلت تعرفيننى ؟ أنا فلان !
كنت فى أحضانكم منذ ولدت
راهباً منعزلاً عن ضجة الحياة .

وعن كل نعم الرب فوق الأرض
وما عرفت فى صباى غيركم
كنتم لى كالحديقة ، فى حر يوم قائظ ،
وكنتم لرأسى كالوسادة فى ليالى الشتاء ،
حتى تعلمت أن أحفظ فى أوراقكم تذكار روحى ،
وأن أخفى فى سطوركم أحلامى المقدسة
فى علِّية ، داخل بيت همدارش خاو على عروشه.
كنت آخر الأخيرين
على شفتى تشنجت وماتت صلاة أبائى
وفى ركن خفى هناك ، بجوار دولابكم
انطفأت تماما أمام عيني الشمعة الأزلية
فى ذلك الوقت ، وبينما مازلت غض الإهاب
ولم تنبت بعد فى ذقنى ريشة غضة
كانوا يعثرون علىَّ فى ليالى الشتاء ، فى الليالى المتجهمة،
منكباً على كتاب قديم ، ممزق الصفحات
مع أحلام نفسى ومخاوفها صامداً

ترتعد أمامى على المائدة ،
ذبالة بهت ضياؤها بعد نفاذ الزيت من السراج
وفى أمعاء دولاب الكتب يجول فأر :
وفى الكانون جذوة أخيرة من نار -
وأنا متسمر فى لحمى من فرط الفزع
وأسنانى تصطك من رهبة الموت .
يا عجائز الكتب إننى أنظر فيك ولا أعرفك
ومن بين حروفك لم تعد تنظر إلى أعماق نفسى
الأعين اليقظة ، تلك الأعين الحزينة لشيوخ غابرين
ولم أعد أسمع هناك همس شفاهها
ينسل من قبور نسيت ولم تعد تزار (٢٢)

وفى هذه القصيدة ، مثل سائر القصائد ، التى تعبر عن حدة هذا الصراع بين التمسك بالتقاليد اليهودية ، وبين الانجراف نحو عالم النور والمعرفة العلمانية ، ونحو قيم الصهيونية ذات الطابع العلمانى ، نجد الشاعر يبقى بمفرده فى «بيت همدارش أو «أمام دولاب الكتب» بمثابة «آخر الأخيرين» ، وهو تعبير ذو مغزى إيمانى خاص ، يعبر عن الإيمان ، والإخلاص والثقة، وهو تعبير يتردد فى أدب الفلسفة العبرية فى العصور الوسطى ، وفى الشعر الدينى لتلك الفترة.

ويرى الناقد أهارون مازى أن قصيدة «أمام دولاب الكتب» هى تعبير حى عن عدم انتماء بياليك لمصادر الدين اليهودى وخاصة المقاطع :

يا عجائز الكتب إنى انظر فيك ولا أعرفك
كخرزات لؤلؤ سوداء انفرط عقدها
سطوركم لى ، وصفحاتكم ترملت ،
وكل حرف يشعر باليتم فى نفسه
هل ضعفت عيناى أم ثقلت أذناى ؟
أم أنكم عفن ، وموتى أبديون
ولم يعد لكم أثر فى أرض الأحياء (٢٣)

وفى قصيدة أخرى كتبها عام ١٩٠٥ ، استوحى موضوعها من عدد من الأساطير التلمودية التى يدور موضوعها حول خراب الهيكل الثانى عام ٧٠م ، وهو موضوع اخفاء النيران المقدسة اثناء تخريب الهيكل ، وتحمل عنوان «سفر النيران» (مجيلات ها إيش) نجد رموز الصراع بين الاستسلام للتقاليد اليهودية والاندفاع إلى أحضان العلمانية ، والانفتاح على العالم الرهيب «وقد وصف الناقد ف. لا حوفر هذه القصيدة بأنها «قصيدة الخراب والثورة التى

اكتست خطوطها كلها بفزع تلك الأيام» وذلك لأنها كتبت على خلفية الثورة الروسية عام ١٩٠٥ . يقول بياليك فى هذه القصيدة :

«.. هنالك فى الجدول أمامى ، رأيت شبح فتاة تستحم ، وتلألأ صفاء بشرتها من خلال العتمة فأسكرنى .. وكدت اندفع إليها كالنمر ، ولكن صورة الشيخ القديس لمعت أمامى، فخنق شهوتى وأنا أزمجر كالليث ، ثم اختفيت خلف صخرة ، ورحت أتلصص من مكانى على الجسد الرائع ، والتهمت بعينى لحم الفتاة العارى الأبيض ، وحملقت نفسى فى اهتزاز نهديها البكرين فتحرقت غيظاً ، وأرسلت قبضتى فى الهواء ، لا أعرف فى وجه من : أفى وجه السماء التى تبلونى ، أم فى وجه الشيطان الذى يتحدانى؟» .

وهنا نجد أن بياليك يرمز لحركة التنوير اليهودية وللانفتاح على عالم الثقافة الأوسع بالفتاة العارية ، ويحاول أن يبين مدى الصراع الذى اجتاحه حينما حاول الاقتراب منها ، وتحديه للشيخ القديس الذى يرمز به لقيم الدين المتحجرة متمثلا إياه فى صورة جده العجوز التقى الورع الذى طالما حال بينه وبين أن ينهل من عالم المعرفة بتعصبه الصارم . (٢٤) .

وأدب حركة التنوير اليهودية والأدب الصهيوني مليئان بالتعبيرات التي تعاملت مع الدين اليهودي بصراماته وقيوده المتزمتة ، باعتباره حائلاً دون سعادة الإنسان اليهودي . وقد شغل هذا الموضوع أدباء مثل يهودا ليف جوردون (١٨٣٠ - ١٨٩٢) صاحب الشعار التنويري المعروف «كن يهوديا في بيتك وإنسانا خارج بيتك» والذي أصبح شعار حركة «الهسكالاه» في شرق أوروبا ، وخاصة في قصائده «نقطة الياء» أو «أمور تافهة» ، وقصص ومقالات موشي ليف ليلنيلوم (١٨٤٣ - ١٩١٠) وقصص جرشوم شوفمان (١٨٨٠ -) وغيرهم من الأدباء .

وقد ترتب كذلك على هذه النظرة الصهيونية الجديدة إعادة فحص للماضي اليهودي ، حيث خضع هذا الماضي لوجهة نظر نقدية للتراث اليهودي . فإذا كان «الجالوت (المنفى) ليس بمثابة حكم لابد من انتظار نهايته مع انتظار قدوم المسيح ابن داود ، وإذا كان رفض «الجالوت» معناه أيضا رفض طرق الحياة اليهودية التقليدية ، فإن مغزى الصهيونية يكون هو إعطاء مضمون جديد للوجود اليهودي . إذن فإن التغيير الراديكالي قد حدث في كل من الإنسان والجماعة اليهودية ، وفي طابع الحياة ، وفي الموقف الجديد من الماضي اليهودي ، والمستقبل الذي عقد العزم على قطع روابطه مع أطره

التقليدية . ومن هنا فلم يكن مسموحاً فقط التخلص من تقاليد «تحوم ها موشاف» (مناطق الإقامة اليهودية فى شرق أوروبا) ونسف أسوار المؤسسة الربانية، بل يمكن أيضا فحص الأسس الرئيسة للوجود والعقيدة اليهودية . وقد عبر الأديب اليهودى الروسى يوسف حييم برينر عن ذلك بقوله :

«إن مسألة حياتنا اليهودية ليست هى مسألة الدين اليهودى .. إن مسألة حياتنا هى مسألة مكان عمل منتج من أجل اليهود» . كذلك فإن أولئك الذين لم يقبلوا تلك الصياغة الحادة ، رأوا أن هناك ضرورة من أجل شق طريق جديد مما أدى إلى نشوء تيار بين صهيونى أوروبا معاد لليهودية ، وصل إلى حد المبالغة فى أشواقه إلى عالم الشعوب والوثنية . وقد كانت هذه الثورة المعادية لليهودية سابقة للصهيونية وهى التى غذت أدب حركة التنوير اليهودية (الهسكالاه) ، والنشاط اليهودى فى الحركات الاشتراكية والثورية فى شرق أوروبا . ولم تكن الصهيونية هى التى انتجت هذه الثورة – ولكنها تغذت منها إلى حد كبير ، ثم غذتها بعد ذلك ومنحتها التصديق القومى . لقد أصبح من الممكن بفضل هذا الاتجاه ، الكتابة باللغة العبرية استنكاراً لليهودية بصورة لم يسبق لها مثيل ، ولقد أصبح متاحاً الكفر بكل ما كان مقدساً لدى اليهود منذ أقدم العصور . لقد أصبح متاحاً الكفر حتى

بالمبادىء الرئيسة ، والوقوف بكبرياء أمام تمثال أبولو على النحو الذى جسده الشاعر الصهيونى شاؤول تشرنحوفسكى عام ١٨٩٩ فى قصيدته «أمام تمثال أبولو» مخاطباً رمز الوثنية التى حاربها اليهود عبر تاريخهم :

لقد أتيت إليك ، أتيت لأسجد أمام تمثالك وصورتك

يا رمز تألق الحياة

أسجد وأغنى أمام الخير والسمو ،

ولكل ما هو مجيد فى هذا العالم

لكل ما هو رائع بين المخلوقات

ولكل ما هو متسام فى ديانات الكون البدائية

إننى أنحنى لكل الأشياء الثمينة - التى سرقتها الآن

الجثث الحية والذرية العفنة.

الذين يثورون على الحياة التى منحها إياها الله القادر على كل شىء ،

رب البريه المليئة بالأسرار

رب الرجال الذين غزوا أرض كنعان كالعاصفة .

ثم قيدوه بأغلال تعاويذهم

لقد شاخ الشعب وشاخ إلهه معه

مشاعر معذبة فى يد عاجزين
بعثوا بعد انغلاق مئات الأجيال .

إن مشكلة تشرنحوفسكى هى أساساً مشكلة «الشعب اليهودى» الذى هرم ، والآلهة اليهودية التى نالت منها الشيخوخة ، إنها آلهة لم تعد تستطيع استيعاب ذاته الحديثة المكبلة ، ولذلك فهو يسجد أمام أبولو . والمقطع الأخير من القصيدة ، التى استشهدنا به ، يتضح منه بجلاء أن الشاعر لا يهرب من يهوديته ، ولا من إلهه ، وإنما يعيد صياغتها وبشكل سطحى ، فاليهودى العائد لابولو ، إن هو إلا اليهودى القديم الذى كان يعيش على صلة بالطبيعة دون وعى تاريخى أو أخلاقى ، بل وما أبولو إلا إله الهيود الذى قاد شعبه إلى أرض كنعان .

إن هذه الصورة ، هى صورة الغزاة اليهود الذين أبادوا سكان كنعان دون رحمة وشفقة ، ولذلك فالشاعر يشبههم بالعاصفة ، إحدى عناصر الطبيعة التى لا وعى ولا ضمير ولا عقل لها ، عاصفة تأتى على الاخضر واليابس ، ولا تميز بين الأخيار والأشرار (لأن التمييز الوحيد هو بين اليهود والأغيار) . إن العودة لأبولو ليست عودة للحياة، وإنما هى عودة إلى العنف واللاعقل والغيبيات ، عودة إلى البرية المليئة بالأسرار التى يعجز العقل عن فهمها ، ولا يملك إلا

الاستسلام أمامها، إنها عودة رجعية تأخذ شكل التمرد الدينى . (٢٥) إنهم يلتمسون فى التاريخ العبرى المكتوب فى التوراة مصدراً للفخر ، وأنهم ينبذون الدين ولكنهم يؤمنون بالميثولوجيا ، ولذا فإنهم يتقمصون الشخصيات المحاربة فى التاريخ العبرى (جدعون – شاؤول – داود ...) وليس الأنبياء اشعيا ـ إرميا) .

وقد وصل هذا الموقف من الدين اليهودى إلى حد المناداة بالزواج المختلط مع عرب فلسطين ، والنظر إليهم باعتبارهم ورثة اليهود ، حسبما قال ليلينبلوم ، وكلاتسكين وغيرهما . وكان مسموحاً كذلك إعادة النظر فى الموقف من يسوع المسيح ، حسبما كتب يوسف حييم برينر :

«بالنسبة لى شخصياً ليست للعهد القديم القيمة نفسها التى يصرخ بها الجميع باعتباره «كتاباً مقدساً» ، وكتاب الكتب ، و«الكتاب الأبدى» .. الخ لقد تحررت من التنويم المغناطيسى لاسفار العهد القديم الأربعة والعشرين ، وأصبحت كتبا كثيرة من الكتب العلمانية التى صدرت فى الأجيال الأخيرة أقرب إلى نفسى ، وأعظم فى نظرى وأعمق . ولكن تلك الأهمية التى اعترف بها ويحتوى عليها العهد القديم هى كونه بقايا ذكريات من الأيام البعيدة ، وبمثابة بلورة لروح شعبنا ولروح الإنسانية التى رسخت فينا طوال تلك الأجيال

والفترات الطويلة ، تلك الأهمية أجدها أيضا واعترف بها بالنسبة لأسفار العهد الجديد . إن العهد الجديد ، هو أيضا كتابنا وهو ذات من ذاتنا وجزء عضوى منا » .

وخلاصة هذا الاتجاه نجده فى قصة «الموعظة» (هَدَراشا) لحييم هزاز ، التى كتبها بعد قيام الاستيطان الصهيونى فى فلسطين وخلال السنوات التى انقشع خلالها دور يهود أوروبا ، حيث يقول فى افتتاحية القصة بصراحة لاذعة :

«إن الصهيونية واليهودية ليستا شيئا واحدا ، بل هما شيئان يختلف كل منهما عن الآخر ، وربما كانتا شيئين يناقض كل منهما الآخر . وهما على أية حال لم تكونا كذلك . وحينما لا يستطيع شخص أن يكون يهودياً فإنه يصبح صهيونياً» (٢٦) .

«وهذا التمرد الوثنى هو جوهر الفكر الصهيونى . فالحركة الصهيونية هى الحركة التى تمكنت الرجعية اليهودية عن طريقها احتواء التيارات الاصلاحية والتحررية التى انتشرت فى صفوف اليهود فى أواخر القرن التاسع عشر ، وقد نجحت الصهيونية فى انجاز عملية الاحتواء هذه بأن قدمت نفسها على أنها حركة متمردة على التراث اليهودى القديم ، تحاول طرح تصور جديد قومى ، علمانى للشخصية اليهودية،

ولكنها رغم العلمانية الظاهرة استندت فى برنامجها السياسى والثقافى إلى الأساطير القديمة خاصة أسطورة العودة والشعب المختار» (٢٧) .

٢) رفض الاندماج في الشعوب ، أو نبذ العبودية اليهودية :

تتصف الشخصية الصهيونية بإحساس حاد بالعزلة عن البشر ، وهو وضع اختاره الصهاينة بأنفسهم . فبعد أن يئسوا من أوروبا ، أدانوا الإنسانية كلها ، بعد أن فشلت حركة التنوير اليهودية فى تحقيق الحل الاندماجى ، وقرروا أن العالم معاد لهم دون استثناء ، وعززوا هذا الإحساس حتى أصبح بالنسبة لهم حقيقة نفسية . وصلت بهم ليس فقط إلى تكريس هذه العزلة عن منشئهم فى أوروبا ، بل إلى حد الاغتراب عن الذات . وهكذا فإن الصهيونية التى طرحت نفسها كحل بديل لما يسمى «المسألة اليهودية» كانت فى مضمونها دعوة عنصرية إلى «القومية اليهودية» التى كانت بمثابة تعبير عن الرغبة فى الانفصال عن جوهر الارتباط بالوطن الذي يعيش اليهود بين ظهرانيه . ومن هنا فإن موجة الاندماج التى كانت مازالت مستمرة بين اليهود فى أوروبا الشرقية والغربية على حد السواء ، قد هالت المفكرين الصهاينة ، وكذلك أدباء الصهيونية ، فانطلقوا يحذرون اليهود

من مغبة الاندماج بالأغيار . لقد رأى هؤلاء الصهاينة أن الاندماج فى الشعوب هو السبب وراء ما أطلقوا عليه «التخريب النفسى والمادى» الذى أصاب اليهود فى روسيا وغيرها من البلدان ، وركزوا على تصوير سلبيات النفسية اليهودية ، مركزين على مشاعر العبودية التى رأوا أنها تشمل كل مجالات الحياة اليهودية ، وكل طبقات اليهود . وقد رأى أديب صهيونى هو «حييم هزاز (١٨٩٨ - ١٩٧٣) ، أن عيوب هذه العبودية ملتصقة باليهود مثل جرب الحيوانات ، وتشوه صورة اليهودى واليهودية . وبالرغم من أنه قدم فى قصصه شخصيات ثورية ، إلا أن هذه الشخصيات كانت فى نظره رمزا للعبودية اليهودية التى تخدم الغير ، ولا تسعى إلى حل المشكلة الذاتية لليهود ، ونادى بأن تنتج الجماعة اليهودية فى روسيا ، تلك التى كانت مصنعا للثقافة العبرية ومركزا «للهسكالاه» ، وللحركة الصهيونية ، نماذج تنبع ثوريتها من الواقع اليهودى .

وقد كان الشاعر الصهيونى حييم نحمان بياليك ، من أبرز الأصوات التى ثبتت هذه الفكرة ، فكرة رفض الاندماج فى الشعوب ، وتصويرها على أنها شكل من أشكال العبودية يشيدون من خلاله الأبنية والصروح لهذه الشعوب ، بينما شعبهم هو الأحوج إلى مثل هذه الجهود . وبياليك فى هذه

القصائد يتمثل انبياء بنى اسرائيل فى العصور الأولى للتاريخ اليهودى ، فيزجر ويعنف يتوعد بنى دينه بالعذاب والتيه جزاء وفاقا لما يبدر منهم من تقاعس وضعف فى الإيمان (الصهيونى طبعا) ، ويدعوهم إلى عدم الاندماج فى الشعوب، لأن جزاءهم فى النهاية لن يكون إلا جزاء العبيد .

ومن أشهر قصائده فى هذا المجال قصيدة «حقا، إن هذا قصاص الرب أيضا» التى كتبها عام ١٩٠٥ . فى هذه القصيدة يقول بياليك مخاطبا اليهود، إنهم أعطو أحسن ما لديهم للحضارات الأجنبية ، ورهنوا أرواحهم كالوديعة لدى الآخرين ، وشيدوا أبنية روحية وعقلية لكل شعب على الأرض ، ثم أغرقوا فيها أرواح أطفالهم :

حقا إن هذا قصاص الرب وسخطه العظيم
الذى تنكره قلوبهم
زرعتم دمعتكم المقدسة فى كل المياه
ونظمتم من خيوط النور شعرا خادعا
وأفضتم روحكم على كل رخام أجنبى
وفى أحضان الأصنام وأغرقتم أنفسكم
وبينما لحمكم ينزف دما بين أسنان النهمين إليكم
تطعمونهم أيضا روحكم
وبنيتم لمن نفوكم بيثوم ورعمسيس

وجعلتم من أبنائكم لبنات بناء
وحينما تصرخ إليكم نفوسهم من بين الأشجار والأحجار
على مداخل آذانكم تموت صرختهم ،

....

وجلستم متكدرين : فى الخارج مطر دائم
وفى القلب تراب ورماد
وعيونكم مأوى لذباب الموت الذى على نوافذكم
ومأوى للعناكب التى فى الزوايا الخربة (٢٨) .

وقد كتب بياليك عددا من القصائد التى تتناول الدعوة لرفض الاندماج فى الشعوب ، تنطوى على السخط والغضب على اليهود المستذلين المستضعفين الخانعين المستسلمين للذبح والمعاناة على يد الشعوب . ومن أشهر هذه القصائد قصيدة «فى مدينة الذبح» (بعير ههريجا) التى كتبها عام ١٩٠٣ بعد مذبحة كيشنيف ، والتى حفزت همم اليهود بعد ذلك ودفعتهم إلى إقامة فرق الدفاع الذاتى ، والتى كانت بمثابة نواة التشكيلات الصهيونية المسلحة .

وفى هذه القصيدة يتنبأ بالانتقام اليهودى من كل شعوب العالم وهو انتقام سيجعل الدم يغور إلى الأعماق :

ملعون من يقول : انتقم
إن انتقاما كهذا – هو ثأر لطفل صغير

لم يخلقه الشيطان بعد
يجعل الدم يغور إلى الأعماق
ويشق طريقه إلى القيعان المظلمة
ويأكل فى الظلام وينبش هناك
كل موجودات الأرض المتحللة (٢٩) .

٣) الرغبة فى الانتقام من الأغيار وتبنى العنف :

من السمات التى ميزت الشخصية الصهيونية، هى أن هذه الشخصية جردت اليهودى من إنسانيته بعزله عن سائر البشر ، ثم جردت سائر البشر من إنسانيتهم بجعلهم متفرجين موضوعيين على المأساة اليهودية . بل جعل اليهودى شريكا ـ من الناحية الأخلاقية ـ شريكا فى العنف الذى يحيق به وحول الاستشهاد اليهودى إلى مجرد مذبحة وقعت لشعب لا يرفض العنف الذى هو ضحيته . وقد كانت شعارات مثل «الانتقام و«الثأر» و«الإمساك بالسيف» بدلا من الكتاب ، هى الشعارات التى ترددت كثيراً فى التعبيرات الشعرية التى كتبها شعراء الصهيونية .

ففى قصيدة شاؤول تشرنحوفسكى «فليكن هذا هو ثأرنا»، يقول الشاعر ، أن اضطهاد الأغيار لليهود سيملؤهم بالدنس، وسيفقدهم طهارتهم ، إذ أن دم اليهودى سيتخلل كيانهم حتى

يسمم أساس وجودهم ذاته» . والقصيدة بمثابة تجسيد لحقد مسموم لا يمكن لأى إنسان سوى اليهود فهمه أو معرفة كنهه، وهو تعبير عن إحساس بالألم يستلب من صاحبه إنسانيته ، ويعمق من كرهه وحقده للأغيار :

سيأتى اليوم (الذى تفقد فيه أيها المضطهد طهارتك)
وتغرس حد سكينك فى عنق أخيك
ابن أمك ، كأنك تذبح خنزيرك المفضل
فى عيد القيامة ، فى الفناء أو فى ميدان القرية ،
وسيكون رنين أنات موته مثل الموسيقا
أو المهرجان فى أذنيك المتلهفتين
يا يوم الثأر ؟
يوم ينتف ابنك شعر ذقنك التى علاها الشيب
ويرفع فى وجهك قبضته الصلبة مهدداً ،
ويناديك من حنجرته الحيوانية :
«أيها الشرير !» وأنت تذرف الدمع
أمام كل الناس
يا يوم الثأر والعقاب
حين تعرض ابنتك الحبيبة نفسها ، عاهرة ضعيفة
ملكتها الرغبة العارمة ، وسكرت من الخمر ،
وأخذت تهمهم لك بكل قصص الزنا ،

تلك التى ارتكبتها.
هذا هو ثأرنا
فليعش ثأرنا
نرثه جيلاً بعد جيل !

وهناك قصيدة أخرى من أشهر قصائده التى تقطر سماً زعافاً ، وحقداً ضد من ليسوا يهوداً ، وتدعو إلى الانتقام منهم، وهى قصيدة «باروخ المغنتسى» ، التى تصف مأساة يهودى أجبر على اعتناق المسيحية ، وحينما أجبرت ابنته وزوجته على اعتناق المسيحية قام بقتلهما ثم قام بحرق الدير الذى كان محبوساً فيه ، وأحرق المدينة بأسرها ، وفى جزء من أجزاء القصيدة تصل مشاعره الكريهة إلى ذروتها القبلية ، والتى يتمثل فيها انبياء بنى اسرائيل فى مناجاتهم للرب لكى ينتقم لهم من هؤلاء «الأغيار» :

أتوسل إليك يا الهى – إنى أضرع إليك أن ترسل سيفك لتثأر منهم،
ولتتركهم فى بؤس شديد دون ذرية ،
فلتصب حنقك على الأمم التى لا تعرفك
ولتصب غضبك على الممالك التى لا تنادى باسمك
لأنهم قد دمروا مساكن شعبك وأكلوا نصيب يعقوب.

وبعد ذلك يتمثل ، دور مصاص الدماء ، الذى سيقتص من

هؤلاء الأغيار :

في كل ليلة ، نصعد من قبورنا حيث دفنا
لنشرب دماء هؤلاء الجزارين حتى تسكر أرواحنا ،
نرضع من أنهار الدم ، رشفة رشفة ، قطرة قطرة
نسكر من الحزن ونسكر من الآهات حتى تراهم عيناى يرتجفون.

لا يبل لى صدى ، وأشعر بالشماتة من نظراتهم وقد تجمعت أثناء الليل من العاصفة .
ومن شعرهم الذى يقف من الرعب .

إن عقدة شمشون تسيطر على العقل الصهيونى ، فشمشون لم تعلمه هزيمته حب الإنسان ، ولم تطهره آلامه من الدنس ، بل كان همه أن يحل الخراب على أعدائه ، حتى ولو أدى هذا إلى فناءه شخصياً ، وقد استمد العون من ربه فى عبارته الشهيرة «علىّ وعلى أعدائى يا رب!» .

وفى قصيدته «بقوة روحى» يصور الشخصية الصهيونية المنتقمة التى أمسكت بالسيف لتنتصر على الأعداء وتصرعهم وتقطعهم إرباً وتجعله يشرب فخوراً من دمائهم :

يا سيفى أين سيفى ، سيفى المنتقم ؟
أعطنى سيفى لأنتصر على اعدائى !
أين اعدائى ؟ فسوف أصرعهم

وأحطمهم وأقطعهم إرباً ،
وسوف أوقف من الناس الذكرى ،
سوف أقطع كالحاصد وأجتز جذورهم
سوف أشهر يدى اليمنى القوية ، وأوبخ أعدائى
وأجعل سيفى يشرب فخوراً من دمهم
وستستحم خطواتى فى دماء الصرعى
وتدوس قدماى على شعر رؤوسهم
سأقطع من يمين وأحصد من شمال ،
فلقد اشتعل غضبى ، وصار جحيماً،
لقد ضايقنى كثيرون ، ولكن لن يبقى أحد بعد المذبحة
نعم إنى سوف أفنيهم حقا
يا سيفى ، أين سيفى ، سيفى المنذر ؟
أعطنى سيفى ، فلن أغمده مرة أخرى
حتى أذبح كل اعدائى ،
لست أطيق الاحتمال ، لقد أشرقت روحى !
وغضبى مشتعل ، وقلبى - تل يتحرك ،
ورعى فى عروقى - تيار من شرار جارف (٣٠)

وهذه الكلمات يصعب تسميتها قصيدة ، فهى كم من الألفاظ المتراكمة ، التى تعبر عن غضبة همجية ترفض أن تدخل فى إطار مفهوم ، ولكنها تميز بلا شك تلك الروح

الانتقامية القبلية التى حلت فى الشخصية الصهيونية ، بعد استجلاب كل ذلك التراث الهائل من تراكمات الحقد الدفين والرغبة فى الانتقام من الشعوب غير اليهودية ، كرد فعل للتاريخ الطويل من الإذلال والعبودية .

أما الشاعر حييم نحمان بياليك فقد عبر عن الانتقام من الشعوب غير اليهودية فى العديد من قصائده ، وبصفة خاصة فى مجموعة القصائد التى كتبها فى أعقاب موجات الاضطهاد التى حلت بيهود روسيا عام ١٩٠٣ ، وعام ١٩٠٥ وأشهرها قصيدة «.. فى مدينة القتل» ، التى أشرت إليها سابقاً . فهذه القصيدة عبارة عن سلسلة من الزيارات للمقابر التى دفن فيها ضحايا الاضطهاد ، وللمعبد اليهودى ، وتصل فيها غضبة الشاعر إلى حد الاعتراض على رب اسرائيل حتى تصل إلى درجة الكفر ، ويصف اليهود بالجبن والتخاذل، وأنه لا نجاة لهم إلا على أرض فلسطين ، والانتقام سواء من الشعوب ، أو حتى من الرب ذاته الذى يريد ويرغب فى رؤيتهم ساخطين ضده :

لِمَ يتوسلون إلى الآن ؟
فليرفعوا قبضتهم ضدى وليطلبوا رد إهانتهم
رد إهانة كل الأجيال من البداية إلى النهاية
وليفجروا السماء وكرسى ملكوتى بقبضتهم.

ويختتم قصيدته بصرخة التحريض على الانتقام ، وعدم الاعتماد على الآخرين :

والآن لم أنت هنا يا ابن الإنسان
قم فاهرب إلى الصحراء
واحمل معك إلى هناك كأس الاحزان
وفرق هناك نفسك إلى عشرات القطع
وقدم قلبك فداء للحنق بلا حول ولا قوة
واذرف دمعتك الكبيرة هناك على قمم الصخور
واطلق صرختك المريرة التى ستضيع فى العاصفة

وتصل صرخة الحقد والرغبة المدوية فى الانتقام إلى ذروتها عند بياليك فى قصيدته «سفر النيران» ، على لسان ذلك اليهودى الذى يحمل رسالة الحقد والكراهية ، والذى تترد على لسانه أغنية الانتقام ، ذلك السم العنصرى الذى يفرضه الصهاينة على كل الشعوب ، بمثابة انتقام لإحساسهم بالذل والاضطهاد :

من مهاوى الهلاك ارفعوا إلى نشيد الخراب
أسود كفحم قلوبهم المحروقة
احملوه إلى الأمم وانتشروا بين
من غضب الله عليهم
وصبوا جمراته فوق رؤوسهم

وازرعوا به الخراب والدمار فى حقولهم
وليفعل كل منكم ذلك فى جهات الأرض الأربع
فإذا مرت ظلالكم فوق زنابق جناتهم
اسودت الزنابق وماتت
وإذا وقعت أعينكم على رخامهم وتماثيل متاحفهم
تكسر الرخام وتحطمت المتاحف وتحطم الخوف
ولتأخذوا معكم ضحكة مرة كالعلقم
ضحكة قاسية
تنشرون بها الموت (٣١) .

٤) رفض الشخصية اليهودية الجيتوية :

لقد كان سعى الصهيونية نحو خلق شخصية جديدة تمثل النمط اليهودى الصهيونى ، سعياً يقوم بشكل أساسى ، على الرغبة فى التخلص من كل أمراض وعيوب الشخصية اليهودية الجيتوية ، باضفاء صفات جديدة على هذا النمط الجديد .

ويقول الشاعر الصهيونى شاؤول تشرنحوفسكى : «إن العالم يتكون من المنتصرين والمهزمين .. والمنهزمون أكثر عدداً من المنتصرين .. وأنا حامل لواء أنشودة النصر ، وأريد أن أسلك طريقى فى العالم كواحد من المنتصرين ، وحظى كيهودى أن أكون شاعر الهزيمة ، ولكننى كيهودى سأظل

أحمل أنشودة الغزو» . إنه يرفض تاريخ الاستشهاد والخنوع والهزيمة ، بمعنى أنه يرفض التاريخ اليهودى كله ، والشخصية اليهودية التقليدية برمتها ، وينادى بيهودية جديدة . ولكن بالرغم من أن الصهيونية بذلت جهوداً مكثفة في هذا الاتجاه ، إلا أن الصفات المتأصلة فى نفسية الشخصية اليهودية ظلت ملازمة للنمط اليهودى الصهيونى ، مع اكتساب الصفات الجديدة التى بدأت تشق طريقها من جيل إلى جيل ، إلى أن أصبح هذا النمط اليهودى الصهيونى «الذى نما فى ظل واقع الجيتو اليهودى ، فى مرحلة التمهيد العملى لتحقيق الحلم الصهيونى» شخصية ذات أبعاد مختلفة ومتباينة أحيانا مع الشخصية اليهودية الجيتوية ، فى ظل ظروف الاستيطان الصهيونى فى فلسطين ، وهى الظروف التى مهدت لنشأة الشخصية اليهودية الإسرائيلية بعد إعلان قيام دولة اسرائيل عام ١٩٤٨ فصاعداً .

وقد تمت عملية رفض الشخصية اليهودية الجيتوية عن طريق الهروب من الواقع الذى ألم بها ، فكان الفرار من الجيتو ، والفرار أيضا من الاندماج فى غير اليهود ، والدعوة إلى إقامة نظام جديد ، فى مكان ما ، متناقضين مع نظام الجيتو ، وحتى كذلك ، مع ما كان سائداً آنذاك فى وسط أوروبا .

وكانت المرحلة الانتقالية بين محاولة تخليص الشخصية اليهودية الجيتوية من أمراضها وعيوبها ، وبين محاولة خلق النمط اليهودي الصهيونى ، هى تلك المرحلة التى حظيت فى الفكر الصهيونى عامة ، وفى الأدب الصهيونى بصفة خاصة ، بمعالجة تجلت فى المقارنة بين هذا الجيل ، وجيل الصحراء ، جيل التيه فى سيناء ، بعد خروج بنى إسرائيل من مصر . لقد خلق الشعب اليهودى فى التاريخ القديم ، فى مصر ، ولم يخلق فى أرض كنعان . ومن هنا فإن العلاقة المادية والأولية بين اليهود وفلسطين ليست علاقة طبيعية . لقد تم إعداد اليهود كشعب فى مصر ، ومن هنا ، فإن الشتات كبوتقة لصهر اليهود ، تسللت إلى أعماق الفكر اليهودى منذ الأزل . وأكثر من هذا ، فإن التوراة قد أعطيت لموسى فى صحراء سيناء ، وليس فى فلسطين ، تلك التوراة التى حددت الصفات المميزة لهوية اليهود وحددت رسالتهم . إذن فإن العلاقة الخاصة ، التى قطعت بين بنى إسرائيل ، وبين الرب كانت بدايتها الصحراء ، فى منطقة خاوية ، فى منطقة وسط ، بين الشتات وبين فلسطين . وهكذا فإن وجود الصحزاء فى الوعى اليهودى يعتبر مهما للغاية . إن كل الأعياد القومية التى يحتفل بها اليهود (عيد المظال ، وعيد الفصح ، وعيد الأسابيع) كلها أعياد مرتبطة بوجود اليهود فى الصحراء .

وبناء على ذلك فإن اليهود يخافون من الدخول إلى فلسطين . وكلمة «الخوف» هنا تعتبر مفتاحاً آخر من أجل فهم علاقة اليهود بفلسطين . إن اليهود يخافون من ألا يستطيعوا تنفيذ الشروط الصعبة التى حددها الرب «يهوه» من أجل وجودهم فى فلسطين . وهنا تكون قضية الجواسيس مثيرة للاهتمام : إن الشعب الذى يحارب شعوباً أخرى بنجاح منذ خروجه من مصر ، يمتلىء خوفاً من سكان أرض كنعان ، لدرجة الرغبة فى العودة إلى مصر . إذن فإن جيلاً كاملاً يجب أن يموت فى الصحراء ، ويجب أن يولد جيل جديد من أجل أن يكون مجهزاً لدخول فلسطين فى اطار سمات جديدة ، استعداد كامل للوفاء بالإلتزامات (٣٢) .

ويقول د . قدرى حفنى فى معرض تناوله للرفض الصهيونى للشخصية اليهودية الجيتوية وظهور النمط الصهيونى الجديد : «قد تجبر تلك الأقلية على الإقامة قسراً فى أحياء الجيتو ولكنها لا تجعل من ذلك محلاً مختاراً ، وما أن تواتيها فرصة الانطلاق منه حتى تنطلق دون تردد . بل إنه من المفهوم تماما من الناحية السيكولوجية أن تقدم تلك الأقلية، ما أن تجد سبيلاً إلى ذلك ، على التمرد والثورة على كل ما يمت بصلة لتلك الحياة .. نظامها الأسرى .. نظامها الدينى ... نظامها التعليمى .. نظامها التشريعى . أى بعبارة

أخرى ، لو شئنا استخدام التعبير الاصطلاحى فإن تلك الأقلية لابد من أن تتخذ صورة الجماعة الخارجة على التقاليد، والعادات والقيم والأفكار ، والأنماط السلوكية الشائعة لدى الجماعة الأصلية التى تمثل الأغلبية . وما أن تواتى الفرصة لا يربطها بالجماعة القديمة الأصلية سوى العداء والتناقض (٣٣) .

ومن هنا ، فإن الفكر الصهيونى ، كان حريصا على التخلص من جيل العبودية ، جيل يهودية الجيتو ، ليس بالمعنى المادى الجسدى ، ولكن بمعنى الخصائص النفسية التى لصقت بهم . وقد عبر الشاعر الصهيونى حييم نحمان بياليك عن هذه الفكرة فى إحدى قصائده ، وهى قصيدة «موتى الصحراء الأخيرون» «(ميتى هامدبر هاأحرونيم) .

وموضوع هذه القصيدة هو تلك القصة الواردة فى التوارة عن جيل الصحراء ، جيل المشتكين والمتذمرين ، الذين اختبروا الرب عشرات المرات ، وما أن سمعوا من الجواسيس عن سكان أرض كنعان ، أنهم أقوياء وضخام الأجسام ، وأن مدنهم قوية ، حتى رفعوا أصواتهم بالبكاء والعويل (٣٤) . ولذلك فقد حكم الرب عليهم بأن تسقط جثثهم فى القفر .. «فى هذا القفر يفنون وفيه يموتون» (٣٥) . وقد تناول بياليك هذه الأسطورة فصور يشوع بن نون القائد العسكرى لموسى

عليه السلام ، وقد وقف على قمة تل يهدر بصوته فى مواجهة جيشه الذى يستعد به لغزو أرض كنعان بعد أن تخلص من جيل العبودية ، الذى ظل يحلم بما كان ينعم به فى أرض مصر من خيرات ، وهى الأحلام التى يدينها بياليك ويرى فيها نوعا من «العبودية» .

قوموا أيها التائهون فى الصحراء ، اخرجوا من البرية
فمازال الطريق طويلا ، ومازالت الحرب طويلة .
عليكم أن تتحركوا كثيرا ، وأن تتيهوا فى الصحراء
فمازال الطريق أمامكم ممتدا وعريضا .
سنتيه أربعين عاما فقط ، بين الجبال –
وفى الرمال دفناً ستمائة ألف من الجيف النتان .
فلنتجاوز جيف المتخلفين .
الذين ماتوا عبيدا – ولنتخط الشهداء !
فليتعفنوا بخزيهم متمددين على ربطاتهم .
التى حملوها على أكتافهم من مصر .
وليحلموا له جلمهم ،
الحلم الملىء بالبصل والثوم ،
والقوارير الكثيرة والهائلة المليئة باللحم .
قوموا إذن أيها التائهون ! اتركوا البرية .

وبقدر ما يعلو صوتكم ، سيروا بقوة صامتين !

وحتى لا تغضب خطواتكم الصحراء والنائمين فيها .

فليسمع كل منكم في قلبه صدى دقات قلبه .

وفى ختام القصيدة يعلن بياليك عن اندثار جيل ، هو جيل العبودية اليهودى الجيتوى ، وعن قيام جيل آخر متخلص من هذه العبودية يردد نشيد الشجاعة ، ويحمل فى يديه السيوف والرماح ، رمز القوة والعنف ، أدوات الصهيونية فى تحقيق أطماعها :

نحن الأبطال .

جيل العبودية الأخير وأول جيل للخلاص .

بيدنا وحدها ، بيدنا القوية .

أزلنا نير العبودية عن جلال كاهلنا .

من هو إلهنا ؟

مع أن إله الانتقام قد أغلق علينا صحراءه .

فقد ترامى إلينا نشيد الشجاعة والتمرد .

وقمنا إلى السيوف والرماح ، ووحدنا الصفوف .

وتقدمنا بالرغم عن السماء وقيظها .

وها نحن قد تغلبنا على العاصفة (٣٦) .

وهكذا أصبح الصهاينة هم الصفوة المختارين المحاربين ، وقام الاستيطان اليهودى فى فلسطين على أنه «استيطان عبرى» يرفض «الجيتو» اليهودى وقيمه لدرجة أن قيما لا يهودية أصبحت واضحة فيه ، وتمثلت فى أن اصطلاح يهودى أصبح ذا مغزى سلبى ، وامتنعت كل مؤسسات الاستيطان الصهيونى عن استخدامه ، وأحلت محله اصطلاح «عبرى» . وقد ربى هذا الاستيطان أبناءه على الاعتراف بتفوق العبرى الجديد على «اليهودى» الجيتوى» ، الذى صور كثيرا بألوان كالحة ، وتمت مقاطعة لغة «اليديش» التى كانت دائما فى نظر بن جوريون لغة مقززة ورفضها بشدة .

وقد جسد الأديب العبرى يوسف لوايدور (٣٧) فى إحدى قصصه صورة «ابن البلاد أو «العبرى الجديد» فى قصته «يوآش» موضحا أنه يتناقض تناقضا كليا مع «اليهودى الجيتوى» وذلك من خلال سلوكياته وقيمه وهيئته العامة : «لقد جعل بوأش نفسه غريبا فى أفعاله منذ طفولته . فعندما كان فى الثالثة من عمره كان يحب الخروج فى الأيام التى يهطل فيها المطر فى الشتاء الفلسطينى ، وكان فى أثناء المطر الجارف يجرى ويقفز مثل ذلك المهر سريع الركض ، الذى

يشق طريقه فجأة من فنائه ويجرى جرياً وحشياً وجامحاً على طول المستعمرة وعرضها . لقد كان للمطر سحر يجذب الطفل إلى الخارج ، وكان من المستحيل بأى حال من الأحوال حبسه فى البيت أثناء هطول الأمطار .

وحينما كبر قليلا كان يربض لأيام كاملة بجوار المستنقع الذى يقع خارج المستعمرة ، ويصيد الضفادع والديدان منها . وفى بعض الأحيان كان يخرج إلى البيارات والحدائق وفى الوقت الذى يعمل فيه العمال هناك ، ويلقى بنفسه هناك فى صبر لا حدود له متمددا مثل القطة متطلعا ، وكانت الشمس تشتعل فوق رأسه وهو ملقى يتطلع ، وفجأة يقفز من مكانه . وفى خلال لحظة كان يعود صائحا صيحة الانتصار . بينما ترتعش فى يده ضفدعة من ضفادع الطين . وكان يتسلى بهذا المخلوق المفزوع للحظتين أو ثلاث لحظات ثم يتركه لحال سبيله (٣٨) .

وقد وصف لوايدور يوأش كثيرا بأنه فارس شجاع ، يرفض أن يركب حمارا ، وشخصية يوآش - تشبه شخصية يهودا حارس البستان - تعتبر تجسيدا لصورة «العبرى الجديد»، كما تنبأ بها ميخا يوسف برديتشفيسكى ، وكما حاول وصفها كل من يوسف كلاوزنر وشاؤول تشرنحوفسكى :

«يهودا شاب يبلغ حوالى الثلاثين من عمره ، ذو جسم ضخم ، عريض المنكبين شديد البأس . ولدى وقوفه فى مكانه على قدميه منتعلا صندلا عاليا ، منفتح الجانبين ، يدس يده عميقا عميقا فى جيوب بنطلونه ، فيبرز صدره العريض ، وحينئذ يبدو وكأنه صخرة صلبة جذورها فى الأرض ، أو مثل تمثال رخامى قوى . ولم يكن الأشخاص الذين يحيطون به يستطيعون أن يرفعوا عيونهم عن هذه الصورة التى تعبر بأسرها عن القوة والبأس الشديدين . وحينما كان يمتطى صهوة جواد ، كان الجواد يهتز بجسده كله من فرط ثقل الحمل الذى عليه ، وكان من فرط دهشته من ثقل جسد فارسه يدير رأسه إليه ، ويركز عيونه المندهشة عليه ، ويقيسه من أخمص قدمه إلى رأسه ، وحينما كان لا يستطيع حل اللغز ، فإنه كان يخفض ناظريه إلى الأرض ويئن فى صمت» (٣٩) .

وهذه الصورة تتشابه فى ملامحها إلى حد كبير مع تلك الصورة التى رسمها التصور الذاتى «للصبار» ، والتى سنتناولها بعد ذلك فى الجزء الخاص بشخصية «الصبار» الإسرائيلية .

٥) هحالوتسيوت (٤٠) والالتزام الايديولوجى :

اعتادت مراجع الحركة الصهيونية فى العصر الحديث على

أن تحدد عام ١٨٨٢ كبداية لحركة الهجرة اليهودية الحديثة ، والتى أتت بملايين اليهود من روسيا إلى الغرب ، وكان السبب المباشر لهذه الحركة موجة معاداة السامية فى روسيا القيصرية والتى وصلت إلى ذروتها بقوانين مايو ١٨٨١ . وقد اتجه معظم هؤلاء المهاجرين إلى أمريكا وأوروبا الغربية ، ولم يذهب إلى فلسطين إلا قلة من بينهم لم تتجاوز ٢٥ - ٣٠ ألف مهاجر خلال عشرين عاما . وقد تلت هذه الموجه الأولى (علييا ريشونا) موجة ثانية فى عام ١٨٩١ .

ويرى عالم الاجتماع الإسرائيلى ش . ن . ايزنشتادت لدى تقييمه لهذه الهجرة «أنه فى ظل الظروف التى سادت فى فلسطين فى تلك الفترة ، لو استمرت اتجاهات الهجرة الأولى، لكانت قد أدت إلى ابتلاع كامل للمستوطنين كمجموعة صغيرة أخرى ، وربما ذات حقوق زائدة ، داخل الاطار المؤمن بالتعددية فى المجتمع العثمانى العربى . وقد أدى ارتباط المستوطنين برعاية البارون روتشيلد عن غير وعى - دورا هاماً فى هذا الاتجاه ، بالرغم من أنه أنقذ المستوطنات من الخراب الاقتصادى الكامل ..

والأهمية الزائدة لهذه العوامل تبرز عندما نقارنها بخطوط تطور الهجرة الثانية (علييا شنييا) (٤١) التى كانت بمثابة إحدى المراحل الحاسمة والمبلورة فى تاريخ الاستيطان . لقد

قام رجال الهجرة الثانية بدور من الدرجة الأولى بين طبقات الصفوة المختلفة ، وعلى الأخص بالنسبة للصفوة السياسية ، طوال فترة الاستيطان كلها ، وفى الفترة الأولى من قيام الدولة ، وهو الدور الذى تجاوز كل احتمال بالنسبة لعددهم النسبى أو المطلق . إن الايديولوجية التى صاغوها أصبحت الفرضية الأساسية فى تجميع النظام الاجتماعى والمؤسسى فى الاستيطان ، ومازالت المواقف المختلفة الخاصة بالهجرة الثانية تعطى ثمارها فى المناخ الاجتماعى والسياسى داخل دولة اسرائيل» .

ويواصل ايزنشتادت حديثه عن «الهجرة الثانية» فيقول :

«إن أفضل طريقة لفهم القيمة الحاسمة للهجرة الثانية هو مقارنتها بالهجرة الأولى . فأولا وقبل كل شىء ، على عكس الهجرة الأولى . لم يهدف رجال الهجرة الأولى إلى «التأقلم» كفلاحين وعمال . لقد اعتبروا أنفسهم أساسا بمثابة طليعيين ، وممهدى طريق ، لا يعملون من أجل أنفسهم أو من أجل الاستيطان الخاص بهم ، بل يعملون من أجل المستقبل ومن أجل المجموع القومى كله . وقد كانت الصورة المثلى التى عبرت بها الهجزة الثانية عن ايديولوجيتها هى بلورة الشخصية النموذجية (الطليعى العبرى المثالى) . لقد صيغت الخطوط الأساسية لهذه الشخصية فى تلك الفترة . وفى تلك

الفترة لم يتم تصوير أى صيغة واضحة وقاطعة . لقد قدمت وأعدت صيغ مختلفة وغريبة لكل منها جانب تؤكد عليه . ولكن مع تجاوز الفروق يمكن تمييز خطوط متشابهة ومشتركة فى شخصية «هيحالوتس» .

والخط الأساسى الأول فى شخصية «هيحالوتس» (الطليعى) هو الأساس الاجتماعي والشخصى ، والتضحية بالذات . إن هيحالوتس هو شخص على استعداد لأن يكتفى بالقليل ، وعلى استعداد لحياة التقشف . وتنازله ليس لمجرد التنازل ، بل من أجل تحقيق مهمة هامة للمجموع ، وعلى الأخص بالنسبة للمجموع الآتى فى المستقبل ، ذلك المجموع الذى سيهاجر وينمو من بين نويات الجماعات الطليعية . ومن هنا عدم اهتمام «هيحالوتس» بالمكافآت الفورية للموقف ، وبالأجر ، وبوسائل الراحة المادية ، لأن مكافأته هى الرضاء الذى يشعر به عندما ينفذ مهمة ذات أهمية مصيرية من أجل مستقبل المجموع .

أما الأساس الرئيسى الثانى فى شخصية «هيحالوتس» فهو طبيعة الأعمال الهامة من أجل المجموع . وأول هذه الأعمال هو التأكيد القوى على العمل الزراعى – أو العمل اليدوى عامة – وعدم استغلال الغير ، كطريق له أهمية من

الدرجة الأولى من أجل استنفار همة اليهود ، وخلق بشر «جدد» . ومن هنا برز الاتجاه للتأكيد على أهمية الحياة في طائفة من طراز خاص كانوا يبشرون بها باصطلاحات الاشتراكيين اليوتوبيين . وإلى جوار العمل الجسماني تم التأكيد كذلك بقوة على مبدأ الدفاع عن النفس وعدم الارتباط بأي حماية من الخارج .

والأساس الثالث في شخصية «هيحالوتس» هو الإبداع الثقافي وإحياء اللغة العبرية والثقافة العبرية . وقد تجلى هذا الأمر في الأعمال الأدبية ، والعلمية أو شبه العلمية مثل الأعمال التي تمت في مجال التاريخ أو الآثار ويرتبط به ارتباطا وثيقا الاهتمام الفعال بالشئون الاجتماعية والسياسية والاشتراك في حياة الاستيطان (٤٢) .

وفي ظل هذا المناخ الجديد ظهرت الايديولوجيات الصهيونية المختلفة من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار ، والتي بدأت بجماعة «هابوعيل هاتسعير» (العامل الفتى) ، وجماعة «بو عليي تسيون» (عمال صهيون) اللتين دارت بينهما وبين الزعامة الصهيونية الرسمية والمستوطنين القدامى حلقات من الجدل والنقاش «لم يحدث مثيل لها في تاريخ الفكر والحركة الصهيونية حتى الآن» ، حول الطريق الصحيح من

أجل حل مشاكل المجتمع والثقافة الأساسية للمجتمع القادم ، وليس من أجل مجرد حل المشاكل الواقعية للجماعات القائمة.

وكان على كل من يؤمن بفكر أو بأيديولوجية جماعة من الجماعات الصهيونية الجديدة أن يعبر عن التزامه الأيديولوجى الكامل بالفكر الذى يؤمن به ، وهو الإيمان الذى كان يصل إلى حد الإيمان الدينى .

ويرى المفكر الإسرائيلى أمنون روبنشتين، أنه بالرغم من أن الخلاف الأيديولوجى كان أحد العلامات البارزة للمجتمع السياسى لهذا المجتمع العبرى الجديد ، الذى كان أعضاؤه ذوى إيمان حركى - حزبى قوى ، فإن الملامح الأساسية لهذا المجتمع الاختيارى ، والتى انعكست على مكونات النمط اليهودى الصهيونى فى طابعها العبرى داخل الاستيطان الصهيونى كانت : الولاء السياسى والحزبى ، والمكانة الخاصة لزعماء الأحزاب ، والقيمة العليا للأيديولوجية الاستيطانية ، والالتزام الكامل للفرد تجاه المجتمع ، والأدب «المجند» وما شابه ذلك من السمات والملامح التى تميز المجتمع الذى يقوم على إعلاء الوعى السياسى (٤٣) .

وقد قام الأدب العبرى فى هذه الفترة بدور هام من أجل إرساء هذه المفاهيم وإعلائها على أى واقع فعلى مر به النمط

اليـهودى الصـهـيونى خـلال هذه الفتـرة . لقـد كـانت قـيم الصهيونية أهم من الإنسان في نظره ، وصور النمط اليهودى الصهيونى ، كما لو كان قد حقق هذه القيم بكاملها ، بالرغم من أن بعض الأدباء أمثال يوسف حييم بريبر قد عبروا عن أن فلسطين أو الاستيطان الصهيونى ، بشكل أدق ، لم يغير هذه الشخصية ، وأدى التعبير عن التناقض بين المطالب النمطية للهجرة الصهيونية ، وبين الواقع النفسى للمهاجرين الذين لم يتكيفوا مع هذه الأنماط كما أدى إلى خلق أدب معقد ومثير للاهتمام .

وهنا يمكن القول بأن أهمية الهجرة الثانية تكمن ، بالإضافة إلى ما أوردناه ، فى أن زعماءها اعترفوا بالعلاقة بين الحياة والأدب ، ومجدوه بأوصاف تتصف باستعادة الماضى بصور مختلفة . وقد أكثر ش . تسميح ، وهو أحد الآباء الأدبيين لجماعة «هابوعيل هاتسعير» (العامل الفنى) من التأكيد على أن الأدب العبرى هو من العناصر الأساسية للهجرة ذاتها ، كما أعلن يتسحاك طبنكين (٤٤) ، أن الهجرة الثانية قد أدت إلى نهضة فى الأدب العبرى (٤٥) .

والمثير للدهشة ، بالنسبة لهذه المرحلة الهامة من مراحل صياغة النمط الصهيونى ، والتى اعتمدت خلالها الكثير من قيم الصهيونية ، وبصفة خاصة نظرية «دين العمل» (دت

هاعفودا) التى أرسى مبادئها المفكر الصهيونى أهارون دافيد جوردون (١٨٥٦ – ١٩٢٢)، وهى أن علاقة النمط اليهودى الصهيونى بفلسطين كانت قائمة على العلاقة بالأرض والمكان وليس بالتاريخ أو العلاقة التاريخية بفلسطين . إن أحد أبطال يوسف لوايدور ويدعى يوآش وهو نموذج «العبرى الجديد» يقول :

«إننى أحب فلسطين ولن أتركها أبدا ، لأننى ولدت فيها ، وبها تربيت وتعودت عليها وأنا أحبها . ولكننى لو ولدت وتربيت فى بلد آخر ، فإننى كنت بلا شك سأحبه كما أحب بلادنا الآن . صحيح ، إن آباءنا قد ولدوا فى فلسطين ، وعاشوا فيها وضحوا بدمائهم من أجلها ، ولكن بالرغم من كل الحب ، الذى يكنه الإنسان للبلَد الذى ولد فيه أباؤه القدامى ، فإنه يحب البلد التى ولد فيه أكثر (٤٦) .

مراجع وهوامش
الفصل الثانى

١ – يهودا . باروخ : تاريخ الصهيونية ، ص ٤١ .

٢ – ريجر . العيزر : تاريخ العصر الحديث ، ص ١٤ .

٣ – دائرة المعارف العبرية العامة : الجزء الثالث ، ص ١٨٤ .

٤ – الفاروقى . إسماعيل راجى : الملل المعاصرة فى الدين اليهودى ، ص ٣٥.

٥ – ساخار . هـ . م : م . س . ذ ، ص ٤٥ .

٦ – يهودا . باروخ : م . س . ذ ، ص ٤٨ .

٧ – **الهسكالاه** : حركة يهودية ثقافية فى العصر الحديث نادت بالاندماج الاجتماعى والثقافى واللغوى والزواج المختلط، وطرحت تعديلات جذرية فى الدين اليهودى والعبادة وصلت إلى حد الدعوة لاعتناق المسيحية . كان الانتاج الأدبى الأول لهذه الحركة فى القرن الثامن عشر الترجمة الألمانية للعهد القديم بواسطة موسى مندلسون (بحروف عبرية) ، وكذلك تفسير اسفار العهد القديم (هَبئور) باللغة العبرية .

وكان الهدف من هذه الانتاجات هو تقريب اليهود من الثقافة الألمانية . وقد طالب مندلسون فى كتابه «القدس» (يروشالايم) مثقفى عصره بالتسامح تجاه اليهود بروح حركة التنوير الأوروبية ، وتحديد فواصل واضحة بين الدين والدولة ، ولم يكن يؤمن بإحياء اللغة العبرية ، بالرغم من أنه كتب بعض مؤلفاته بها ، وأصدر بالتعاون مع مريديه مجلة عبرية بعنوان «المقتطف» (همأسيف) بهدف فتح أبواب الثقافة الأوروبية أمام من يعرفون

العبرية ، ولكن لم يكتب لها الأستمرار ، حيث طغى تأثير التيار الألمانى بين المتنورين من أجل فائدتها لهم اجتماعياً وثقافياً واقتصادياً . وقد ظهر مركز آخر للهسكالاه فى جاليسيا ، التى على حدود النمسا ، حيث تمرد «المسكيليم» (أتباع حركة الهسكالاه) على الاستبداد الدينى وتأثيره على حياة اليهود . وبعد ذلك انتقلت الهسكالاه إلى روسيا القيصرية ، وطالب المتنورون اليهود بإحداث تغييرات فى الحياة اليهودية ، وحثوا اليهود على العمل الانتاجى .

وقد اختلفت الهسكالاه الروسية عن البرلينية فى استخدام اللغة العبرية كوسيلة للإحياء الثقافى على نطاق واسع ، كما زاد الميل إلى التشبه بالروس والاندماج اللغوى بين اليهود ، وهو ما عرف بأنه اندماج لغوى وثقافى تم فى أحيان كثيرة بتشجيع من السلطات الروسية ، حيث تم إغلاق «الحواريم» (الكتاتيب اليهودية) وأقيمت بدلا منها مؤسسات تعليمية عامة . وكان شعار الهسكالاه فى روسيا هو «كن يهوديا فى بيتك وإنسانا خارج بيتك» وهى الصيحة التى أطلقها الشاعر اليهودى يهودا ليف جوردون .

وقد صدر خلال الفترة من ١٨٦٠ – ١٨٨٠ العديد من الصحف العبرية الناطقة بلسان الهسكالاه منها : «هشحر» و«هتسفيرا» «وهميليتس» و «هامجيد» و «بكورى هاعتيم» ، «كيرم حيمد» وقد عبرت جماعة «البوند» عن القطاع اليهودى المتروس . وقد تراجع عدد من أتباع الهسكالاه عن إيمانهم بها بعد اضطرابات عام ١٨٨١ إثر اغتيال القيصر الكسندر الثانى ، ونادوا بالحل القومى اليهودى ومن بينهم موشيه ليف ليلينيوم وبيرتس سمولينسكين .

ويعتبر أدب الهسكالاه هو البداية الحقيقية للأدب العبرى الحديث .

٨ – روث . سيسل : الموسوعة اليهودية ، عمود ٨٥٥ .

٩ – المسيرى . عبد الوهاب : موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية ، ص ١٨٤ .

١٠ - راجع : نوردو . ماكس : كتابات صهيونية ، ص ١٨٤ .

١١ - الحسيدية : حركة دينية واجتماعية أسسها ربى اسرائيل بعل شيم طوف (إسرائيل صاحب السمعة الطيبة) (١٦٩٩ - ١٧٦١) فى بولندا .

كانت الحسيدية على عكس الربانية التى تعتبر أن دراسة التلمود هو أساس اليهودية ، وعلى عكس أتباع «القبالاه» (المتصوفون) الذين يدعون للدروشة والعذاب الجسمانى ، كانت تعتقد أن تفسيرات الشرائع وتفسيرات التفسيرات عقدت النفوس تجاه بساطة العقيدة ، والاتصال المباشر بالرب . ولذلك دعت الحسيدية إلى تأكيد قيمة الصلاة والعبادة الشخصية ، ونبذت دراسة التلمود . والحسيدية ليست حركة طائفية ، بل هى طريقة جديدة لعبادة الرب تقوم على أساس أن كل فرد عادى عليه أن يجد الله بنفسه لأن الالوهية موجودة فى الخليقة ، ومن الأفضل ألا يلتزم المتعبد بكتاب للصلوات وعليه أن يمارس العبادة فى بشاشة وفرح ومن خلال الرقص .. ويحتوى التفكير الحسيدى على قدر كبير من الخرافات : منها أن القوة المقدسة محبوسة فى حروف أسم الرب «يهوه» والإيمان بظهور المسيح وعبادة الملائكة . والزعيم الدينى الحسيدى يسمى «صديق» الذى يحمل لقب «أدمور» وهى اختصار الكلمات «سيدنا واستاذنا ومعلمنا» . وقد انتشرت الحسيدية فى شرق أوروبا ، وانتقلت منها إلى أمريكا حيث يوجد المركز الرئيسى لها فى حى بروكلين فى نيويورك . وقد وجد فيها البسطاء والمظلومون من اليهود صلاحاً لكرامتهم لأنفسهم حيث أعطتهم الحسيدية الإحساس بالمساواة أمام الرب وأمام «الصديق» ، واستجابت الحركة لشوق نفوسهم للخلاص . نفذت الطقوس بالغناء والرقص العنيف من خلال التمادى فى تعاطى الشراب مما كان ينسيهم الضائقات ، ويقويهم على مواجهة نكبات الزمن الأمر الذى كان بمثابة ترياق ضد الآلام والمعاناة التى كان يعيش فيها يهود بولندا فى بداية القرن الثامن عشر . وبالرغم من أن الحسيدية كانت فى بدايتها قوة

متمردة ضد ما هو قائم ، ودعت للتمرد على الصورة المتحجرة للدين اليهودى ، إلا أنه بمرور الوقت أبرمت اتفاقاً مع القوى القديمة التى حاربتها فى البداية ، وأصبحت حارسة متعصبة للتقاليد اليهودية ، وحاربت بضراوة أى اتجاه لتجديد الحياة اليهودية . وهذا يفسر لنا موقف تلك الحركة من حركة الهسكالاة عندما حاولت تغيير وجه الحياة اليهودية فى روسيا . وقد ظهرت فى مواجهتها حركة باسم «همتنجديم» أى «المعارضون» بزعامة «الربانيم» (الحاخامات التلموديين) الذين خشوا من شيوع تفضيل قراءة «القابلاه» (كتاب التصوف اليهودى) عن قراءة ودراسة التلمود . وكان «المسكليليم» أيضا من جناح «المتنجديم» (المعارضين) وكانوا يسعون للقضاء على سلطان الدين على الجماهير اليهودية سواء من قبل «الحسيديم» (أتباع الحسيدية) أو «الربانيم» . وقد ظهر تيار فى الحسيدية اللتوانية يقوم على التعمق الفكرى بالإضافة للحماس الحسى التقليدى لدى حسيدية «بعل شم طوف» ، عرف باسم «حبد» (الحروف الأولى من الكلمات العبرية : (حكمة – فهم – معرفة) وهو تيار واسع الانتشار فى إسرائيل وله العديد من المستعمرات يعتبر الأديب الصهيونى شموئيل يوسف عجنون من أبرع من عبر عن حياة وفكر وعقائد الحسيدية .

١٢ – المسيرى . عبد الوهاب : م . س . ذ ، ص ٧٢ .

١٣ – المسيرى . عبد الوهاب : الأيديولوجية الصهيونية ، الجزء الأول ، ص ١١٣ – ١١٤ .

١٤ – شبل . فؤاد ،. محمد : م . س . ذ ، ص ١٠٤ .

١٥ – دفعت الروح القومية الغربية . بجاذبيتها من ناحية ، وضغطها من ناحية أخرى ، فى نفس الوقت ، اليهود الغربيين إلى إختراع قومية تقتصر عليهم وحدهم ، ويمكن وصفها بأنها شكل جماعى للاقتباس من الغرب على غرار ما حدث فى المرحلة السابقة فى إطار فردى فى عصر

الليبرالية. ففى نهاية القرن التاسع عشر ، كانت الدول الاستعمارية قد احكمت سيطرتها على معظم أراضى القارة الافريقية ، ومناطق شاسعة فى آسيا وبعض المناطق فى أمريكا وعدد لا بأس به من الجزر الاستراتيجية المنتشرة فى كافة انحاء العالم . إن تلك التطورات التى أسفرت عن بلورة كيانات قومية جديدة للعديد من الشعوب الأوربية ، بينما كان قسم آخر منها يبسط سيطرته الاستعمارية فى آسيا وأفريقيا ، لم تمر دون ملاحظة الكثير من المثقفين اليهود لها ، فى غرب أوروبا أو شرقها، الذين اعتبروها قدوة لهم ، أثناء بحثهم عن حلول للمسألة اليهودية . ونلاحظ عند تتبع فكر آباء الصهيونية ، ومن بينهم هرتسل نفسه ، أن تأثرهم بتلك التطورات كان كبيراً ، وأن معظمهم ، إن لم يكن كلهم ، اقترحوا حلولاً للمسألة اليهودية ، وفى ذهنهم تلك الطرق التى اتبعتها الشعوب الأوربية . فإذا كانت دول أوروبية عديدة تقيم المستعمرات فى آسيا وأفريقيا ، وتقوى سيطرتها على شعوبها ، وتخلق هناك مختلف التشكيلات والكيانات شبه السياسية ، فلماذا لا يحق لليهود أيضا إقامة كيان خاص بهم فى تلك المناطق ، لحل مشاكلهم الذاتية من جهة ، وتجنب الأزمات فى علاقاتهم مع الشعوب الأوربية من جهة أخرى ؟ وكان أكثر من مفكر أو زعيم صهيونى على استعداد ، خلال المرحلة الأولى من نشوء الصهيونية ، لأقامة دولة يهودية أو لتوطين اليهود فى أى مكان فى العالم ، وليس فى فلسطين بالذات . ولم يحسم الصهيونيون موقفهم ، من حيث موقع دولتهم المزمع انشاؤها . إلا بعد إقامة المنظمة الصهيونية العالمية ، عندما قرر المؤتمر الصهيونى الأول ، الذ انعقد عام ١٨٩٧ ، أن الدولة اليهودية يجب أن تقام فى فلسطين فقط . ولكن حتى بعد هذا الإعلان ، كانت اكثر من فئة صهيونية على استعداد للبحث فى إقامة دولة يهودية فى أى مكان مناسب ، غير فلسطين ، تماما كما كانت أية دولة استعمارية، من الدول الأوروبية ، على استعداد لاستعمار أية بقعة ، فى أى مكان من العالم ، إذا عاد ذلك بفائدة استراتيجة أو اقتصادية عليها .

١٦ – رودنسون . مسكيم : المشكلة اليهودية عبر التاريخ ، ص ١١٥ – ١١٦ .

١٧ – وينز . دافيد : الحرب غير المقدسة ، اسرائيل وفلسطين ١٨٩٧ – ١٩٧١ ص ٢٦ .

١٨ – شبل . فؤاد محمد : م . س ذ ، ص ٨٧ – ٨٨ .

١٩ – (٢) شاؤول تشرنحوفسكى (١٨٧٥ – ١٩٤٣) : شاعر روسى صهيونى، تأثر بكل من الأدب الروسى والعبرى الحديث . درس الطب فى جامعات ألمانيا وسويسرا وأنهاها عام ١٩٠٥ . عاد بعدها لروسيا وعمل فى الجيش الروسى خلال الحرب العالمية الأولى . عاش فى برلين من ١٩٢١ ، وهاجر إلى فلسطين عام ١٩٣١ . تميزت أشعاره بالازدواجية العميقة ، فقد قلد الأشكال الأدبية الغربية من سوناتات وملحمة وخمريات إغريقية ، ومن ناحية المضمون كان من أتباع الفيلسوف الصهيونى بيرد تيشفسكى الذى نادى بتخليص اليهودية من روحانيتها المتطرفة ومن تركيزها الزائد على البؤس والشقاء ، ونادى بإعلاء قيم أخلاقية نيتشوية ، مثل الفرح والقوة الجسدية والعدوانية .

تتضح فى أشعاره تأثيرات الروح اليونانية التى سادت فى عدد كبير من أشعاره . ترجم العديد من الأعمال الأدبية العالمية إلى العبرية . صدرت أشعاره فى طبعة كاملة عام ١٩٦٦ . أهتم به النقاد الإسرائيليون وبصفة خاصة يوسف كلاوزنر وباروخ كورتسفيل .

(**) حييم نحمان بياليك (١٨٧٣ – ١٩٣٤) . أبرز شعراء العبرية فى العصر الحديث ، فقد توج باعتباره شاعر القومية اليهودية . درس فى «الحيدر» و«بيت همدراش» وبعد ذلك فى «اليشيفا» (الاكاديمية التلمودية) فى فولوجين . بدأ انتاجه الأدبى بقصيدة «إلى العصفور» (١٨٩١) . بدأ فى الاشتهار بعد انتقاله إلى أوروبا حيث تنوعت أشعاره : غنائيات وأشعار قومية وحب وطبيعة وحنين إلى «بيت همدارش» القديم وغيرها . قام بالاشتراك مع الأديب ى . ح . رافينسكى بتحرير كنز الاسطورة اليهودية

فى الأدب القديم فى كتاب بعنوان «كتاب الهاجاداه» . هاجر إلى فلسطين عام ١٩٢٤ وقام بنشاط ثقافى عبرى متنوع منذ ذلك الحين . قام بدراسة الشعر العبرى فى العصور الوسطى وترجم إلى العبرية نماذج من الأدب العالمى ، وكتب العديد من الأشعار للأطفال . تأثر فى فكره القديم بفلسفة آحاد هاعام (الصهيونية الثقافية) . حظى باهتمام كبير من النقاد فى إسرائيل وخارجها ، وترجمت أشعاره إلى العديد من اللغات ومن بينها العربية على يد كاتب هذه السطور فى أطروحته التى نال عنها درجة الماجستير عام ١٩٦٩ من جامعة عين شمس .

٢٠ – الشامى . رشاد : حييم نحمان بياليك . حياته واتجاهاته الأدبية ، أطروحه للماجستير فى الأدب العبرى الحديث (غير منشورة) .

٢١ – الشامى . رشاد (دكتور) : لمحات من الأدب العبرى الحديث ، مع نماذج مترجمة ص ٩ .

٢٢ – الشامى . رشاد : حييم نحمان بياليك ، م . س . ذ .

٢٣ – مازى : أهارون : بياليك الواحد ، فى غابات التحليل والبحث (بياليك ها إيحاد) .

٢٤ – الشامى . رشاد : م . س . ذ.

٢٥ – المسيرى . عبد الوهاب : اليهودية والصهيونية واسرائيل ص ١٩٦ – ١٩٧ .

٢٦ – روبنشتين . أمنون : «من هرتسل حتى جوش ايمرنيم ذهاباً واياباً» ص ٣٢ – ٣٤ .

٢٧ – المسيرى . عبد الوهاب : م . س . ذ ، ص ١٩٧ .

٢٨ – الشامى . رشاد : م . س . ذ .

٢٩ – نفس المرجع .

٣٠ – المسيرى . عبد الوهاب : م . س . ذ ، ص ١٧٤ – ١٨٤ .

٣١ – الشامى . رشاد : م . س . ذ .

٣٢ – يهوشواع . أ . ب : م . س . ذ ، ص ٣٢ – ٣٣ .

٣٣ – حفنى . قدرى : م . س . ذ ، ص ١٢٥ – ١٢٦ .

٣٤ – سفر العدد ١٤ : ١ – ٣ .

٣٥ – سفر العدد ١٤ : ٢٩ – ٣٥ .

٣٦ – الشامى . رشاد : م . س . ذ .

٣٧ – يوسف لوايدور : غير معروف تاريخ ميلاده وقد قتل فى أحداث مايو ١٩٢١ فى يافا ، مع الأديب العبرى يوسف حييم برينر . كتب أربع قصص وصف فيها أربع سمات مميزة لفترة الهجرة الثانية : الصراع بين الفلاحين والعمال (أيام الحصاد» (ييمى كاتسير) ونشرها فى مجلة «العبرى» (هاعفرى) برلين ١٩١١ ، والصراع على الحراسة العبرية «يهودا حارس البستان» (يهودا نوطير هابرديس) ، مجلة «العبرى» ١٩١٢) ، وصراع «الحالوتس» (الطليعى) مع الحمى «المناوب» (هاتوران) ، نيويورك ١٩١٣ – ١٩١٤) . وصف ابن البلاد «العبرى الجديد» كنقيض مطلق لابن الشتات اليهودى (يوآش ، مجلة هشيلواح ، العدد ٢٦ ، اوديسا ، ١٩١٢) . وقد نشرت كلها فى مجلات خارج فلسطين وكانت ممنوعة من النشر هناك . وتعتبر كتابته مسطحة وذات مغزى قاطع .

٣٨ – شاكيد . جرشون : الأدب النثرى العبرى . ١٨٨٠ – ١٩٨٠ ، ص ٦٠ .

٣٩ – نفس المراجع ، ص ٦٠ .

٤٠ – الحالوتسيوت : اسم للعمل الطليعى الذى يقوم به «هيحالوتس وهى صيغة المفرد أو «هالوتسيم» وهى صيغة الجمع العبرية ، وتعنى ذلك الجزء من الجيش الذى يسير فى المقدمة ، وتعنى فى المجال الاستعارى أول من يقوم بالاحتلال أو من يشق الطريق أمام من يأتون من بعده ، وهو اصطلاح اطلق على المجمرعة اليهودية التى هاجرت لفلسطين من أجل

تحقيق الحلم الصهيونى عن طريق العمل اليدوى الشاق ، والعمل الزراعى فى «الكيبرتس» (المستعمرة الصهيونية الاشتراكية) . وهو اصطلاح من بين العديد من الاصطلاحات الصهيونية ذات الدلالة الخاصة بالمشروع الصهيونى الاستعمارى فى فلسطين .

ويشيع استخدام ترجمة هذا الاصطلاح فى المصادر العربية بكلمة رائد - طليعى «والإشارة إلى «دور هحالوتسيم» على أنه «جيل الرواد» وقد أثرنا استخدام الاصطلاح بمنطوقه العبرى «حالوتسيوت» أو «حالوتس» .

٤١ - الهجرة الثانية (١٩٠٤ - ١٩١٤) .

٤٢ - ايزنشتادت . ض . ن : المجتمع الاسرائيلى ، الباب الأول ، ص ١٠ - ١٤ .

٤٣ - روبنشتين . أمنون : م . س ذ ، ص ٢٢ .

٤٤ - يتسحاك طبنكين : من رؤساء حركة العمل (هاعفودا) فى فلسطين ومن زعماء «بوعلى تسيون» (عمال صهيون). نادى بالنشاط الصهيونى الاشتراكى والاستيطان الزراعى والمبادرة الذاتية . ولد فى روسيا عام ١٨٨٧ . كان عضوا فى حركة «بو على تسيون» وهاجر إلى فلسطين قبل الحرب العالمية الأولى وأصبح من رؤساء حركة العمال اليهود . كان من مؤسسى «احدوت هاعفودا» وزعيمها والمتحدث بلسانها .

كان عضوا فى حركة «هاشومير» (الحارس) وكان من مؤسسى مستعمرة، عين حارود . كان من زعماء حزب المباى الذى قام عن طريق اندماج «هابوعيل هاتسعير» (العامل الفتى) مع أحدوت هاعفودا . انسحب من المباى وأقام حركة أحدوت هاعفودا التى أتحدت بعد فترة مع «هاشومير هاتسعير» فى حزب المبام (حزب العمال المتحد) وفى عام ١٩٥٤ ترك المبام وأقام حزب «أحدوت هاعفودا» . وبعد حرب ١٩٦٧ كان من رؤساء «حركة أرض اسرائيل الكاملة» . توفى فى عام ١٩٧١ .

٤٥ - شاكيد . جرشون : م . س . ذ ، ص ٢٨ - ٣٠ .

٤٦ - نفس المرجع ، ص ٦٠ - ٦١ .

الفصل الثالث

الشخصية اليهودية فى اطار الجيتوية الإسرائيلية

ظروف نشأة الشخصية اليهودية الإسرائيلية:

ينبغى التأكيد بداية على أن الصهيونية قد بدأت فى نهاية القرن التاسع عشر ، ليس من أجل أشواق جديدة إلى فلسطين ، ولا بسبب كراهية مفاجئة لأماكن إقامتهم خارجها (١) . لقد كان اليهود يكرهون «الشتات» دائما ، ولكنهم كانوا يفضلون الإقامة فيه رغم أن أبواب فلسطين كانت على الدوام مفتوحة أمامهم ، وكذلك أيضا لا بسبب الأشواق الدينية إلى فلسطين لأن هذه الأشواق لم تحرك اليهود عبر التاريخ من أماكن إقامتهم ولا خارجها للذهاب إليها ، ورغم عدم وجود صعوبات فى هذا السبيل . ولكن الصهيونية بدأت بسبب الإحساس بالخوف من «الشتات» بتأثير عاملين أثرا على وجود هذا الشتات فى أوروبا خلال هذه الفترة وهما :

١ - ازدياد موجات الاندماج الذى اليهودى فى المجتمعات الأوروبية بما تمثله من تهديد لزوال مقومات الذاتية اليهودية .

٢ - موجة الاضطهاد .

لقد أتضح للصهاينة فجأة إلى أى مدى يمكن أن يكون تأثير هذين العاملين خطيرا ومروعا ، وهنا زاد الخوف على «الشتات» لدى البعض على الخوف التاريخى من فلسطين .

«لقد كانت الصهيونية فى بدايتها حركة قلة معدومة ، وجوبهت بالرفض من معظم الفئات اليهودية . لقد رفضها الدينيون ، ورفضتها جماعة البوند ، ورفضها الاشتراكيون اليهود ، ورفضها المندمجون بأنواعهم ، ورفضها الحالمون بحلم الحكم الذاتى الثقافى . إن اليهود بجموعهم لم يكونوا راغبين فى الصهيونية ولم يؤمنوا بها . وهذه الحقيقة الحاسمة يجب ألا تنسى . فبعد الحصول على وعد بلفور ، وبعد أن فتحت أبواب فلسطين ، ومنحت دولة عظمى هى بريطانيا ، حمايتها لإمكانية إقامة دولة يهودية فى فلسطين ، لم يأت اليهود إلى فلسطين . وإذا كان أحد فى حاجة إلى الدليل النهائى والقاطع بشأن العلاقة المشكوك فيها بين اليهود وفلسطين ، وبشأن حقيقة أنهم لم يحاولوا العودة إلى فلسطين بشكل جدى ، وبشأن خشيتهم من العودة والالتصاق بالشتات ، فإنه ليس أمامه أن يتأمل سنوات الدولة الخمسين . إن الأبواب مفتوحة ، والإمكانيات هائلة ، ولكن المهاجرين لا يأتون .. والقاسم المشترك لعدم مجيء الطوائف اليهوية «التى تختلف كل عن الأخرى فى تكوينها الاجتماعى» إلى فلسطين ، هو نفس القاسم المشترك الذى حال دون مجيىء اليهود إليها عبر مئات السنين ... فهناك تبرير أمنى ، وهناك صعوبات الخروج وهنا تبرير دينى ، ولكن التبرير الأساسى هو التمسك بالشتات» (٢) .

ومما سبق يتأكد لنا أن هناك ظاهرتين تاريخيتين لازمتا الوجود اليهودى منذ نشأته ، وتمسك بهما طواعية واختيارا باعتبارهما القوقعة المحاربة التى يحمى بها نفسه من الاندثار ونعنى بهما :

١ – الشتات اليهودى .

٢ – الانعزال عن شعوب العالم .

وعلى ضوء هاتين الظاهرتين يمكن أن نفهم لماذا أصر مفكرو وزعماء الصهيونية على ضرورة إنشاء دولة يهودية فى فلسطين لتكون بمثابة «جيتو» دولى يحفظ لليهود ذاتيتهم المميزة ، ويحول دون استيعاب «الجوييم» لهم على طول المدى . لقد تصورت الصهيونية أن إقامة هذا «الجيتو» ، الدولى على أرض فلسطين «مستغلة سيل الأساطير التوارتية، وأشواق الخلاص المسيحانى» يحقق لها نفس الأغراض التى استطاع «الجيتو» الإقليمى أن يحققها على مدى ألفين من السنين ، أى :

أولا : الخفاظ على الذاتية اليهودية بطريقة جديدة مدارها أن يكون لكل يهودى جنسيتان : إسرائيلية وترمز لتبعيته الروحية ، وهى موطنه الأصلى فى نهاية المطاف ، وجنسية البلد الذى يقيم فيه ، وترمز إلى مصلحته المادية الموقوته .

ثانيا : الإفادة من الشتات اليهودى فى العالم كظاهرة تاريخية تعكس قوة اليهود فى العالم من خلال السيطرة على ناصية التجارة والمال ، ولكى يظل سندا لوجود «الجيتو» الدولى فى منطقة الشرق الأوسط يساعد على تحقيق حلم صيرورة أورشليم عاصمة إمبراطورية يكون فيها الشعب المختار سيد العالم بأسره (٣) .

وهكذا فإن الجيتو والصهيونية هما وجهان لعملة واحدة هى الانعزال اليهودى عن شعوب العالم ، والحياة داخل إطار وبناء عقائدى وتاريخى وسيكولوجى واجتماعى واقتصادى منفرد عن سائر الشعوب ، وهكذا تم خلق أكبر جيتو يهودى فى التاريخ ، توجه إليه عدد من يهود العالم بوعى أو عن غير وعى لخلق مجتمع يهودى منعزل عن بقية البشر تلافيا للاختلاط بهم ، ورغبة فى خلق مجتمع يهودى خالص على غرار الجيتو الاشكنازى التقليدى الذى هددته موجات الاندماج اليهودية .

وإذا كانت الهجرات الصهيونية (٤) إلى فلسطين هى التجسيد الملموس لخطوات الصهيونية لخدمة أهداف الصهيونية ، وخطوة اتخذت من موقف ايديولوجى معين بالنسبة لقلة من اليهود ، فإن تنوعات الخصائص الفكرية والديموجرافية فى هذه الهجرات تكشف عن التباين داخل

اطار البنية العامة للمجتمع الصهيونى ، الذى يصبح من العبث البحث فى داخله عن تناسق سلوكى ، أو تجانس حضارى . إن عدم وجود سلطة فى المجتمع الصهيونى قبل قيام إسرائيل ، من الناحية السياسية ، أدى إلى صراعات داخلية حول نفس العقيدة الصهيونية ، فاليهودى منقسم على نفسه بين مؤيد للدعوة الصهيونية أو رافض لها مع خلاف فى درجات الرفض . وكانت المحاولات المتعلقة بإنشاء إطار نظامى للمجتمع الصهيونى محاولات متناقضة ، فحركة «الموشاف» (المستعمرة التعاونية) ، تختلف من حيث فلسفتها عن حركة «الكيبوتس» (المستعمرة الاشتراكية ، وكلتاهما تتميز من حيث مفهومها الوظيفى عن نظام «الهستدروت» (اتحاد العمال فى فلسطين) (٥) .

وعلى هذا الأساس فإن المجتمع الإستيطانى الصهيونى فى فلسطين قبل عام ١٩٤٨ ، كان يحتوى فى داخله على ثلاث مجموعات :

١ - الهجرة الأولى ، التى استمرت خلال الفترة من عام ١٨٨٢ - ١٩٠٣ ، ووصل تعدادها حوالى ٢٥ ألف مهاجر يهودى من بينهم طلائع حركة «محبة صهيون» (البيلو) ، ومجموعات مهاجرين آخرين من روسيا ورومانيا (٦) . ولم تكن هذه الهجرة تمثل أى تعصب صهيونى ، لأنها لم تكن قد

تشبعت بعد بالحركة الصهيونية فى أبعادها السياسية .

٢ - الهجرات الثلاث اللاحقة ، وهى الهجرة الثانية (١٩٠٤ - ١٩١٤) ، والتى أحضرت إلى فلسطين حتى نشوب الحرب العالمية الأولى ٤٠ ألف مهاجر يهودى ، معظمهم من الشباب الصهيونى المتحمس الذى يحمل مبادىء وأفكار الإحياء القومى والاشتراكى للجماهير اليهودية فى فلسطين ، والهجرة الثالثة التى أمتدت من عام (١٩١٩ - ١٩٢٤) ، وكان ٤٥٪ من المهاجرين ضمن هذه الموجة من روسيا ، و ٣٠٪ من بولندا ، وكانت الغالبية العظمى منهم من الصهيونيين الاشتراكيين ، والهجرة الرابعة التى امتدت من (١٩٢٤ - ١٩٣١) ، والتى ضمت أساسا جماعات من البورجوازية الصغيرة التى ما كانت لتردد فى الهجرة إلى أمريكا لو لم تغلق هذه أبوابها فى وجهها . وقد جاء نصفها من بولندا ، وخمسها من روسيا ، والخمس الثانى من باقى أنحاء أوروبا . وكان مهاجرو بولندا الذين وفدوا إلى فلسطين عام ١٩٢٥ من الاتقياء البسطاء الذين كانوا يتعيشون على التجارة البسيطة ويعملون كباعة متجولين (٧) .

ومن الملاحظ فى هذه الموجات الثلاث تفاعل الأصل الأوربى الشرقى مع الإيمان العقائدى فضلا عن الرغبة فى بناء المجتمع الجديد (٨) .

٣ - الهجرة الخامسة : والتى استمرت من عام ١٩٣٢ إلى ١٩٣٨ ، وقد حملت إلى فلسطين ٢١٧ ألف يهودى ، وكانت أقل صهيونية ، وأقل أنعطافا نحو مثل «هحالوتسيوت» عن سابقاتها ، ووقعت أساسا نتيجة للمعاناة التى عاشتها المجتمعات اليهودية فى ألمانيا بسبب التقاليد الهتلرية ، وتصاعد موجة معاداة السامية فى روسيا وبولندا . وأعضاء هذه الهجرة أجبروا على الهجرة وخرجوا هاربين من الاضطهاد النازى و ساعين إلى المأوى الذى يسمح لهم بأن يقضوا بقية حياتهم فى طمأنينة .

وكان أعضاء هذه الهجرة يمثلون تقدما حضارياً ولكنهم يعكسون حالة الخوف والقلق ، فضلا عن عدم الارتفاع والسمو التكنولوجى الذى ميز الهجرات السابقة . وقد جسد مهاجرو هذه الموجة عقدة الشك والخوف التى سيطرت على الزعامات الصهيونية بعد ذلك (٩) .

وقد هاجر إلى فلسطين أثناء الحرب العالمية الثانية ٩٢ ألف شخص وفد معظمهم إلى فلسطين كلاجئين من الدول الغربية الأوروبية المحتلة بجيوش هتلر . وهناك أخيرا الفوج الذى وفد إلى فلسطين بعد الحرب فى الفترة من عام ١٩٤٦ إلى مايو ١٩٤٨ ، رغم تحريم الحكومة الإنجليزية للهجرة إلى فلسطين ، وعدد أفراد هذا الفوج ٦٢ ألف يهودى .

وتحليل تيارات الهجرة اليهودية إلى فلسطين يوضح أن توافد اليهود إلى فلسطين على مدى سبعين عاما كان متصلا بعوامل خارجية : مثل اضطهاد اليهود فى روسيا القيصرية ، وظروف الحياة القاسية والبطالة التى كانت منتشرة فى بولندا فى ذلك الوقت ، وسياسة الإبادة الجماعية لليهود التى اتبعها النازيون فى ألمانيا ، وغيرها من الأسباب الأخرى . وتعتبر الدعاية الصهيونية بين جماهير اليهود واجتذابهم إلى «أرض أجدادهم» من أقل العوامل التى ساعدت على هجرة اليهود إلى فلسطين ، حيث أنه خلال الفترة ما بين ١٨٨١ - ١٩٣٠ هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية ٣,٢ مليون يهودى ، وهاجر إلى فلسطين فى هذه الفترة ١٢٠ ألف يهودى فقط، أى أقل من عدد المهاجرين إلى أمريكا بـ ٢٧ مرة (١٠) .

وقد وصل معظم المهاجرين خلال الثلاث سنوات والنصف الأولى بعد عام ١٩٤٨ ، وكانت الزيادة السكانية بين اليهود بمعدل ٢٤٪ (٨٨٪ من بينهم من المهاجرين) ، بالمقارنة لنسبة زيادة سنوية ٣٪ خلال الثلاثين عاما من ١٩٥٢ - ١٩٨١ (١١) ، (وصل عدد اليهود فى إسرائيل عام ١٩٨٨، ثلاثة ملايين وستمائة ألف، وفى إحصاء عام ٢٠٠٢، وصل عدد اليهود إلى ٥,٣ مليون، هاجر منهم إلى إسرائيل منذ عام

١٩٤٨ حوالى مليون يهودى، والباقون هم بسبب الزيادة الطبيعية).

وهكذا نجد أن موجات الهجرة الرئيسة قبل عام ١٩٤٨ كانت تتكون أساسا من اليهود «الاشكنازيم» فى إسرائيل ، وهم المهاجرون من ذوى الأصول الأوروبية . (١٢) .

ولو انتقلنا إلى المجتمع الإسرائيلى بعد عام ١٩٤٨ ، لهالنا ما أصابه من تطور ، ويبدو هذا واضحا عندما نتذكر حركات الهجرة التى أعقبت ذلك التاريخ . فابتداء من عام ١٩٤٨ سوف نلحظ ذلك النقص الواضح فى المهاجرين الذين ينتمون إلى المجتمع الأوروبى مع زيادة وتأكيد فى حركة الهجرة اليهودية القادمة من العالم العربى والإسلامى (اليمن - العراق - إيران - تركيا - شمال أفريقيا - مصر) .

لقد بدأت منذ نهاية الأربعينات وعلى امتداد الخمسينات ، الهجرة الجماعية ليهود العالم الإسلامى أى للطوائف الشرقية (السفارديم) (١٣) وهذه الهجرة منذ البداية - مختلفة كثيرا - فعملية «البساط السحرى» فى اليمن ، وعملية «عزرا ونحميا» فى العراق ، وعمليات الهجرة من المغرب وليبيا وبلاد أخرى فى شمال أفريقيا ، وهجرة اليهود الايرانيين .. كل هذه الهجرات حملت إلى إسرائيل مليونا من السكان (وذلك خلال

سنوات معدودة فقط) . وهناك تجمعات يهودية هاجرت بكاملها إلى فلسطين من العالم العربى .

وقد حمل هؤلاء المهاجرون معهم حينما أتوا إلى اسرائيل كل أفراد المجموعات التى كانوا ينتمون إليها خارج فلسطين : الأصحاء والمرضى والأطفال والشيوخ ، المبصرين والمكفوفين. وهو ما لم يتحقق مع المهاجرين «الاشكنازيم» (يهود الغرب) الذين تمت هجرتهم بموجب اختبارات كثيرة أشرفت عليها القيادة الصهيونية بالتعاون مع الدول الإمبريالية ، وحالت دون وصول مثل هذه الحالات من المرضى والعجائز والشيوخ والأطفال إلى فلسطين لعدم لزومها كمادة جاهزة للاستعمال فى المشروع الصهيونى . ومن جهة أخرى كان المهاجرون الشرقيون – فى غالبيتهم – يخضعون لتقاليد ومعايير دينية تحث على توسيع الأسرة ، كما كانوا محرومين من المهارات التكنولوجية ، وإن كانوا قد حملوا معهم تقاليد وميراثا ثقافيا ومعايير كثيرة فى مجال العلاقات الأسرية واحترام الأهل والعادات المتوارثة (١٤) .

وهنا تصبح الحقائق الديموجرافية والخبرة من «المشكلة اليهودية» ذات دلالة خاصة فى تحديد من هى «الشخصية اليهودية الإسرائيلية» ؟ حيث أصبح المجتمع الإسرائيلى يتكون من ثلاث جماعات على النحو التالى .

١ - مجموعة اليهود الاشكنازيم :

وقد هاجرت هذه المجموعة إلى فلسطين إما فرارا من معاداة اليهودية التى مارستها المجتمعات الأوروبية ، وإما إعتقادا منها فى الصهيونية كحركة قومية . وهنا تكمن خبرة اليهودى الأوروبى «بالمشكلة اليهودية» فى أنه عرفها وعانى تجربتها بأشكال مختلفة وفى أوقات متعددة ، عرفها كصراع ثقافى بين الفكر والقيم المعاصرة ، والعقيدة اليهودية التقليدية، وكصراع داخلى بين الرغبة فى الإندماج بالمجتمع من ناحية، والخوف على ضياع هويته اليهودية من ناحية أخرى ، ثم كصراع خارجى بينه وبين المجتمع الذى يعيش فيه ، ثم عرفها أخيرا على شكل النازية الألمانية (١٥) .

وقد كان هؤلاء الاشكنازيم يشكلون خلال السنوات ١٩١٩ - ١٩٤٨ حوالى ٨٩,٣٪ (١٦) من بين تعداد المهاجرين الصهيونيين ، ثم وصلت نسبتهم خلال السنوات ١٩٤٨ - ١٩٦٢ إلى ٤٥,٤٪ . ووصلت نسبتهم لعدد سكان إسرائيل فى عام ١٩٦٤ إلى ٣١,٩٪ ، وفى عام ١٩٦٧ إلى أقل من ٣٠٪ .

٢ - مجموعة اليهود السفارديم :

وهذه المجموعة لم تواجه «المشكلة اليهودية» أصلا ، ولم تختبر معاداة اليهودية بمفهومها الأوروبى ، وقد هاجرت إلى

فلسطين تحت ضغط الحركة الصهيونية وإرهابها ، أو تصوروا منها بأن معجزة إلهية قد تحققت ، أو أملا فى مستوى معيشى أفضل من الذى كانوا يعيشون فيه فى بلادهم ، وتمت هجرتهم لا على شكل هجرة فردية ، بل على صورة رحيل جماعى للسكان (١٧) .

وقد كان هؤلاء السفارديم يشكلون خلال السنوات ١٩١٩ - ١٩٤٨ حوالى ١٠,٧٪ (١٨) من مجموع المهاجرين الصهيونيين ، ووصلت نسبتهم من مجموع المهاجرين خلال السنوات ١٩٤٨ - ١٩٦٢ إلى ٥٤,٦٪ ، ووصلت نسبتهم لعدد سكان إسرائيل من اليهود فى عام ١٩٦٤ إلى ٢٨,٧ ٪ وفى عام ١٩٦٧ إلى ٢٧,٥٪ . بسبب الهجرة الصهيونية إلى اسرائيل من ناحية ، والزيادة الطبيعة بينهم ، من ناحية أخرى (١٩) .

وفى عام ١٩٦٦ كان تقسيم سكان اسرائيل حسب مكان المولد على النحو التالى :

٩٧٦ ألف مولودون فى فلسطين (صباريم) أى حوالى ٤٨٪ من عدد السكان اليهود فى إسرائيل .

٦٥٢ ألف من أصل أسيوى وأفريقى (سفارديم) أى حوالى حوالى ٢٧,٥٪ (٢٠) .

٢٤١ ألف من أصل أوروبى وأمــــريكى (اشكنازيم) أى حوالى ٢٤,٥٪ .

وخلال السنوات من ١٩٤٨ - ١٩٨٠ شكل المهاجرون من بلدان آسيا وأفريقيا ٤٦٪ من مجموع المهاجرين إلى إسرائيل ، وهذه الزيادة المطردة ونسبة المواليد العالية زادت من نسبة السفارديم (الطوائف الشرقية) بين يهود اسرائيل من ٢٢٪ فى نهاية فترة الانتداب إلى حوالى ٥٢٪ فى نهاية عام ١٩٨٠ (٢١) .

٣ - مجموعة اليهود الصباريم : (٢٢) :

وهى المجموعة التى ولدت على أرض فلسطين ، ولم تعرف لها وطن آخر سوى إسرائيل بعد قيامها . وارتباطها بإسرائيل ليس نتيجة إعتقاد أيديولوجى أو إيمان بالصهيونية، ولكن ببساطة لأنها ولدت هنا . وهى لا تعرف عن معاداة اليهودية أو اللاسامية إلا ما يقال لها عنها ، حيث ولدت فى مجتمع أغلبيته يهودية ولم تواجه هذه المعاداة ، ولذلك فليس لديها عقدة اضطهاد كالتى عند آبائها ، ولم تشعر أبدا بإحساس الأقلية الذى عرفه آباؤها من قبل .

ويرى بعض الباحثين أن هذه المجموعة تضع إسرائيليتها قبل يهوديتها ، حيث تعتقد أنها وجدت على هذه الأرض، ليس لأنها يهودية ، بل لأنها ولدت عليها كإسرائيلية (٢٣) .

وقد كانت نسبتها لعدد سكان إسرائيل فى عام ١٩٤٨ ، ٣٥٪ ، وفى عام ١٩٦٤ أصبحت هذه النسبة ٣٩,٤٪ من بينها أكثر من ١٧٪ من أصل سفاردى ، و ٢٢,٤٪ من أصل اشكنازى . ووصلت نسبتها فى عام ١٩٧٤ إلى ما يقرب من ٥٠٪ من المجموع الكلى للسكان اليهود فى إسرائيل وذلك بسبب انخفاض معدلات الهجرة . ووصلت نسبتها فى إحصاء (٢٠٠٢) إلى ٦٣٪.

٤ ـ مجموعة اليهود الروس:

بدأت الموجة الأولى للمهاجرين المتحدثين بالروسية اعتبارا من عام ١٩٦٦، ثم تطورت إلى موجة هجرة جماعية اعتبارا من عام ١٩٧١، وخلال السنوات ١٩٧٨ ـ ١٩٨٩ هاجر من الاتحاد السوفييتى سابقا حوالى ٢١٥ ألف يهودى، وصل منهم إلى إسرائيل ٥٧ ألف فقط بينما اتجه الباقون إلى أمريكا وكندا واستراليا، واعتبارا من عام ١٩٨٩، وفى فترة قصيرة نسبيا وصل إلى إسرائيل حوالى ٧٢٠ ألف يهودى من أرجاء دول الاتحاد السوفييتى، وقد وصل عددهم فى عام ٢٠٠٠ إلى حوالى مليون يهودى من ذوى الثقافة الروسية، وأصبح لهم حزب سياسى يمثلهم هو حزب «يسرائيل بعليا» الذى شكل عام ١٩٩٦، وهم محسوبون على اليهود الإشكنازيم.

٥ ـ مجموعة يهود الفلاشا (الأثيوبيين) :

تم جلبهم إلى إسرائيل فى عدة موجات من العمليات السرية والعلنية اعتبارا من عام ١٩٧٧ (كان قد وصل خلال الخمسينات حوالى ٣٠٠ يهودى أثيوبى) حيث تم إحضار ستة آلاف منهم، وفى نطاق «عملية موسى» (١٩٨٤ ـ ١٩٨٥) تم إحضار سبعة آلاف منهم عن طريق السودان، وكان قد هاجر بطرق مختلفة حوالى ١١ ألف، وفى نطاق عملية «سليمان» (١٩٩١) تم جلب ١٤٣٠٠ مهاجر يهودى أثيوبى، وبلغ عددهم فى عام ٢٠٠٢ حوالى ٦٠ ألف.

من يمثل الشخصية اليهودية الإسرائيلية :

يعتبر هذا السؤال ، فى الواقع ، من أعقد الاسئلة التى تواجه من يتصدى لدراسة الشخصية الاسرائيلية . ولكننا إذا طبقنا قوانين الجنسية المتبعة فى العالم فإن الإسرائيلى ، وفقا لهذه القوانين ، يكون هو الشخص الذى يحمل بطاقة هوية إسرائيلية بما ينطوى عليه هذا الأمر من حقوق وواجبات تربط الإسرائيلى بسائر الإسرائيليين بنظام الدولة التى يعيش فيها . وهنا يكمن الفارق بين تعريف اليهودى الذى يرتبط بالإيمان الدينى من ناحية ، وبالحياة داخل إطار «الجيتو» من ناحية أخرى ، وتعريف «الصهيونى» الذى يؤمن بحق اليهود

فى إقامة دولة يهودية فى فلسطين ويعمل من أجل تحقيقه ، وتعـريف الإسـرائيلى «الذى يرتبط باطار اقليـمى للوجـود اليهودى محدد ببلد ، ولغة ، واطار اجتماعى مستقل . ولمزيد من الايضـاح ، يمكن القول ، بأن كلمة «اسرائيل» كدولة تميز طابع وجود يهودى شـامل ، من الممكن أن يكون فيه العنصر الدينى موجودا ومن الممكن أيضـا ألا يكون موجوداً ، كما أن عنصر الصراع فيـه ليس بين يهـود وغـير يـهود من أجل الاندماج أو الفرادة القومية ، كما كان الحـال ، بالنسبة ليهود الجيتو فى عصر التنوير اليهودى (الهسكلاه) ، بل بين يهود وأنفسـهم داخل إطار تاريخى فى أرض محـددة ، واللغـة والواقع الاجتمـاعى اليـهودى الشـامل ، واحسـاس السـيادة الذاتيـة التى تتـداخل كلهـا فى نسـيج واحـد يصـعب على الإسرائيلى أن يغادره ، لأن مغادرته تعنى شيئاً واحداً هو التخلى عن هويته الإسرائيلية والعودة إلى هويته اليهودية التى تتيح له ، كمـا كان فى السـابق ، التحـرك فى أرجـاء العـالم بحرية دون هوية محددة .

ولكننا نود أن ننوه ، فى هـذا الصـدد ، إلى أن التـصـور الصهيونى للجنسية الإسرائيلية يدمج ما بين الانتماء اليهودى والانتمـاء الإسـرائيلى . وقد صـرح أكثـر من ناطق بلسـان إسرائيل ، وبصـفة خاصة الرئيس الأول لحكومتها دافيد بن

جوريون ، فى مناسبات شتى، أن دولة إسرائيل هى أداة لتحقيق أفكار الحركة القومية اليهودية ، وأن مصالح إسرائيل يجب أن تكون مرتبطة بمصالح اليهود فى العالم .

ويختلف هذا التصور الصهيونى ، مثلا ، مع تصور مجموعة من الإسرائيليين يطلق عليهم «الكنعانيين» أو «العبرانيين الشبان» (٣٤) ، وهم الذين يذكرون أن الجنسية الاسرائيلية ليست مرتبطة بالتصور الصهيونى ، ويطابقون بين الجنسية وبين المواطنة الإسرائيلية . وهذا الموقف ليس نتاج صهيونية متطرفة ، بمقتضاها يترك اليهودى الذى لا يقيم فى اسرائيل يهوديته ، بل على العكس من ذلك ، فإن هذه الجماعة ترفض كلية أن يكون هناك انتماء يهودى ، وفى رأيهم أن الأمة التى تتشكل فى إسرائيل ، ليست نتيجة لما يسمى «الشعب اليهودى» ، أو نتيجة لتحقيق أهداف الحركة القومية ، وإنما هى أمة جديدة نشأت فى ظل واقع جديد مختلف تماما عن الواقع اليهودى التاريخى التقليدى .

وإذا انتقلنا بعد ذلك إلى محاولة تعريف من يمثل «الشخصية اليهودية الإسرائيلية » وجدنا أن محاولة تطبيق معايير الانتماء الجغرافى والدينى واللغوى على تحديد ماهية هذه الشخصية نصطدم ببعض العوامل التى تحول دون الأخذ بهذه المعايير كأساس لتعريفها .

إن وحدة العامل الجغرافى واللغوى وحتى الدينى بالنسبة لظروف تكوين المجتمع الإسرائيلى لا يمكن أن تؤدى إلى أى تشابه فى التكوين السيكولوجى للشخصية اليهودية الإسرائيلية ، نظراً لأن سكان اسرائيل يحملون تواريخ حضارية واجتماعية ونفسية تتعدد بتعدد مجتمعاتهم الأصلية بسبب مشكلة تعدد الأصول الحضارية ، أو ما يعرف بمشكلة الاختلافات العرقية التى تعد من أهم المشكلات التى تواجه الكيان الإسرائيلى .

وهذا التنوع فى الأصول الحضارية والثقافية للمجتمع الإسرائيلى يجعل من العسير على الباحث وضع تعريف دقيق محدد للشخصية اليهودية الإسرائيلية . وقد عبر شمعون بيرز زعيم حزب العمل الإسرائيلى ورئيس وزراء إسرائيل السابق عن هذه المعضلة بقوله :

«إن المجتمع الإسرائيلى ربما كان فى بداية تكوينه مجتمعا متجانساً ، وذلك لأن مصادر الهجرة إليه كانت من مناطق ذات طبيعة وظروف اجتماعية واقتصادية متشابهة . ولكنه أصبح الأن مجتمعا متعدد الأبعاد ومتنوعاً ، ومعقداً بصورة حية . لقد اصطدمت فيه الأشكال والشعارات واللغات التى لم يكن من السهل تسويتها بصورة متبادلة » (٢٥) .

وعند هذا الحد نطرح السؤال التالى : هل يمكن التحدث عن شخصية يهودية إسرائيلية واحدة فى إطار هذا التباين والتنوع فى الأصول الحضارية والثقافية للتنويعات الثقافية والإثنية لسكان إسرائيل الذين وفدوا من ٧٠ دولة ، وفى إطار التباين والاختلاف فى أساليب التنشئة الاجتماعية بين كل من السفارديم والاشكنازيم والصباريم واليهود الروس واليهود الأثيوبيين؟

إن الإجابة على هذا السؤال هى بالقطع بالنفى . فكما أنه لا يمكن وضع تعريف محدد للصهيونية فى مواجهة الحشد الهائل من تيارات الفكر الصهيونى التى تشمل ، كما ذكرنا من قبل ، تعدداً هائلاً من الرؤى لتحقيق أهداف الصهيونية ، فإنه لا يمكن التحدث عن شخصية يهودية إسرائيلية واحدة : إننا يمكننا التحدث عن شخصية يهودية سفاردية عامة تتضمن بداخلها قدراً هائلاً من التقسيمات وفقاً للبلد الأصلى الذى ينتمى إليه المهاجر اليهودى حضارياً (اليهود العراقيون، واليهود اليمنيون ، واليهود المصريون ، واليهود المغاربة والإيرانيون... الخ) ، كما يمكننا التحدث عن شخصية يهودية اشكنازية تمثل يهود غرب وشرق أوروبا ، وهم منشئو الحركة الصهيونية ومؤسسو دولة اسرائيل ، والقائمون على حكمها منذ انشائها حتى الآن ، وممثلو الصفوة المتغلغلة

والمسيطرة على شتى القطاعات الحاكمة فى إسرائيل (الجيش – التعليم – الإعلام – الكيبوتس – الثقافة ...) ، كما يمكننا التحدث عن شخصية صبارية تمثل الامتداد الطائفى والحضارى والعمرانى لطائفة الاشكنازيم ، وتمثل وفق التصور الإسرائيلى التجسيد الحى للوطنية الإسرائيلية ، والرصيد الحى لضمان الانتماء الإسرائيلى للحضارة الغربية ، وانفصالها عن حضارة الشرق العربى ، والتدعيم الحى للهوية الإسرائيلية الموحدة المنسجمة فى آرائها ، ومواقفها وخصائصها واتجاهاتها السيكولوجية .

ومرة أخرى يصبح السؤال المطروح : مَنْ من هذه الانماط السكانية فى إسرائيل يعتبر أكثر تجسيداً وتعبيراً عن الشخصية اليهودية الإسرائيلية النمطية فى داخل النسيج المتنوع للمجتمع الإسرائيلى ؟ .

إن الإجابة على هذا السؤال ، فى حقيقة الأمر ، يمكن ألا تشكل معضلة لمن يتصدى له ، إذا ما أخذ فى الاعتبار الظروف التاريخية لنشأة المجتمع الإسرائيلى ، ومَنْ من هذه الأنماط له اليد الطولى والسيطرة الكاملة على أدوات التنشئة الاجتماعية ، وعلى أدوات الصياغة والتوجيه العقائدى والسيكولوجى داخل المجتمع .

إننا على سبيل المثال ، لا يمكن أن نقول أن السفارديم هم الأجدر بأن يمثلوا الشخصية اليهودية الإسرائيلية وذلك للأسباب التالية :

١ - بالرغم من أن الهجرة الإجمالية ليهود العالم العربى والإسلامى إلى إسرائيل فى نهاية الأربعينات وبداية الخمسينات ، أحدثت خللاً فى التوازن السكانى داخلها حيث «تناقص عدد اليهود الذين من أصل «اشكنازى» من ٥٥٪ من المجموع الكلى فى عام ١٩٤٨ ، إلى ٣٠٪ فى عام ١٩٦٧ ، بينما يشكل اليهود «الاشكنازيم» نسبة ٩٠٪ من مجموع يهود العالم ، وزاد عدد اليهود «السفارديم» (يهود الشرق) من نسبة ١٠٪ فى عام ١٩٤٨ ، إلى ٣٠٪ فى عام ١٩٦٧ ، إلى ٦٠٪ فى عام ١٩٨٠ ، بينما يشكل يهود الشرق نسبة ١٠٪ فقط من مجموع يهود العالم (٢٦) ، إلا أن هؤلاء اليهود السفارديم لم يقوموا بدور يذكر فى الحركة الصهيونية ، ولم يساهموا فى نشأة الاستيطان الصهيونى فى فلسطين ، ولم يساهموا فى جهود إقامة الدولة اليهودية ، ولا فى حرب ١٩٤٨ (مع مالها من أهمية فى تثبيت دعائم الوجود الصهيونى على أرض فلسطين) ، إلا بقدر ضئيل للغاية لا يكاد يحسب لهم على الاطلاق فى نظر اليهود الاشكنازيم .

٢ – إن هؤلاء السفارديم كانت ميولهم من النوع الدينى التقليدى الذى ساد – ولو مع تغييرات معينة – بين الطوائف اليهودية فى العصور الوسطى . وحتى حينما احتكوا فى بلادهم الأصلية باتجاهات التحديث ، أيا كانت ، فإن تأثير هذه الاتجاهات عليهم انحصر ، بالذات ، فى زيادة الانتماء التقليدى ، وهكذا فإن هجرة يهود الشرق إلى اسرائيل لم تحدث انعزالاً عن البناء الاجتماعى والثقافى التقليدى الخاص بهم . لقد جاءوا إلى إسرائيل بأمل أن يستطيعوا ممارسة حياة كاملة وآمنة وفقاً لطريقتهم الخاصة ، ولم يأملوا فى أى تغير متطرف، لأنهم لم يكونوا على استعداد لأن يغيروا ، عن وعى ، البناء الاقتصادى والتشغيلى الخاص بهم ، ولا الأسس الرئيسة لحياتهم الاجتماعية والثقافية ووعيهم اليهودى الدينى وفقاً للتقاليد الدينية اليهودية. (٢٧) .

إن اليهودى المصرى أو العراقى عندما كان يعيش فى وطنه كان يطلق عليه اسم يهودى ، وبالتالى كانت يهوديته جزءاً من شعوره بالذات ، ولكنه عندما ذهب إلى إسرائيل أطلقوا عليه هناك أسم المصرى أو العراقى ، وبالتالى أصبحت عراقيته أو مصريته جزءاً من إحساسه بذاته وبيهوديته ، وهذا جعله يحرص على الاحتفاظ بالعلاقات الاجتماعية والثقافية مع اليهود الآخرين الذين أتوا من مصر

أو العراق ، بينما فقدت اليهودية دورها كأداة للتماسك الاجتماعى . (٢٨) أو على حد قول الكاتب اليهودى فينجرود : «إذا كان هؤلاء المهاجرون يهوداً فى المغرب ، فإنهم أصبحوا فى إسرائيل مغربيين» . (٢٩) .

ومن هنا فإن اليهودى السفاردى أصبح يتميز فى نظر الاشكنازيم بالصفات التالية :

١ ـ المستوى الثقافى والحضارى المنخفض .

٢ ـ غلبة المهن اليدوية أو ما فى حكم اليدوية .

٣ ـ انخفاض المستوى الاقتصادى .

٤ ـ الطابع الدينى والتعصب الايديولوجى (وخاصة فى مواجهة التعامل مع العرب) .

٥ ـ العزلة السياسية . (٣٠) .

٦ ـ كاذب ، مخادع ، كسول ، لا يتحكم فى أعصابه ويؤمن بالخرافات ، طفولى النزعة ، قذر بصفة عامة وناقص الثقافة . (٣١) .

٣ – إن اليهود الاشكنازيم ينظرون إلى اليهود السفارديم باعتبارهم مواطنين من الدرجة الثانية ، حيث يشيع اصطلاح «إسرائيل الثانية» اشارة إلى مجتمع يهود الشرق منذ عام ١٩٥٩ .

ويعلق على ذلك ميشيل سلزر، فى كتابه «إسرائيل دولة آرية» : «لقد نشأ فى إسرائيل موقف فريد . فبينما لا توجد فى إسرائيل تفرقة بحكم القانون ، فإن أقلية عرقية تتمتع بدرجة من القوة والنفوذ إلى الحد الذى يجعلها تضع قيمها وأساليبها باعتبارها القاعدة ، وأن تنظر بعين الاحتقار إلى الأغلبية العرقية» (٣٢) .

وتتجسد هذه النظرة العنصرية في تأكيدات زعماء دولة إسرائيل ذوى الأصل الاشكنازى على الانتماء الأوروبى لإسرائيل . لقد صرح بنحاس سابير وزير مالية إسرائيل لجريدة لوموند الفرنسية فى ٩ مارس ١٩٦٦ ، فى معرض حديثه عن طلب إسرائيل الانضمام للسوق الأوروبية المشتركة بقوله : «إننا معشر الاشكنازيم نعتبر النموذج لإسرائيل . إن اسرائيل تنتمى لأوروبا – ثقافياً وسياسياً واقتصادياً بالرغم من وجودها فى الشرق الأوسط جغرافياً » (٣٣) ونظراً لأن الاشكنازيم يعتبرون أن المستوى الثقافى للسفارديم لا يؤهلهم لأن يصونوا الانتماء الاوروبى لإسرائيل ، فإن الاحتقار لكل ما هو متصل بالشرق اوللثقافة اليهودية الشرقية ، أصبح أحد المراسى العرقية لليهودية الاشكنازية ، وهكذا فإن الاشكنازيم يخشون على الطابع الغربى الذى ميز الحركة الصهيونية منذ بدايتها ، ويخشون من فقدان الوجه الغربى

الحضارى للدولة ، بسبب ازدياد نسبة اليهود السفارديم فى إسرائيل ، ويحرصون على إقصائهم عن كافة المناصب المؤثرة فى الدولة فى كافة القطاعات (السياسية الخارجية – التعليم – الإعلام – الجيش ...) .

٤ – بالرغم من الدور المتصاعد للسفارديم فى إسرائيل من حيث الثقل العددى النسبى الذى يشكلونه فى العملية الانتخابية ، منذ عام ١٩٧٧ ، حينما تحولوا من التصويت «للمعراخ» (التشكيل العمالى) إلى التصويت لصالح اليمين المتطرف الذى يمثله حزب (ليكود) وأتاحوا الفرصة لليمين الإسرائيلى لأن يتولى الحكم فى إسرائيل لأول مرة فى تاريخ الحركة الصهيونية وتاريخ إسرائيل ، ولفترتين متتاليتين (انتخابات ١٩٧٧ وانتخابات ١٩٨١ وأعطوا الليكود ٧٣٪ من أصواتهم فى انتخابات يوليو ١٩٨٤ وفى انتخابات ١٩٩٩ التى أتت بشارون للحكم) ، وهو الأمر الذى يهدد الحياة السياسية فى إسرائيل بالتحول إلى نمط طائفى ، إلا أن هذا الثقل لازال حتى الآن يفتقد إلى الكثير من عناصر القوة المساندة له ، ويحتاج إلى وقت طويل فى إسرائيل (وإن كانت مؤشراته قد أصبحت واضحة بعض الشىء اعتبارا من انتخابات الكنيست الحادى عشر فى يوليو ١٩٨٤ بتوزع أصوات السفارديم بين حزب ليكود والأحزاب الدينية) .

٥ – لقد ترتب على الظروف التى غادر بها اليهود البلاد العربية فى إطار من التضخيم الإعلامى الصهيونى للكراهية العربية لهؤلاء اليهود من ناحية ، واستغلال الدعاية الإسرائيلية ، لعدم وجود خطة استراتيجية عربية واضحة بشأن مستقبل اليهود فى المنطقة ، من ناحية أخرى ، ترتب على هذه الظروف أن تولد الإحساس لدى اليهود «السفارديم» بأن الاختيار المفروض عليهم هو بين الاندماج فى المجتمع الإسرائيلى وقبول قيمه ومفاهيمه كما هى ، أو الذبح والطرد على أيدى العرب ، فى حالة انتصارهم على اسرائيل ، «كذلك فإن هؤلاء السفارديم أكثر استعداداً لقبول النظرة الفاشية والتى تجعل من العرب الفلسطينيين ، والعرب عموماً كبش فداء سهل بسبب تدنى الوعى السياسى والتعليمى بينهم . وقد قدم لهم عدد من العناصر الديماجوجية فى إسرائيل ابتداء من مناحم بيجن وشارون وانتهاء بالحاخام عوفاديا يوسف كبش فداء سهل ، وهو أن يصبوا جام غضبهم واحباطهم على الفلسطينيين .

ومن هنا فقد أصبح من الشائع والمعروف أن السلوك السفاردى يجسد الحقد العميق على العرب ، وأنهم أكثر من كافة الإسرائيليين شوفونية وتزمتاً وحباً للحرب ، وتجسيداً للروح العدوانية الإسرائيلية ، وأشرسهم مساندة لمبدأ ضم

الأراضى العربية المحتلة ، وقد رددوا أكثر من مرة بأنهم أتوا بمناحم بيجن للسلطة فى إسرائيل فى مايو ١٩٧٧ ، لأن هذا الرجل السياسى كان ولا يزال هو وجيله من قيادات الليكود يجسدون العداء للعرب بأشد ما يكون التصلب والعناد، إلا أن الاشكنازيم ينظرون إليهم ، بالرغم من هذا ، باعتبارهم إسفين الحضارة العربية المتخلفة المزروع داخل المجتمع الإسرائيلى ، وأنهم سيكونون ، فى حالة حدوث سلام مع العرب ، أقدر الفئات الإسرائيلية قدرة على فهم العرب والتعايش معهم : «فاليهودى السفاردى يتحدث العربية مثل العرب ، ويمارس الكثير من العادات مثلهم ، وهو فى العادة يشبه العربى» (٣٤) .

ويرى الاشكنازيم أن هذا الأمر يهدد أساس الوجود الإسرائيلى كدولة تعتبر امتداداً طبيعياً للحضارة الغربية ، وأن وجودها الجغرافى فى الشرق الأوسط يعنى أكثر من أن هذه البقعة هى مركز تنفيذ المخططات الاستيطانية الصهيونية التوسعية المرتبطة بالامبريالية الغربية .

ولهذا فإن الاشكنازيم تجنباً لحدوث مثل هذا التحول فى موقف يهود الشرق تجاه البلاد العربية يسعون دائما لتأجيج العداء النفسى فى قلوب السفارديم تجاه العرب ، كما يسعون إلى إجراءات كثيرة للحيلولة دون حدوث إختلال فى موازين

القوى داخل اسرائيل لصالح اليهود السفارديم بوسائل عديدة : (تشجيع الهجرة اليهودية من بلدان شرق أوروبا لإحداث توازن ديموجرافى مستمر - ضمان السيطرة الاشكنازية الدائمة على مقاليد السلطة وأدوات التوجيه والتنشئة الاجتماعية والسيكولوجية - الحيلولة دون وصول عناصر من السفارديم لمراكز القوة - محاولة دمج السفارديم فى دائرة القيم الحضارية الغربية المعبرة عن الاشكنازيم).(٣٥) .

هذه هى الأسباب التى تجعل ، كما ذكرنا ، من العسير ، تقديم النمط السفاردى فى إسرائيل كممثل للشخصية اليهودية الإسرائيلية، وينطبق الأمر نفسه على مجموعة اليهود الروس ويهود الفلاشا.

ويبقى أمامنا أن نتعامل مع النمطين الاشكنازى والصبارى باعتبارهما الممثلين الحقيقيين للشخصية الإسرائيلية حتى الآن ، على الأقل .

ولكن ما هى الظروف والملابسات التى تجعل النمط الاشكنازى داخل إسرائيل هو أحد الانماط الممثلة للشخصية الاسرائيلية ؟

يمكن إجمال هذه الظروف والملابسات فى العوامل التالية :

١ - أن اليـهـود الاشكنازيم هـم واضـعـو أسس الفكر والحركة الصهيونية ، وقادتها أشد ارتباطا بظروف حياة اليهود فى شرق وغرب أوروبا خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، ومن هنا فإن الهجرات الصهيونية التى كونت الاستيطان الصهيونى فى فلسطين اعتباراً من عام ١٨٨١ (الهجرة الأولى) وحتى عام ١٩٤٨ (الهجرة الخامسة) خرجت فى معظمها (٩٠٪ من المهاجرين اليهود) من شرق أوروبا وغربها ومن أمريكا . ومن هنا أيضا، فإن اليهود الاشكنازيم هم الذين أسسوا الدولة اليهودية فى فلسطين ، والقائمون على حكمها منذ انشائها (١٩٤٨) وحتى الآن . (٣٦) .

وفى الحقيقة فإنه لمزيد من الدقة ، ينبغى أن نحدد أن القائمين على حكم إسرائيل منذ إنشائها حتى الآن هم يهود شرق أوروبا (روسيا وبولندا) بالتحديد، وهم الطائفة اليهودية المشهورة بتعصبها العقائدى، وعنصريتها الزائدة، وبالعنجهية اليهودية والقومية المعقدة وعدم التسامح.

٢ ـ أن الهجرة اليهودية من بلدان العالمين العربى والإسلامى قد استنفذت تماما، لأنها تمت فى اطار خروج جماعى لليهود فى خلال السنوات الأولى من قيام الدولة، ومن هنا فإن المخزون الرئيسى للهجرة اليهودية المحتملة إلى

اسرائيل مازال موجودا فى غالبيته العظمى، فى بلدان شرق أوروبا، وفى روسيا بالذات، وهو المخزون الذى تعتمد عليه اسرائيل لإحداث التوازن الديموجرافى بين السفارديم (بسبب ازدياد معدل الزيادة الطبيعية بينهم) من ناحية، والاشكنازيم والصباريم، من ناحية أخرى.

٣ - أن الإشكنازيم يحتلون قمة الهرم الاقتصادى الاجتماعى فى اسرائيل، وهم الذين يسيطرون على كل مراكز القوة السياسية والاقتصادية والعسكرية والايديولوجية فى إسرائيل (مراكز السلطة - الأحزاب السياسية - الهستدورت - الكيبوتس (المستعمرة الاشتراكية) - الموشاف (المستعمرة التعاونية) - جيش الدفاع الإسرائيلى - الصحافة والإعلام - التعليم والثقافة - أساليب التنشئة الاجتماعية) بحيث يرتبط كل ماهو متصل بتاريخ إسرائيل وثقافتها وتراثها، بتاريخ وثقافة وتراث اليهود الإشكنازيم فى أوروبا الشرقية والغربية، وبحيث يسود الطابع الحضارى الغربى دولة إسرائيل باعتبار أن بناتها الأساسيين ينتمون الى هذا الطابع الحضارى الغربى، ويحرصون على استمراره داخل اسرائيل بالرغم من موقعها الجغرافى فى الشرق الأوسط.

الصباريم : Sabarim

أما بالنسبة «للصباريم» Sabarim أو السابرا Sabra

كما يطلقون عليهم فى المراجع الأوربية، فهم بمثابة الأبناء الحقيقيين، والورثة الشرعيين، والامتداد الحضارى بكل ما تعنيه هذه الكلمة بالنسبة للاشكنازيم، أو الصفوة الإسرائيلية أو كما يسمونهم أيضا «الفتيقيم» أى «القدامى المحنكون» «٣٧». كما يحلوا للاشكنازيم أن يطلقوه على أنفسهم ضمن سلسلة التعبيرات العبرية ذات المضمون الأيديولوجى أو الاجتماعى، التى تعم عالم الإحياء القومى اليهودى على أرض فلسطين. والآن من هم هؤلاء «الصباريم»؟. يقول الكاتب الإسرائيلى عاموس ايلون :

تصور إسرائيل بلغة الكاريكاتور المختزلة بشخصيتين معروفتين، إحداهما شخصية اليهودى العجوز المحدودب الظهر المعذب الذى يرمز الى القوة والضعف فى وقت واحد، والى العزم والإنهاك فى إنسان العالم المعاصر الذى رأى الكثير ويذكر كل شىء.. والشخصية الأخرى، هى شخصية فتى جامح، يفيض حيوية، ويرتدى بنطلونا قصيرا من الكاكى، وينتعل صندلا مفتوحا. إنه شخصية المزعج الذى تختلط طفولته بنوع من المكر، يجمع بين الحيوية والاستعداد، ويمتلك قوة لم تكبح ولم تدرب، وقد وضع على رأسه قبعة «تمبل» «٣٨» تكسب لابسها مظهر الحماقة.

الشخصية الأولى تمثل الجد – اليهودى التائه ، المضطهد،

وتمثل من الناحية التاريخية – الصهيوني التقليدى ، وتمثل للكيان الصهيوني القوة الأصلية التي تقف وراء حركة إعادة اليهود من أرض شتاتهم الى فلسطين، حيث يأملون أن يجدوا هناك الأمن والراحة، وتمثل كذلك مشاعر الأسلاف العميقة، ولكن دون مستقبل مؤكد .

والشخصية الثانية هي من نواح معينة رد فعل للأولى، أنها تمثل مواليد البلاد (الصباريم). تمثل اليهودى الذى يجهل الماضى، أوغيرحريص عليه، جنسا متمسكا بالحاضر، يعيش كل لحظة فى حماس، ويقظ وعملى. «وغير معقد». اسرائيليا جديدا تماما «٣٩»، أو بصورة أخرى هو الامتداد لشخصية «العبرى الجديد» الذى روجت له الصهيونية من خلال فكر وأيديولوجية «الهجرة الثانية» .

وعلى الرغم من أن الكتابات السكانية الإسرائيلية فى تصنيفاتها لسكان التجمع الإسرائيلى تعترف بالفروق العرقية بين يهود فلسطين والمهاجرين، فإنها تحاول إنكار وجود مثل تلك الفروق بين الأبناء المولودين فى فلسطين، وذلك بوضعهم جميعا تحت عنوان «الصباريم» أو Sabra، ويتسق ذلك مع حديث علماء الاجتماع وعلم النفس الإسرائيليين عن «الصباريم» ككتلة واحدة منسقة فى خصائصها النفسية والاجتماعية الموحدة. ومثل ذلك الموقف يعنى تجاهلا تاما

لحقيقة أن أساليب التنشئة الاجتماعية (طرق تربية الأطفال) التى يمارسها المهاجرون تتابين تبعا للأصول الحضارية للوافدين « ٤٠ » وهذه الحقيقة تزداد وضوحا اذا عرفنا أن نسبة «الصباريم» الذى هم من أصل شرقى الى الذين هم من أصل غربى كانت على الأقل ٧ : ٣، وذلك وفق إحصاء عام ١٩٦٢. وإذا أخذنا فى الاعتبار معدل المواليد وارتفاع نسبة الخصوبة عند المرأة التى هى من أصل آسيوى افريقى عن معدل المرأة التى هى من أصل أوروبى « ٤١ »، مع نضوب تيار الهجرة الأوربية فى السنوات الأخيرة، فإن التوازن لاشك من أنه سيتحرك لمصلحة «السفارديم» بمعدل واضح داخل اطار هذه المجموعة من سكان إسرائيل. ومن هنا كانت محاولات الاشكنازيم من أجل الحيلولة دون ذلك، بالطرق التى أشرنا من قبل، واحداث انفصال بين من تربوا فى ظل التقاليد الشرقية البالية، وبين من يتربون فى ظل معتقدات الحضارة الغربية من ابناء الاشكنازيم .

إن إصطلاح «الصبار» أو Sabra يكاد يكون قاصرا فى الاستعمال على اليهود الاشكنازيم، بينما يطلق على «الصباريم» من أبناء السفارديم إسم «يليدى ها آرتس» أى «أبناء البلد» تمييزا لهم عن «الصباريم» بالمفهوم الثقافى والحضارى الغربى. والاستقراء الدقيق للكتابات الإسرائيلية

فى هذا الصدد يكشف عن أن الحديث عن «الصباريم» إنما ينصب عمليا ورغم كل التصرفات على أولئك المنتمين الى أصول اشكنازية فحسب .

وقد أوضح الأديب الإسرائيلى شمعون بلاس، وهو يهودى من أصل عراقى، لم يكتب بالعبرية الا بعد هجرته الى اسرائيل، بعد عام ١٩٤٨، مفهوم «الصبار» بقوله : «إن اصطلاح «الصبار» لا يتعلق بأبناء الطوائف الشرقية وذلك لكونه تسمية اشكنازية. إن هذا الصبار هو تجسيد «للإسرائيلى الجميل»، بينما ابن الطوائف الشرقية هو تجسيد «لليهودى القبيح» - الذى هو جزء من الشرق، والذى ينبغى التصرف معه بازدراء - اذن فاصطلاح «الصبار» باستخدامه الشائع، هو «اصطلاح مشحون» ولا يميز مكان الولادة، إنه اصطلاح يستثنى أبناء الطوائف الشرقية الذين ولدوا هنا، ويضم فى ثناياه الأطفال الذين ولدوا فى أوروبا وفى أمريكا وتلقوا تعليمهم هنا . إن «الصبار» يمثل نموذجا ولا يمثل مخلوقا إستاتيكيا. إن معظم «أبناء البلد ليسوا «صباريم كلاسيكيين» «٤٢» .

ويقول جورج مايكس فى كتابه «عزم النبى: اسرائيل اليوم وغدا»، فى معرض حديثه عن «الصباريم»: «إن الأطفال الستة أو السبعة الذين أنجبتهم أسرة مغربية مثلا، والذين ولدوا

بالفعل فى اسرائيل، ولكنهم تربوا فى ظل التقاليد الشرقية البالية، مثل هؤلاء الأطفال بعيدون عن السابرا بعد موشى ديان عن القرآن».

وهكذا فإن «الصبار» الذى كان، تعبيرا استنكاريا على ألسنة رجال الهجرة الثانية والثالثة تجاه الفلاحين من أبناء فلسطين من اليهود «٤٤»، قد أصبح رمزا لجيل ثقافته هى فى أساسها ثقافة ذات أصول غربية، وتمثل امتدادا حضاريا وسياسيا وسيكولوجيا لجيل الإشكنازيم من «الفتيقيم».

إن «الصباريم» يحلون للمفكريم الصهاينة والإسرائيليين جزاء من مشكلة تعدد الأصول الحضارية بالنسبة للمجتمع الإسرائيلى، وذلك عن طريق خلق تكتل نما فى ظل ظروف نفسية واجتماعية وثقافية موحدة تخلق فى النهاية كتلة منسجمة لها مواقفها وآراءها وخصائصها واتجاهاتها، كتلة موحدة من المستوطنين الصهاينة التى لايستعصى تنافرها على التوحيد، كتلة يمكن من خلال تأكيد وجودها وتجانسها تدعيم مفهوم جديد عن الهوية الاسرائيلية، بعد أن قضت حجج العلوم الإنسانية، وحقائق الواقع الإسرائيلى نفسه على مقولة وحدة التاريخ القومى اليهودى، والتكوين السيكولوجى لليهود عامة. «٤٥» .

«ومن هنا، فإن تعبير «الصبار» إنما يخدم فى نهاية الأمر هدفا سياسيا صهيونيا، وهو الايهام بأن الصهر الاجتماعى لمختلف الأصول الحضارية لليهود قد تحقق فى إسرائيل، وتمثل فى جيل جديد هو جيل «الصباريم» الذى تتلاشى فيه تلك الفروق الحضارية (٤٦)، وهو جيل يضم قطاعا من الشباب الإسرائيلي يتميز بخصائص نفسية محددة متجانسة.

وقد أصبح ظهور هذه الشخصية العبرية الجديدة، أى «الصبار» مقرونا بتحقير توأمه، وهو فتى الجيتو. وقد ترجم رفض «الجيتو» فى الواقع الإسرائيلى إلى رفض اليهودى الجيتوى. وأصبحت شخصية رجل «الجيتو» مرفوضة، وتقترب فى حالات كثيرة من الشخصيات المعادية للسامية التقليدية. وفى التصور الذاتى نجد أن «الصبار» الكلاسيكى بعيد عن «اليهودى الجيتوى» . إنه يحتقر عجزه ويكره «جبنه». إنه يشعر أنه أقرب كثيرا من «الشعب السليم» فى جسده وروحه عن ذلك «اليهودى المعقد» فى الجيتو، كوصمة عار ليهود أوربا «الذين ساروا كالشاة الى المذبحة». وقد كتبت مارجليت بتاى وهربرت راسكول فى كتابهما «المليون الأول من الصباريم» (همليون هاريشون شل صباريم) يمتدحان الصبار بأنه «يشعر بالتفوق إزاء السائح اليهودى من خارج البلاد»، وأن

موقفه هذا متأثر من حقيقة أنه لايستطيع أن يفهم لماذا سمح ستة ملايين يهودى للنازيين أن يقتلوهم. «إن الصبار لا يستطيع أن يفهم لماذا ماتوا مستسلمين. إن هذا كابوس بالنسبة له، ووصمة عار بالنسبة لكرامته «٤٧» .

وقد عرض التصور الذاتى للصبار، فى مواجهة اليهودى الجيتوى، بواسطة دكتور ج. تامارين ود. بن تسفى فى بحث أجرى عام ١٩٦٩ . وقد كانت نتائج البحث الذى كان رائدا فى هذا المجال نتائج شاملة. إن «الصباريم» الذين طلب منهم تحديد ملامح الشخصية الصبارية قد وصفوا نموذجا مثاليا يتناسب مع الأسطورة. ووفقا لهذه الإجابات كانت صورة «الصبار» على النحو التالى:

المظهر الخارجى: طويل، له خصلة شعر على جبينه، قوى ومتين، أسود، ذو عينين لامعتين، شعره أصفر أو رمادى.

الملابس: بساطة لا مبالية، صندل ، بنطلون، قبعة تمبل.

الشخصية : فعال (يقظ وأحيانا هائج) ، عدوانى (عنيف، ومتمرد)، يفتقد الى الكياسة، متفاخر، متكبر، وطنى، ذو تأثير، خشن الطباع، مقبول وصاحب موقف، طيب القلب، جاد ومتزن، يقظ وعادل، حر، هادىء ريادى، لديه حاسة السخرية.

وفى مقابله ملامح اليهودى الجيتوى :

أحدب ونحيف، ذو نظرة غريبة، ضعيف ومتمارض، عيناه عصبيتان، لديه ضفائر سوداء وذقن، شاحب، وإذا كان بالغا تظهر عليه علامات الشيخوخة مثل الرعشة أو التجاعيد، ويرتدى ملابس تقليدية أوربية باهتة وبالية، وعلى رأسه قبعة أو طاقية، ومن حيث شخصيته فهو منغلق وغريب فى كل مكان، يستولى عليه الخوف والشك، يبتعد عن الناس، دينى تقليدى، متثاقل ويفتقد إلى اليقظة والنشاط، ليست لديه ثقة فى الذات، منحط، هادئ ، متواضع، صامت، خجول ومرتبك، يلتزم بالآداب ومنصاع، متكدر ولايستمتع بالمباهج، تظهر عليه آثار المشكلات، تلميذ مجتهد، يعمل فى الروحانيات ، جاد، بالغ روحيا.

والمرأة اليهودية «الجالوتية» (أى التى تعيش فى «الجالوت» وهو «المنفى» وفق المصطلح الصهيونى)، هى حدباء ونحيفة أو قصيرة وممتلئة، شعرها أسود، وعيناها عصبيتان سوداوان أو لامعتان، ونظرتها غريبة، وشاحبة(٤٨).

وقد كتب الأديب الإسرائيلى ايهود بن عيرز يقول : «إن الصبار يحتقر اللاجئين اليهود، والذين وصلوا الى فلسطين بعد أحداث النازية، أولئك الذين لايعرفون حتى العبرية،

وليست بنطلوناتهم مطوية. بل تتدلى حتى الركبة وسلوكهم يدل على الضعف ومتشبهون بالنساء».

وتعطى رواية شماى جولان «موت أورى بيلد» (موتو شل أورى بيلد) ، تعبيرا كاملا عن هذا التحديد: إن بطل الرواية اسمه اورى بيلد (سابقا : يوزاك كفرمان). وهاجر مثل المؤلف الى فلسطين كشاب لاجىء من أحداث النازية فى أوروبا، وكان لقاؤه مع المجتمع الصبارى لقاء مزدوج القيمة، حينما كانت الرغبة فى أن يكون شبيها بالمجتمع الجديد، مصحوبة بالمرارة ازاء العداء للفتى المختلف عنه. والكتاب ملىء باللقاءات القاسية بين المجتمع الإسرائيلى المحنك والمتمرس، وبين المهاجر القادم من هناك، من «الشتات» . والكلمات العنيفة يقذف بها فى وجه اورى – يوزاك – صديقه مينص، وهو صبار ابن صبار، وابن الاستيطان الصهيونى منذ خمسة أجيال.

«إن محاربى» حرب التحرير» «٤٩» ماتوا من أجلك، حتى تستطيع الأرض أن تستوعبكم أيها اللاجئون القادمون من سبعين منفى. لقد سفكنا دمنا من أجل هذه البلاد، وأنتم، أقول أنا لكم، لا تحولوها الى حظيرة خنازير بأعمال البيع والشراء الخنزيرية الجالوتية الخاصة بكم» «٥٠» .

«وفى عدد صحيفة «معاريف» الإسرائيلية الصادرة فى ٤ يناير ١٩٧٤، عبر أحد المواطنين الإسرائيليين عن استيائه لأنه يتحمل عبء الكيان اليهودى، ويقدم التضحيات من أجله، بينما لعب صهاينة الشتات دور المتفرجين المعجبين» «٥١» .

ويمتلىء أدب الأطفال الإسرائيلى بأوصاف كل من «الصبار» و«اليهودى الجيتوى»، حيث صورة «الصبار» الراقى و«الجيتوى» المنحط، وذلك بشكل أوضح وملموس أكثر. والخط العام لبناء الشخصية فى كتب الأطفال هذه هو، أن «الفتى الجيتوى» الضعيف والشاحب يصبح إنسانا راقيا عن طريق مرحلة الاندماج فى المجتمع «الصبارى» وحين يكتسب سلوكه. وعلى سبيل المثال، ففى كتاب ياما يما تشروبيتس وميرالوفا «صديقان خرجا الى الطريق» (شنى ريعيم يتسأوا لاديرخ» ، يظهر الفتى الشاحب من «الشتات» وصاحب «العقلية اليهودية»، بينما فى مواجهته يقف «الصبار» الرجولى وقد تحول كل منهما الى صديق للآخر، ويمر يعقوب دوشنيسكى بمرحلة تحول الى صبار خلال فترة وجيزة، وتتكرر صورة كهذه فى كتب كثيرة أخرى - مثل كتاب رفكاكيرن «روكى شموط» وكل هذه القصص تبدو وكأنها مكتوبة بقصد طيب، وبدافع من الرحمة على «الفتى اللاجىء»، وترى أن الحل الوحيد يكمن فى تحول الفتية الشاحبين والخجولين الى «صباريم» أصحاء ومتغطرسين.

وفى رواية عميرام اميتاى «حرب المستنقعات» (ملِحيميت هشلوليوت)، وفى قصة «نحن نساعدك» (آنوا نعزور ليخا). يعرض «الفتى الجيتوى» الكلاسيكى فى هذه الصورة: «شاحب الوجه، أصفر الشعر، يرتدى ملابس غريبة.. وله وجه مستدير مثل وجه طفل – لا أثر فيه للدم.. وشعره الأبيض الأصفر ممشط باعتناء على جبينه الأبيض الناعم، إنه باختصار، النقيض الكامل للمجتمع الصبارى الذى يستقبله بالسخرية المعتادة .

«بحياتى، إنه مضحك». إن الفتى «الجيتوى» ، «المنكمش والذى يرتعد كل جسده» لدى سماعه صوت طائرة فى السماء، يقيم علاقة صداقة فقط مع طفل واحد مثله، وهو أيضا طفل غريب بعض الشيء». وهو يود أن يتشبه بالمجتمع الصبارى، ويزعم الفتى اللاجيء أنه يجيد السباحة، ولكى يثبت ذلك فإنه يقفز الى داخل بركة ويكاد يغرق فيها . ويؤدى هذا الحادث فى النهاية الى هزة فى وسط المجتمع الصبارى.

وهكذا ، وبصورة متناقضة، ولدت شخصية «ابن البلاد» (بِن هاآرتس)، التى أملتها وجهة النظر التى نشأت فى «الشتات». وبكونه نقيضا «لليهودى الجيتوى»، وقد ظل هذا «الصبار» الأسطورى مرتبطا به على غرار العلاقة بين الموجب والسالب، ولابد من ذكر هذا، من أجل فهم تحطم الأسطورة

«الصبارية» فى المرحلة المعاصرة. إن الشخصية الصبارية الراقية لم تكن خلقا صباريا أصيلا، بل كانت ثمرة الواقع الخاص باليهودى فى «الشتات». إن «الصبار» الأسطورى هو نقيض اليهودى المنحط، ولكنه، كما فى الحياة، هو ايضا ابنه حبيبه. لقد رباه ورعاه الأب المنحط. والأب المنحط الذى يعلق آماله على ابن أحلامه، هو حالة مفهومة ومعترف بها. وقد جسد الشاعر الإسرائيلى اليمينى المتطرف أورى تسفى جرينبرج» فى قصيدة كتبها عام ١٩٢٨، مضمون حلم الآباء هذا :

شمس. شاطىء بحر. أمهات عبريات

أحضروا ابناءهم الى الشمس، الى البحر،

لكى تلوحهم الشمس، ولكى يصطبغ دمهم الذى شحب.

فى كل الحيتوات فى عالم الجوييم باللون الأحمر «٥٣».

وفى الأسطورة «الصبارية» يجب أن ينمو الصبار دون آباء، ودون أسرة، ودون سلسلة أنساب، لأن الآباء الذين انحدروا منهم هم نتاج ذلك «المنفى» (الجالوت) لقد ولد «الصبار» إذن، فى فراغ لا يمثل فيه الأب الشخصية التعليمية، وتقوم بهذا الدور الأنا المجردة، الكيبوتسية التى وضعت له كنموذج مثالى .

ويعرض الأدب العبرى الفلسطينى (٥٤) لجيل «البالماح» (سرايا الصاعقة)، والذى احتضن بحب وباخلاص «الصبار» الراقى، أبطاله «الصباريم» وكأنهم بدون آباء حقيقيين. ويمتلىء الأدب العبرى الفلسطينى بهذه النماذج، ولاسيما فى قصص ساميخ يزهار وموشيه شامير وأهارون ميجد وغيرهم، لدرجة أن هذه الشخصية الرجولية التى بلا جذور تغطى على النساء والفتيات اللائى يظهرن فى الأدب مثل ظلال الخلفية، حتى وإن كن يلعبن دورا رئيسا أحيانا فى حياة الأبطال، إلا أنهن فى ذاتهن يفتقدن الى الكينونة الذاتية» «٥٥».

وهكذا، يمكننا القول بأن شخصية «الصبار» تقدم مثالا فريدا عن الكيفية التى يمكن بها للأيديولوجيا أن توجه كل شىء فى حياة الإنسان، وأن تتدخل فى عمل الطبيعة وخصائصها فى نمو الكائن البشرى. فإذا كان هدف الأيديولوجيا هو التغيير، فإن الأيديولوجية الصهيونية ثم الأيدويولوجية الإسرائيلية، قد نجحت الى حد كبير فى تغيير شخصية اليهودى من «اليهودى الجيتوى» الى «اليهودى العدوانى» .

ويمكن القول بأن «الصباريم» متشابهون جميعا نفسيا وأخلاقيا فى ظل المحاولة التى لا تلين فى قولبة الجيل الجديد بقوالب المثل الصهيونية التى تتم قسرا، بحيث تحولوا جميعا

الى أنماط باردة عاطفيا وعدوانية، تحاول توكيد نفسها والشعور بحقيقتها بإظهار صفات بشرية، وانجاز مهمات استثنائية، دون أن يكونوا واعين بحقيقة كون شخصيتهم الإسبرطية خالية تماما من الإنسانية.

واذا كان التغيير يعنى القدرة بالنسبة «للصبار» على بناء برج بابل جديد بالمعنى التوراتي، او التغيير من يهودى مضطهد (بفتح الطاء) وراضخ إلى إسرائيلى شرس وعدوانى، فإن هذا التغيير قد حدث.

وفى هذا الصدد، لابد من الإشارة الى نوعين من الحقائق المدمرة للخصائص النفسية للشخصية «الصبارية» خاصة والإسرائيلية عامة.

النوع الأول : حقائق خارجية، لعل أهمها وجود شعب غير يهودى فى فلسطين، حيث اخفقت الأسطورة القائمة على علاقة اليهود بأرض اللبن والعسل فى ايجاد حق أخلاقى أو ملكية سلمية للبلاد، وكان رد الفعل الإسرائيلى على هذا الاخفاق هو الإرهاب والقتل والعدوانية المتواصلة.

والنوع الثانى من الحقائق متعلق بحياة الاسرائيلى ذاتها حيث عليه أن يقتل ويحتقر العواطف، ويعتمد على القوة والغزو ليجنى الأمان، ويعيش فى جيتو كبير، يعايش فيه انقساما قوميا بين «اشكنازى» و«سفاردى».

وهكذا، فإن الوضع الذى تعيش فيه الشخصية اليهودية الإسرائيلية، بشكل عام، هو وضع تتضارب وتصطرع فيه الحقائق المادية والنفسية والأخلاقية، وهى حقائق تشبه أثاثا ركم فوق بعضه بعضا فى غرفة ضيقة، وهو وضع يقترب فى تعريفه من وضع المحنة أكثر من تعريفه بأنه إعادة لخلق الذات، رغم كل محاولات الخلاص منه دون جدوى (٥٣).

وعلى ضوء ما تقدم، ورغم المحاذير الكثيرة والمآخذ، وفى مقدمتها لا تاريخية المجتمع الاسرائيلى، وتباين العناصر البشرية المكونة له، فإن هذه الدراسة ستتعامل مع النمط الاشكنازى الاسرائيلى بأجياله المختلفة التى تضم كلا من «المهاجرين الاشكنازيم» أو «الفيتقيم» و«الصباريم» على أنه الممثل للشخصية اليهودية الإسرائيلية. وبطبيعة الحال، وبحكم ان جيل «الصباريم» قد بدأ فى العقد الثالث من تاريخ دولة إسرائيل (اعتبارا من السبعينات) فى الصعود لتولى مسئوليات الحكم وتوجيه الأمور فى اسرائيل، فإن معظم التحليلات سوف تنصب عليه، وإن كان هذا لن يمنع من أن الجيل القديم الذى يسعى الى صهينة وتهويد «الصباريم» الاسرائيليين وقولبتهم فى اطار الانتماء اليهودى، سيتم تناوله فى اطار السمات ذات البعد التاريخى الراسخ فى تشكيل الوجدان العام والسمات السلوكية لدى «الصباريم» .

مراجع وهوامش
الفصل الثالث

١ – ليس المجال هنا فى هذا البحث مناقشة واستعراض الأبعاد الأخرى لنشأة الصهيونية السياسية وارتباطاتها بالقومية والاستعمار الاستيطانى والامبريالية.

٢ – يهو شوا ع. ا. ب : م. س . ذ، ص ٣٧ – ٤٠ .

٣ – شبل. فؤاد محمد: م. س. ذ، ص ٨٨ – ٩١ .

٤ – بدأت الهجرات الصهيونية الى فلسطين فى عام ١٨٨١ بين يهود شرق أوروبا، واستمرت حتى بداية الحرب العالمية الأولى فى عام ١٩١٤، حيث غادر بلدان شرق أوروبا واليونان ربع مليون يهودى من بين أربعة ملايين يهودى كانوا يقيمون فى هذه البلدان . وقد عبرت الغالبية العظمى من هؤلاء اليهود المحيط الأطلنطى الى العالم الجديد فى أمريكا، وذهب عدد كبير آخر إلى ألمانيا وانجلترا والنمسا ولم يذهب الى فسلطين الا بضعة آلاف فقط، لأن الحافز الرئيسى للهجرة كان السعى نحو ظروف حياة أفضل وتحسين أحوالهم المعيشية.

٥ – ربيع. حامد: م. س. ذ، ص ٦٢ .

٦ – كوهين. أهارون : إسرائيل والعالم العربى (بالعبرية)، ص ٤٠ .

٧ – ايزنتشادت، : ش. ن: م. س. ذ، ص ٩ .

٨ – ربيع . حامد: م. س. ذ. ص ٩ .

٩ – نفس المرجع .

١٠ – نيكيتنا . جالينا، دولة إسرائيل، خصائص التطور السياسى والاقتصادى ص ١٦٣ نقلا عن : ش. ن ايزننشادتن: استيعاب المهاجرين، ص ٢٨ .

١١ – جينور . بنى: ثغرات اجتماعية واقتصادية فى اسرائيل (بعاريم حفراتييم فكالكاييم بيسرائيل)، ص ٤٩ .

١٢ – كلمة «اشكناز» تعنى بالعبرية ألمانيا. وهى تطلق على كافة اليهود الذين ينحدرون من أصول ألمانية وفرنسية، والذين هاجروا الى بولندا وروسيا وشمال ووسط وشرق أوروبا بعد الحروب الصليبية، وذلك من قبيل اطلاق الجزء على الكل، ويمتد شمول التسمية لتطلق كذلك على يهود امريكا الشمالية والجنوبية.

١٣ – السفارديم: صيغة الجمع بالعبرية من الاصطلاح «سفاردى» نسبة الى «سفاراد (اسبانيا)، وهو اصطلاح يستخدم للإشارة الى اليهود الذين أقاموا فى أجزاء مختلفة من شمال افريقيا (المغرب – – تونس – الجزائر – ليبيا وتركيا وايران واليونان والبرتغال) .

١٤ ـ ترجانوك شموئيل: اسرائيل الثانية – المشكلة السفاردية، ص ١٧ – ١٨.

١٥ – هلال . علىّ الدين: تكوين اسرائيل، ص ٧٢ .

١٦ – م. سيكرون: الهجرة الى اسرائيل، ص ٢٨ – ٣١ .

١٧ – هلال. على الدين. م. س. ذ.

١٨ – م. سيكرون : م. س. ذ.

١٩ – راجع بالنسبة للاحصائيات .

١ – ايزنتشادت. ش. ن: م . س. ذ، ص ٥٣ – ٥٥ .

٢ – ربيع. حامد. النموذج الاسرائيلى. ص ٦٤ ، ٦٥ .

٣ – الاحصاء النظرى لإسرائيل، ١٩٦٥، ض ٢١.

٢٠ – الإحصاء النظرى لإسرائيل، ١٩٦٧، ص ٤٤ .

٢١ – جينور، بنى. م. س. ذ، ص ٥٠ .

٢٢ – الصباريم : صيغة الجمع العبرية من كلمة «صبّار» ، وهى كلمة عبرية

تعنى التين الشوكى. وقد أخذت هذه الكلمة شأن سائر الاصطلاحات الصهيونية مدلولا اجتماعيا فى الاستيطان الصهيونى قبل قيام دولة إسرائيل. وفى دولة اسرائيل بعد قيامها، يعنى بهذا المصطلح ذلك الجيل من اليهود الذى ولد أو تربى فى فلسطين قبل عام ١٩٤٨، أو فى دولة اسرائيل بعد قيامها، ومن هنا فإن الكلمة ليست ذات مدلول عمرى. وقد ارتبط استخدام هذا المصطلح بهذا المدلول الاجتماعى بواقعة المباريات التى كانت تجرى فى مدرسة هرتسليا الثانوية فى تل أبيب بين الطلبة اليهود الذين من أصل أوروبى وبين أقرانهم من اليهود من مواليد فلسطين حول الامساك بثمرات التين الشوكى وتقشيرها بالأيدى العارية. ونظرا لأن اليهود من مواليد فلسطين كانوا هم الفائزين دائما، فإن هذا التعبير لصق باليهود من مواليد فلسطين، ثم أصبح يطلق بعد ذلك على جيل كامل من اليهود الذين ولدوا على أرض فلسطين، أو تربوا فيها اعتبارا من عشرينات القرن العشرين. ومن الأجيال الأولى للصباريم موشيه ديان ويجال ألون وشمعون بيريز واسحق رابين.

٢٣ - هلال . على الدين: م. س. ذ، ص ٨٤ .

٢٤ - (الحركة الكنعانية) : حركة أسسها الشاعر العبرى يونان راطوش خلال الأربعينات من القرن العشرين نادت بضرورة تحرير العرب من إسلامهم، والعبرانيين من ديانتهم، وإقامة دولة علمانية واحدة فى كافة منطقة الهلال الخصيب يكون شعبها جماعيا بمعتقداته له لغة واحدة وثقافة واحدة دون فرق بين اليهود والعرب، وذلك بالعودة الى الاصل الثقافى العبرى القديم استنادا الى أن العرب سكان البلاد هم أحفاد اليهود القدماء، أجبروا على اعتناق الإسلام أو التحول لعرب ، لذلك يتوجب اعادتهم الى عبرانيتهم القديمة.

وهذه المجموعة من الشباب اليهود ترفض بإصرار أن تدخل فى نطاق الحياة الروحية والسياسية المعروفة فى إسرائيل . وهم يعلنون من خلال

منشوراتهم وجرائدهم «بمفاك» (فى النضال) و«آلف»، أنهم من الناحية البيولوجية أبناء وأحفاد تلك الطوائف اليهودية التى شتتت بإراداتها أو رغما عنها فى أنحاء العالم ويطلق عليهم اليهود، ولكنهم لا يشعرون بأنهم يهود. ليس فقط لأن الدين اليهودى بكل عاداته غريبا عن روحهم، بل لأن الجيل السابق جعله مكروها لديهم بحيث أنهم يشعرون بأن التاريخ اليهودى عبر ٢٥٠٠ سنة غير ملزم لهم بكل ما ينطوى عليه، كما أن الاتجاه القومى الذى عبرت عنه الصهيونية لا يشكل بالنسبة لهم أساسا لحياة حقيقية، لأنه يعكس واقع الجيتو اليهودى، ولأن .كلا من الصهيونية والدين اليهودى ينطلقان من كون اليهود شعبا.

ويرى هؤلاء العبرانيون الشبان أن اليهود ليسوا شعبا متجانسا، فنصفهم من أصل اسيوى أفريقى يختلف اختلافا كاملا عن المهاجرين اليهود الذين من أصل أوربى. والآن لم يعد العنصر هو الفاصل فى الفروق بين اليهود، بل بين كل من هاجر من اليهود الى فلسطين، وبين من ولد وتربى على ارض فلسطين وفى دولة اسرائيل من اليهود والذين ارتبطوا ارتباطا بيولوجيا بفلسطين وباللغة العبرية باعتبارها اللغة الأم، بما يخلق وحدة مصيرية نفسية بينهم فى إطار من الإحياء العبرى، والوجود القومى العبرى، كمجتمع اقليمى حضارى مفتوح لكل إنسان دون تفرقة من حيث الجنس أو الدين .، ووفق وجهة نظر هذه الجماعة يحدث فى إسرائيل بين جيل المهاجرين وبين جيل العبرانيين الشبان شىء ما مختلف عما حدث خلال القرن التاسع عشر بين يهود أوروبا من صراع بين دعاة التنوير وأصحاب الايمان الدينى المتعصب وإن المسافة مازالت بعيدة جداً بين المهاجر اليهودى الذى كان منتميا لطائفة يهودية مندمجة وبين العبرى الشاب، بقدر المسافة بين الشك فى الإنتماء الذى يشعر به اليهودى المهاجر ازاء يهوديته وثقافته التى اكتسبها خلال اندماجه، وبين الثقة فى الانتماء لدى العبرى الجديد للدولة وللغة العبرية والثقافة العبرية والواقع

الشرق أوسطي الذى لايلزمهم بأى التزام تجاه تقاليد الحياة اليهودية التى يصر عليها يهود الجيتو المهاجرين.

ومن هنا، فإن هذه الجماعة تنادى بالانتماء للأمة العبرية التى هى تجسيد للواقع وليت موضوع رد فعل أو رؤية رومانسية أو عاطفية، وهم يرفضون أن يكونوا صهاينة لأن الصهيوني يصبح يهوديا من خلال قرار، أو لأن انتماءه للطائفة الدينية لم يمنحه اشباعا بسبب وهن الأساس الدينى لهذا السبب أو لغيره. فاليهودى والصهيوني والعبرى لا يمكن ان يتشابهوا إلى الأبد، لأن اليهودى ينتمي لطائفة وينظر الى الأمة كطائفة، والعبرى لا يمكن أن يكون يهوديا لأنه ينتمي لأمة حقيقية.

٢٥ – بيرز . شمعون : المرحلة القادمة (عبرى)، ص ٣٥ .

٢٦ – ربيع . حامد: م. س. ذ، ص ٦٣ – ٦٤ .

٢٧ – إيزنشتادت، ش. نس : م. س . ذ ، ص ٤٤ .

٢٨ – هلال. علي الدين. م. س. ذ، ص ٧٧ .

٢٩ – نيكتينا. جالينا. م. س. ذ ،ص ١٧٢ .

٣٠ – ربيع . حامد: م. س. ذ، ص ٦٥ .

٣١ – هلال . على الدين : م. س. ذ، ص ٧٨ .

٣٢ – سلزر . مايكل : م. س. ذ، ص ٦٨ .

٣٣ – نفس المرجع، ص ٧٠ .

٣٤ – نفس المرجع ، ص ٨٩ .

٣٥ – نفس المرجع ، ص ٩٠ .

٣٦ – حفنى . قدرى (دكتور) : الشخصية الإسرائيلية (الاشكنازيم) ، ص ٩٢ – ٩٤ .

٣٧ – الفتيقيم : هم أبناء الجيل القديم من المستوطنين الصهاينة ذوى الاصول الاشكنازية.

٣٨ – تمبل : هى كلمة عامية عبرية تطلق على غطاء الرأس المميز للشخصية الإسرائيلية «الصبار» ، وهى من الكلمة العامية الانجليزية «دومبل» .

٣٩ – ايلون – عاموس : الاسرائيليون، الموسسون والأبناء ص ٢٥٦ .

٤٠ – المسيرى . عبدالوهاب . موسوعة المفاهيم، ص ٢٣٩ .

٤١ – معدل الخصوبة عند المرأة الأوروبية الأصل ١.٩ ، بينما المعدل عند المرأة التى هى من أصل أسيوى أو افريقى ٦.١ (المكتب المركزى للاحصاء بالقدس ١٤ اغسطس ١٩٦٢).

٤٢ – روبنتشين . امنون : لنكن شعبا حرا (عبرى)، ص ١٠٥ .

٤٣ – حفنى . قدرى: م. ص. ذ، ص ١١١.

٤٤ ـ بن عيرز : ايهود : «صورة اليهودى المخيف فى أدب أبناء البلاد» (عبرى).

٤٥ – حفنى . قدرى : م. س. ذ، ص ١٠٦ .

٤٦ ـ المسيرى. عبدالوهاب: موسوعة المفاهيم . ص ٢٣٩.

٤٧ – بناى، مرجليت، راسكول، هربرت : المليون الأول من الصباريم ، ص ٢٥

٤٨ – تامارين . ج، بن تسفى ، دافيد : الصباريم .

٤٩ – حرب التحرير ـ ملحميت هشحرور(هو التعبير الذى يطلقه الصهاينة على حرب ١٩٤٨، كما يسمونها كذلك (ملحميت هقوميميوت) .

٥٠ – جولان، شماى : موت أورى بيلد .

٥١ – المسيرى – عبدالوهاب. أرض الميعاد ، ص ٢٠ – ٢١.

٥٢ – التحية المعتادة عند اليهود هى «شالوم» وتستخدم فى جميع الأحوال، ولكن الاسرائيليين بتأثير من اللغات يستخدمون «بوكر طوف» (صباح الخير) و«عيرف طوف» (مساء الخير) وغيرها من التحيات التى تتناسب مع المناسبة ويعتزون بذلك، لأنها من علامات التخلص من بعض العادات اليهودية التقليدية.

٥٣ - جرينبرج ، آروى تسفى: للأطفال .

٥٤ - يقصد بالأدب العبرى الفلسطينى، الانتاج الأدبى العبرى الذى انتج فى فلسطين منذ فترة الانتداب البريطانى على فلسطين فى عام ١٩١٧، وحتى عام ١٩٤٨، حيث يطلق على الأدب المكتوب بالعبرية منذ عام ١٩٤٨ فصاعدا اصطلاح «الأدب الاسرائيلى» تمييزا له عن المرحلة السابقة.

٥٥ - روبنشتين. إمنون: م. س. ذ، ص ١٠٢ - ١٠٥ .

الفصل الرابع

بعض السمات الأساسية للشخصية اليهودية الإسرائيلية

يحدد دكتور قدرى حفنى فى دراسته التى تحمل عنوان : شـبـاب عـجـوز - دراسـة فى سـيكولوجـيـة «السـابرا» الإسرائيليين . إن أهم الخصائص التى تميز «السابرا» هى دون ترتيب :

الانطوائية

الكآبة

التشكك

التشاؤم

الشعور بالدونية

العدوانية

اللامبالاة

البرود العاطفى

الإحساس بالفشل

الحساسية المفرطة للنقد

الحاجة للمديح والاطراء

خشونة المظهر وانفعالية الاعماق (١)

إذا كان البناء الأساسى للشخصية التى يشترك فيه غالبية أعضاء المجتمع هو نتيجة للخبرات التى اكتسبوها معا،، فإن مهمة تحديد السمات المشتركة للشخصية اليهودية الإسرائيلية هى من الأمور المعقدة للغاية، للأسباب التى ذكرناها من قبل، وللظروف التاريخية والاجتماعية والفكرية التى خضعت لها هذه الشخصية من ناحية أخرى. وبالرغم من ذلك فإنه من الممكن تحديد بعض السمات الرئيسية، التى يمكن وصفها بأنها غير ثابتة وغير دقيقة، لأنها لا تنطبق بنفس القدر على كل أنماط الشخصية اليهودية الإسرائيلية، لتنوع مصادر الرضاع الروحى والثقافى والاجتماعى بالنسبة لها. فبالاضافة الى الخصائص التى ميزت النمط اليهودى الصهيونى، والتى احتفظت بها الشخصية اليهودية الإسرائيلية، إلى حد بعيد، وخاصة الرغبة فى الانتقام من الأغيار، والنزوع الى اللجوء للعنف، وهى السمات التى ميزت مرحلة الانتقال من الدونية الى التبعية والسيطرة والثقة بالذات. ويمكن أن نحدد السمات التالية كخصائص للشخصية اليهودية الإسرائيلية «الإشكنازية والصبارية» :

١ - الإحساس بالوطنية الإسرائيلية :

إن ما أصبح يميز قطاعا كبيرا من ممثلى الشخصية اليهودية الإسرائيلية، وبصفة خاصة، من بين «الصباريم» ،

هو أن هؤلاء «الصباريم» يشعرون أنهم يعيشون كمواطنين عاديين فى دولة عادية لأنهم ولدوا على هذه الأرض، وتحدثوا بلغتها كلغة أم، ولم يعرفوا لهم وطنا آخر غير اسرائيل كمجتمع تعيش فيه أغلبية يهودية. ولذلك فإن «الصبار» لم يرتبط باسرائيل نتيجة اعتقاد ايديولوجى او ايمان بالصهيونية، ولم يواجه معاداة اليهودية واللاسامية. وليست لديه عقدة الاضطهاد، او احساس «الأقلية» الذى عرفه أبواه. ومن هنا فإن بعض الباحثين يرى أن «الصبار يضع اسرائيليته قبل يهوديته، حيث أنه يعتقد أنه موجود على هذه الأرض، ليس لأنه يهودى، ولكنه لأنه ولد عليها كاسرائيلى عبرى. وامتداد لذلك، يقال أيضا إن ارتباطات «الصبار» العاطفية باليهود خارج اسرائيل اقل من ارتباطات المهاجر، وانه لا تشغله كثيرا قضايا اليهود غير الاسرائيليين بنفس الدرجة التى تشغل اليهودى اللا اسرئيلى.

وهذه الآراء أيدتها نتائج بحوث قام بها قسم الاجتماع بالجامعة العبرية فى نهاية الخمسينات. ففى دراسة ميدانية سئلت عينة من «الصباريم» ، عما اذا كانوا يعتبرون أنفسهم يهودا أم اسرائيليين، وكانت النتيجة ٥٨٪ اسرائيليين، ١٩٪ يهودا، و٢٣٪ غير متأكد . (٢) .

ولو أجرى هذا البحث في الثمانينات من القرن العشرين

أو فى العام ٢٠٠٠، أى بعد قيام إسرائيل بخمسين عاما، لكانت نتائجه، بالطبع، أبعد مدى فى الانحياز نحو الانتماء الاسرائيلى الوطنى، لدى هذا القطاع من المجتمع الإسرائيلى.

وقد برزت هذه الخاصية بصفة خاصة بعد حرب ١٩٦٧ ، حيث أن سيطرة المؤسسة العسكرية وما أعقب انتصار ١٩٦٧ من نتائج، قاد الى تأكيد القيم القتالية كمتغير أساسى فى نظام القيم السائدة فى المجتمع الاسرائيلى، وارتبط بذلك أيضا ظهور الوطنية الإسرائيلية التى كان لابد وأن تحدث بدورها نوعا من التنويع فى القيم المرتبطة بالانتماء السياسى. فالاسرائيلى الذى ولد فى فلسطين أو فى إسرائيل بعد ذلك لا يعبر عن قيم الشخص الذى هاجر اليها، وبصفة خاصة، عقب إنشاء، اسرائيل لأنه جاء ليتلقى أعباء المزايا والمكاسب التى تحملها جيل الآباء الأوائل .

وهكذا، فإن حرب يونيو ١٩٦٧ كانت بداية لمرحلة جديدة فى هذا الاتجاه، وكانت تأثيراتها السياسية والايديولوجية عظيمة لدرجة أنه من الممكن النظر اليها باعتبارها شكلت تحولا حقيقيا فى التاريخ الإسرائيلى والصهيونى بالنسبة لتنمية وتأكيد الإحساس بالوطنية الإسرائيلية لدى الشخصية اليهودية الإسرائيلية.

٢ - رفض الحل الأرثوذكسى للعلاقة مع التراث اليهودى : (٣)

إن ما يكرهه اليهود «الإشكنازيم» فى إسرائيل من اليهود السفارديم، هو أن هؤلاء الآخيرين يذكرونهم بحفاظهم على تقاليدهم الدينية المتوارثة بالأحوال الاجتماعية والثقافية التى كانت سائدة حتى بداية القرن العشرين فى الجيتو اليهودى الذى اصبح مرفوضا فى روسيا وبولندا، وكانت الرغبة غير العادية من أغلب اليهود «الشكنازيم» فى نسيان ماضيهم، والتخلص منه هى التى أدت ، من جهة، الى نبذهم لليهود «السفارديم»، كما أدت، من جهة أخرى، الى التحول الخطير عن تقاليدهم الأصيلة وثقافتهم القديمة. وتكاد تتفق معظم التحليلات السيكولوجية التى كتبت جميعها بأقلام يهودية، على أن اليهود «الاشكنازيم» لا يزالون، عن وعى أو عن غير وعى، يخجلون من ماضيهم، ولكى يقنعوا أنفسهم بأنهم أصبحوا الآن من الجنس الأبيض الفاتح، تسيطر عليهم حاجات ملحة لابداء الازدراء للعناصر التى تتشابه معتقداتها وعاداتها مع معتقدات وعادات أجدادهم. ومن هنا، فإنهم يشعرون بنزعة قاهرة للإستخفاف باليهود السفارديم والعرب على حد سواء لارضاء كبريائهم. ولعل ذلك يعزى أيضا إلى وجود كثير من الملحدين بين اليهود «الكشنازيم» فى اسرائيل،

لأن اليـهودية الارثوذكسـيـة توحى بصـورة اليـهودى البـائس الذى كـان يـعـانى من الـكبت والقـمـع، وهـى الصـورة التى يود يهود ألمانيا وروسـيـا وبولندا أن ينسـوها. ولكن هؤلاء اليـهـود «الاشكنازيم» لا يستطيعون التحول الى الديانة المسيحية أو الديانة الإسـلامية، وإلا كان ذلك يعنى ابعادهم من اسـرائيل حيث تمارس التـفرقة الدينية على أشد صـورها ، إذن فليس والأمـر كذلك من سـبيل أمام هـؤلاء «الاشكنازيم» الذين يودون أن يشطبوا اسمـهم من قائمة الماضى البغيض إلا أن يتحولوا للإلحاد ورفض الحل الارثوذكسى للعلاقة مع التراث اليهودى. أما بالنسبة «للصباريم» فإنه يمكن القول بأن «الصبار» ليس أرثوذكسـيا، أو متـقيـدا بالسلوك الدينى، وليس مـعـاديا للدين فى نفس الوقت، والأصح أن يقال أنه لا ميـال ولا حيادى تجاه الدين. وهـؤلاء «الصـبـاريم» يفـضـلون تقـديم أنفـسـهـم كإسرائيليين وليس كيهود. وعندما يبحثون عن جذورهم فإنهم يتـخطون الفى عـام من التـاريـخ اليـهـودى فى «الدياسـبورا» ، ويتـجـهون رأسـا الى عـصـور التـوراة وفـتـرة الهيكل، ويختـارون من بينها فـتـرة «المكابيين» لأنها فـتـرة مليـئة بالثورة والتمـرد والعنف وتبدو متجانسة مع أفكارهم. (٤) .

إن الشـخـصـيـة الصـبـارية النمطيـة.. تضيق ذرعا بتـدخل الحاخـامات فى حياتها، وتـأكل لحم الخنزير علانية، ورغم ذلك

فإن أفرادها يحبون العهد القديم حبا جما ويستشهدون بفقراته فى محادثاتهم دائما .

وهذه الخاصية المميزة للشخصية اليهودية الإسرائيلية فى علاقتها بالتراث الدينى اليهودى، هى خاصية شبه متغيرة مع كل جيل جديد أو مع جماعة من جماعات المهاجرين الجدد. ويرى عالم الاجتماع الإسرائيلى ايزنشتادت «أنه ليس المقصود بذلك دائما صراعا بين الجماعات ، أو بين الأجيال، بل أساسا تحركات دائمة فى التأكيد وفى الاختيار النسبى لأسس الخلق والتقاليد فى مجال الثقافة» (٥).

وهذه السمة تتصل بشكل واضح بذلك التقسيم، الذى أصبح يشكل حاجزا اسرائيليا يحول دون التقاء شعبها. وهو ذلك الحاجز الذى يفصل مابين اليهودى والإسرائيلى. فاليهود هم اولئك الذين يريدون العيش بشكل أو بآخر وفقا للتوراة، أما الاسرائيليون فهم يؤمنون بالتراث اليهودى إسما، ولكنهم فى داخل أعماقهم يريدون أن يصبحوا شعبا جديدا مختلفا، ان يكونوا تابعين للحضارة الغربية، وتصبح «أرض الميعاد» بالنسبة للكثيرين منهم مجرد «صدفة تاريخية»، بمعنى أنهم يعيشون فيها عيشة طيبة، ولكن اذا ما واتت أحدهم فرصة أفضل فى أى مكان فلن يتردد فى أن يحزم امتعته ويغادر البلاد.

«وهذه السمة، وشيوعها بين «الصباريم» بصفة خاصة، يلمح اليها بعض الباحثين باعتبار انها نذير صدام بين «الإسرائيلية» و«اليهودية» بشكل أو بآخر. (٦) .

٣ - تحول الأيديولوجية الي مجرد جزء من العالم الثقافي الشامل :

يؤكد عالم الاجتماع الاسرائيلى ايزنشتادت على أنه قد حدث تغيير كبير فى مكانة ومغزى الأيديولوجية فى النطاق الشامل للمجتمع، وكذلك بالنسبة للفرد، وأصبحت القيم والرموز التى تمثل الى قطاعات من المجتمع الإسرائيلى للتمسك بها يعبر عنها جزئيا فقط باصطلاحات أيديولوجية جامدة، وأصبح الاتجاه السائد لدى الشخصية اليهودية الإسرائيلية هو التحرر بقدر الإمكان من قيود الأيديولوجية الملزمة، والاتجاه الى الاستقلال الذاتى والى العلاقات المباشرة أكثر من الاتجاه الى قيم الوجود الجماعى (٧) .

ويعبر عن هذه السمة يسرائيل هارل رئيس تحرير الصحيفة العبرية «نيكوداه» (نقطة) بقوله : «لقد اصبحت مشكلة الاسرائيليين أنهم لايؤمنون بأية حقيقة مطلقة. والايديولوجية التى لا تحتوى على حبة خردل من الإيمان بالمطلق سيكون مصيرها التحلل والزوال، ومن ثم تسود

المادية، والسعى نحو تحقيق المتع الدنيوية وارضاء الذات. ويؤمن الاسرائيليون - تقليدا للحضارة الغربية - بنسبية الحقيقة وأن لكل عملة وجهان (٨) .

٤ - الإنقسام الذاتي :

حيث تعيش هذه الشخصية فى عاملين مختلفين: أحدهما له أساس موضوعى (الواقع الإسرائيلى) ، والآخر من مخلفات الماضى الذى لم يعد له وجود (الجيتو) وأفكار الإسرائيلى هى نتاج ردود وانعكاسات جيتوية الى جانب خبرته الأصلية فى الواقع الجديد (٩) .

٥ - التجمع حول السلطة في حالة التهديد من الخارج، والإذعان للشرعية :

يسود بين الغالبية العظمى من المنتمين للشخصية اليهودية الإسرائيلية الإيمان بأنه ليس من المعقول أن يكون ممثلو السلطة مخطئين فى أى قرار يتخذونه، وأنهم لا يمكن أن يتصرفوا أى تصرف يمكن أن يجلب الضرر للدولة أو للشعب، وهناك نماذج فى تاريخ دولة إسرائيل تشير إلى هذه السمة، مثلما حدث فى حرب يونيو ١٩٦٧ ، بدعوى أنهم مهددون بالإبادة على يد العرب، وفى حرب ١٩٧٣ عندما استبد بهم الرعب والهلع من جراء احتمال وقوع هزيمة قاطعة، وفى

أحداث انتفاضة الأقصى (٢٠٠٢) عندما التفوا حول آرئيل شارون مساندين له فى حرب الإبادة والحصار ضد الفلسطينيين الذين تم تصويرهم على أنهم إرهابيين يهدفون لتدمير الدولة.

٦ - التأرجح بين الإخلاص للجماعة وعدم المبالاة بالآخرين :

سنرى فيما يلى ، كيف أن رقعة إسرائيل الصغيرة، وتحت تأثير مناخ الحرب، قد ساهمت إلى حد كبير فى خلق الإحساس بالوحدة القومية والتآلف، فى إطار الانحصار داخل بقعة سكانية مكثفة تعزز هذه الظاهرة، وتساعد على تطويرها .

وقد أثرت هذه الظاهرة، هى الأخرى، على الواقع النفسى للصبار، مما جعل المجتمع الصبارى الإسرائيلى يتحول الى مجتمع مكون من «مجتمعات» صغيرة مغلقة ومحدودة، تلتقى بشكل مستمر، وتتشارك فى السراء والضراء فى اطار ما يمكن أن نطلق عليه «الخلية الإسرائيلية الاجتماعية». وقد أصبحت السمة التى تميز الشخصية «الصبارية» هى الشوق الى خلق علاقة شخصية حقيقية. والوثائق المثيرة للاهتمام بشأن هذا الموضوع هى الخطابات الشخصية للإسرائيليين

الشبان، والتى نشرت بعد موتهم فى حرب ١٩٧٣. حيث تكشف هذه الخطابات بصدق هذا الاتجاه النفسى لدى «الصباريم» لأنها لم تكتب أصلا للنشر، وكانت خطابات شخصية للغاية، ومن هنا فإنها وثائق حقيقية تكشف عن شخصيات رومانسية، يعتبر الحب والصداقة بالنسبة لها قيمة عليا .

وهناك قصة مشهورة عن «صبار» نموذجى عاش حياته وسط مجموعة من الأصدقاء، ثم انتهت حياته بشكل مأساوى، انعكست فى قصة للأديب الإسرائيلى عاموس كينان تحت عنوان «دانى - إحياء لذكراه» :

ذات مرة حدثت كارثة : لقد سافرت مجموعة الأصدقاء كلها خارج المدينة من أجل خطوبة أحد أعضاء المجموعة، وبقى دانى بمفرده. وقد أخذ يتجول بمفرده فى الشوارع ولم يلتق بأحد. وقد سبب له هذا الأمر اكتئابا نفسيا. وقد انتحر لهذا السبب، ولا يعرف أحد حتى اليوم كيف فعل هذا بمفرده» (١٠).

وقد عبر أدب حرب ١٩٤٨ الإسرائيلى عن ظاهرة ارتباط «الصبار» بالجماعة، وخاصة فى أشعار حييم حيفر، وع. هليل، وفى قصص ناتان شاحام، وحانوخ برطوف، وأهارون

ميجد، حيث تبرز الجماعة الإسرائيلية – فى الكبوتس وفى الحى، وفى الحركة الاشتراكية.

وقد عبر الأدباء الذين جاءوا بعد جيل ١٩٤٨ فى إسرائيل عن ضائقة الفرد فى المجتمع القائم على الارتباط الجماعى. والجماعة هى الخلفية، التى تظهر عليها عزلة المتمرد المنعزل، كما فى قصص عاموس عوز و آ. ب يهو شواع، ويتسحاك اورباز. ولكن الجماعة موجودة وهى التى تحدد، من نواح كثيرة، طابع الصبار الذى ينمو فى إسرائيل. إن جماعة الأصدقاء هى التى تربطه وهى التى تعيد بناءه، وهو متزوج بها، حيث تصعب عليه الحياة معها، ولكنه لا يستطيع الحياة بدونها .

وقد وصف صبار اسرائيلى هو آساف أور، تلك المشاعر المتداخلة لدى الفرد داخل الجماعة الاسرائيلية بقوله :

«لا يحبون أن يعيشوا بمفردهم، ويتنسم كل واحد الآخر. ماذا أنا؟ اذا كانت لديك دعابات طيبة فإن الجميع سمعوها كلها، واذا كنت تحتفظ فى داخلك بأسرار فإن الجميع يعرفونها منذ فترة طويلة، واذا كنت تختفى من الجماعة، وإن كنت تحاول أن تكون «شخصا آخر فإن هذا لن يفيد، لأننا نعرفك أيها الصديق».

وقد عبر الصبار آساف أور عن هذا الإحساس لدى «الصبار» حينما يكون فى حاجة الى الجماعة بينما هو يحاول الهرب منها :

«إذا كرهت هذا يوما، وأردت أن تحلم حلما خاصا بك فإنك ستحلم بضمير جمع المتكلمين» (١١).

وهذا الانتماء الهوسى للجماعة، والشوق الى الصداقة، هو الذى يوضح ظاهرة الغربة التى يصطدم بها الإسرائيليون الآخرون غير «الصباريم» من المهاجرين الجدد وأبناء الأحياء الفقيرة، والعرب، والأجانب. وهذه الغربة هى رد فعل طبيعى للاهتمام الكبير الذى يوجهه الصبار لاصدقائه، والذى يؤدى الى عدم الاهتمام الذى يبديه بكل ماهو ليس على شاكلته .

ولذلك، فإنهم حينما يتحدثون عن المجتمع الصبارى الخالص فإنه ينبغى أن نذكر أنه فى هذا المجتمع يكون صعبا، بصفة خاصة تحديد مصير اولئك الذين لايستطيعون، أو لا يريدون ان يكيفوا أنفسهم مع أنماط سلوك الصبار المألوف ويكمن التناقض فى شخصية «الصبار» فى أنه الى جانب الجماعة الاسرائيلية الوثيقة والصديقة، قد قام مجتمع وثقافة يتميزان بعدم المبالاة بالآخرين .

وفشل الصبار ليس فشلا شخصيا، إنه فشل يكمن فى

عدم استطاعته وعدم قدرته على خلق توازن بين الفرد والمجموع، بينه وبين من ليس صديقه المقرب، وبينه وبين الجمهور، وهذا الفشل هو فشل كبير، ولا يحظى باهتمام من المسئولين عن البناء النفسى للصبار، الذين يقيسونه دائما وفقا لقدرته العسكرية، ولاستعداده للذهاب للاستيطان، ولا يهتمون بتلك الأبعاد الاجتماعية الواضحة فى بنائه النفسى.

٧ - الإحساس بالافتقاد للجذرية :

نظرا لأن قضية الاستمرارية التاريخية اليهودية فى فلسطين، هى من القضايا ذات الأهمية الخاصة بالنسبة للوجود اليهودى فى فلسطين، باعتبارها من المقولات الرئيسة التى يقوم عليها الفكر الصهيونى، فإن البحث عن أدلة تثبت هذا الاستمرار أصبحت من الأشياء التى تشغل، ليس بال الجهات الرسمية فى اسرائيل فحسب، بل وأيضا الكثيرين من الأفراد. ومن هنا فقد أصبح الولع بالآثار بين الاسرائيليين. «هواية شعبية»، أو «رياضة قومية»، مما أثار دهشة النقاد اليونايين والايطاليين ، والدول الأخرى الغنية بالكنوز الأثرية. وقد قارن عالم آثار ايطالى، الجنون الإسرائيلى بالآثار بغرام أبناء بلاده بالسيارات السريعة وبالصخب.

وعلماء الآثار فى إسرائيل محترفون وهواة لا يحفرون من

أجل الخبرة الفنية والاكتشافات ، بل ليقروا من جديد جذورهم التى يرونها فى المخلفات الإسرائيلية العتيقة التى يعثرون عليها فى أنحاء فلسطين، ولا غرابة أن يكون أشهر الهواة هو موشى ديان، والذى ورطه اشتغاله بالآثار مع القانون وأدى إلى إصابته إصابة خطيرة عام ١٩٦٨، وقد حكى عن ولعه بالآثار قائلا:

«إننى أبحث عن أرض اسرائيل القديمة، وكل ما كان فيها فى العهود التى خلت، وعن هؤلاء الذين عاشوا هنا وصورة حياتهم، انك تشعر أحيانا أنك يمكن أن تكون واحدا منهم، صحيح انهم موتى، ولكنك تستطيع أن تلمس واحدا منهم. إننى أحب أن أدس أنفى فى حياة الأهالى الذين عاشوا فى «بنى براك» منذ ستة آلاف سنة وفى «يفتة» ، وأن ألقى نظرة على مطبخهم وأن أخفق من الرماد المتخلف هناك منذ ذلك العهد، أو أن اشعر ببصمات أصابع الخزاف على الآنية».

وقال موشى ديان فى مناسبات أخرى: «إن الحفائر الأركيولوجية تجعلنى أشعر بالاطمئنان. وليجآل يادين، (رئيس الأركان الاسرائيلى الأسبق، وزعيم حزب الحركة الديمقراطية من أجل التغيير «دش» آنذاك، تفسيره الخاص لهذا الولع فيقول : «لقد اصبح الايمان بالتاريخ لدى الشباب الإسرائيلى بديلا عن الدين. فهم يكتشفون فى علم الآثار قيما

دينيـة. إنهم يتـعلمـون أن آباءهـم عـاشـوا فى هذه البـلاد منذ ثلاثة آلاف عام، وأن هذا ملكهم، وعلى هذا يعيشون، وعن هذا يحـاربون. إن علم الآثار الوطنى يكرس جـهـوده لتـحـقـيق الماضى العبرى للبلاد، وأحيانا مع تجاهل حقب بعيدة أخرى مثل الهللينية والرومـانيـة والفارسيـة والبيـزنطية والإسـلامـيـة والصليبية» (١٢).

ويقول جون لافين: «إن المناظر الطبيعية لها أهمية خاصة بالنسـبة لشـعب عاد من «المنفى». ويبدو أن هناك علاقـة بين هذا وبين شـغف الإسـرائيليـين بعلم الآثار القـديمـة. وهذا الشـغف يكاد يكون من المسـتـحيل أن تجـد له نظيـرا بنفس الدرجة فى العالم الغربى، حيث يتعمق عشرات الآلاف من الإسرائيليين فى هذا العلم بحماس. ان التنقيب بالنسبة لهم هو نوع من تأكـيـد الذات، لأنه يمـثل مـاضـيـهم الخـاص، مـاضـيـهم اليـهـودى. فـقـصـور هيـرودس التى اكـتـشـفت فى مـاسادا، أو بقايا مدينة دمرها يشوع، تعد تـأكيدا لحقهم فى أن يكونوا هناك اليوم، وعنوانا رمزيا لشرعية الدولة. إن «علم الآثار القـديمـة» يقـدم لهم دليـلا ماديا لوجودهم فى اسـرائيل كشعب (١٣).

وفى إسـرائيل اليـوم، كـمـا كـان الأمـر فى أمـاكن أخـرى

يحدث تشجيع على المستوى السيولوجى لاستخدام علم الآثار، لأن هذا الأمر بالاضافة الى أنه ينطوى على اثبات الحقيقة للغير، يعاون الشخص السياسى على أن يثبت شيئا لنفسه. وبالرغم من أنه درجت العادة فى العبرية الحديثة على الكلام عن «بولوس» ، أى الفهم الاسرائيلى بعلم الآثار الى حد المبالغة والجنون «١٤»، فإن هذا الفهم بعلم الاثار يعتبر جديدا نسبيا. إن الصهيونيين الأوائل لم يبدوا اهتماما بالموضوع. فهرتزل لم ينجذب الى علم الآثار اطلاقا، وفى مناسبة واحدة، طبقا ليومياته، أبدى رأيه فى عجالة فى مشروع الكولونيل هينج مليندر الضابط فى الجيش وباحث الأراضى السويدى، الذى عرض ان يجرى حفائر فى جبل الهيكل فى القدس، واستعد مليندر لكشف هيكل سليمان، على غرار العلامة سليمان الذى كشف تاج اجامنون فى طراودة. وقال هرتزل في مذكراته بتاريخ ٣ سبتمبر سنة ١٨٨٩، انه ناقش هذه المذكرة الخيالية فى حديث له مع دوق بادن العظيم. فقال الدوق لهرتزل: إن امبراطور المانيا ينوى التدخل لدى السلطان من أجل مليندر لأنه مهتم بالمشروع جدا. ولم يكن هرتزل فيما يبدو مهتما بالمشروع لأنه لم يعد لذكره أبدا، ولم تشغله آثار فلسطين، كما كان على استعداد أن ينشىء الدولة اليهودية فى دولة أخرى. وهكذا لم يهتم بالرمزية

الكامنة فى الشواهد العتيقة فى فلسطين. ومن الغريب أيضا انه ظل جامدا بالقرب من حائط المبكى عندما زاره فى رحلة قصيرة للقدس فى خريف سنة ١٨٨٩. وفى مذكراته المكتوبة عن القدس الجديدة لا نجد اى ذكر لعلم الآثار، وكان هدفه تطهير القدس، والتخلص من كل ماهو ليس مقدسا، لدى أحد الأديان الثلاثة، وإخلاء السراديب القذرة، واحراق الخرائب، ونقل الأسواق العتيقة، وبناء مدينة عصرية نظيفة حول الأماكن المقدسة. ولم يكن انفعال الرواد الأوائل أكثر منه تجاه سحر الأماكن العتيقة. ورغم أن الهجرتين الأولى والثانية (١٨٨٢ - ١٩١٤) بدأتا فى وقت واحد مع الحفائر الضخمة لبترى ومكالسترو سلين وغيرهم فى فلسطين، فإن المستوطنين فيما يبدو لم يهتموا بها تقريبا، ربما لأن صراعهم مع الحاضر لم يترك لديهم فراغا ليكرسوه للماضى (١٥).

ولم يذكر هذا الموضوع الا نادرا فى الكتابات الضخمة التى كتبها الرواد الصهاينة الأوائل. وفى سنة ١٩٠٤ حاضر فى القدس دكتور بنسنجر عالم الاثار الألمانى عن الحفائر الأخيرة فى «تل المتسلم» ، وحضر المحاضرة أهرون أهرونسون الشاب الذى سرعان ما أصبح شخصية بارزة بين جماعات المستوطنين الأوائل» (١٦) .

وقد سجل فى يومياته أن حفائر الآثار لا تنبئه بشىء، ولذلك فإنه لايعنيه أن يشتغل بذلك غير اليهود، وكانت نغمة الكلام تمثل ذلك العصر، وكان علم الآثار، سواء كان مقدسا أو علمانيا، وسواء كان يهوديا أو غير يهودى، يعد من اختصاص غير اليهودى. ولم يجذب علم الآثار إسحق بن تسفى الذى أصبح فيما بعد رئيسا لإسرائيل ، بل اجتذبه علم الأجناس وأخذ يبحث فى الصحراء عن قبائل ضائعة من البدو اليهود، ولم تثره الآثار، كما كان يثيره اكتشافه لبضع فلاحين من اليهود الحقيقيين فى قرية فقيعين بالجليل، وذلك لأن هذا يعد دليلا ليس ميتا كالحجر، على استمرار اليهود فى فلسطين (١٧).

وقد نشأ الاهتمام الحالى بعلم الآثار مع الجيل الثانى والثالث من المستوطنين. ففى سنة ١٩٢٠ اشتغل أعضاء «كتيبة العمل» بحفائر الآثار فى حمت طبرية، ولم يكن يبدو أن نظام العمل فى «كتيبة العمل» يتعارض مع هذا العمل حيث كانوا يعملون فى رصف الطرق أو تجفيف المستنقعات. وقد حدث انفجار عاطفى فعلى حقيقى فى ديسمبر سنة ١٩٢٨ . لقد سرى حماس شديد فى كبوتس «بيت ألفا» بين الأعضاء اليساريين المعادين للدين، عندما اكتشفوا أن فى أرضهم معبدا يهوديا من القرن السادس. لقد صادفوا أرضا من

الفسيفساء عندما كانوا يحفرون قناة للرى، واعتبر هذا الكشف كشفا له أهمية قومية، ولذلك احتفظوا بسريته فى البداية ، ولم يخبروا به مفتش الآثار الاقليمى البريطانى، واستدعى أعضاء المستعمرة ا. ل سكونيك (والد يجآل بادين) من القدس ونظمت حفائر برعاية المنظمة الصهيونية، وتطوع اعضاء الكيبوتسات (المستعمرات الاشتراكية) من جميع أنحاء المنطقة للعمل طوال اسابيع (١٨) .

وفى سنة ١٩٤٧ كان علم الآثار قد نما تماما.ففى صيف تلك السنة صادف الرعاة البدو ممن كانوا يطاردون عنزة شاردة بين الجبال التى تحيط بالبحر الميت، كهفا لم يكن معروفا فألقى أحدهم حجرا داخل الكهف ، فسمع صوتا يتردد، وهكذا بسبب عنزة شاردة، وفضول شاب راع حصلت إسرائيل على أهم كشف فى الاثار حتى اليوم، وهو برديات البحر الميت» . وقام نوع من العبادة حول هذه البرديات، التى أحاط بها نوع من القداسة مثل كتاب كالى فى الوعى القومى البولندى (١٩). ووصل هذا الانهماك العاطفى فى الشعارات الاركيولوجية الى الذروة فى سنة ١٩٦٣ مع حفائر حصن الماسادا العتيق، ويبرز الدور السيكولوجى والسياسى لعلم الآثار فى التاريخ الاسرائيلى خاصة فى عبادة البرديات والطقوس المرتبطة بالماسادا.

إن البرديات السبع التى اكتشفت بالقرب من البحر الميت والتى اشترتها حكومة اسرائيل قبل سنة ١٩٦٧ محفوظة اليوم فى القدس كرفات قديس فى مقر خاص بنى لذلك يطلق عليه «هيكل الكتاب» (هيخال هسيفر) . والمبنى هو جزء من مجمع أكبر هو متحف اسرائيل الذى يقع أمام مبنى الكنيست، وقد بنى الهيكل عن قصد بحيث يكسب صورة مأساوية رمزية لمحتوياته. وقد جعلت له قبة على شكل بصلة بيضاء كالثلج ترقد على قاعدة منخفضة من حجر البازلت، وتبرز سطوح بيضاء فى عنف على خلفية سوداء.

وهذا التضاد يعبر عن الحرب بين أبناء النور وأبناء الظلام، وهو (الموضوع الصوفى لإحدى البرديات المشهورة) (٢٠)، ويؤدى الى قلب الهيكل نفق محدب، وفى نهاية هذا النفق منعطفات مظلمة تذكرنا بالأنبوبة التى تؤدى الى رحم المرأة - وتصل الى قاعة دائرية تحفظ فيها البرديات خلف ألواح زجاجية. وتذكرنا القاعة المحدبة بهيكل دينى، وفى الوسط فوق منصة مرتفعة مبنية على شكل مذبح، مستدير تعرض بردية إشعيا فى خزانة زجاجية ضخمة، وفوقها فى السقف فتحت ثغرة فى السقف تكشف السماء. وقد صممت فى الأصل على أن يتسرب فيها خيط دقيق من الماء. وقد قام بتخطيط الهيكل المهندس والمثال الأمريكى ى . ف . كيزلر

وعن قصد أو غير قصد استوعب كيرلر مشاعر أبناء المكان نحو البرديات المكنوزة بجميع عناصرها المعقدة. وليس هناك مبنى اسرائيلى كهيكل الكتاب يقوم على الاستغلال التشكيلى للأشكال التشريحية والرمزية. ويجتمع فى هيكل الكتاب علم الآثار والقومية كما فى عبادة الخصب والشباب قديما (٢١) .

وقد وصلت قمة الانهماك العاطفى فى الشعارات الأثرية من المدة من ١٩٦٣ - ١٩٦٥، بمناسبة حفائر الماسادا. واستمر هذا الانهماك الى حد ما حتى هذا اليوم. وقد قام البرفيسور يجآل يادين بحفائر شاملة فى حصن الماسادا فى المدة من ١٩٦٣ - ١٩٦٥، وقام بمعاونته آلاف المتطوعين من اسرائيل ومن خارجها ، وكان هؤلاء يحسون أحيانا أنهم يقومون بعمل مقدس، وكتب يادين تقريرا عن حفائر الماسادا أكد فيه حماس المتطوعين وأشاد بالعمل، وذكر «إننا لم ننجح فى تنفيذ هذه المهمة الصعبة فى حفائر الماسادا الا عندما تقدمت جموع المتطوعين من البلاد، وكم كان سرورهم وسرورنا عظيما عندما اكتشف هذا الجيل الشاب من دولة اسرائيل المستقلة بقايا أواخر المدافعين عن حصن الماسادا»(٢٢) .

لقد كانت حفائر البروفيسور يادين ذات طابع خاص، طابع له أهميته وفريد من نوعه فى حياة دولة إسرائيل. لقد

ظهر أنه بالاضافة لاستعداد الإسرائيليين للتطوع فى المهام الخطيرة فى وحدات الصاعقة الخاصة، او الخدمة فى مستعمرات الحدود، فإنهم على استعداد للتطوع فى جماعات للحفائر الأثرية، ولم تستنفذ حفائر الماسادا الحماس الشعبى الزائد، والى الآن يوجد متطوعون للحفائر أكثر من الأماكن الخالية لاستيعابهم. (٢٣) .

وقد قامت المؤسسات القومية بترميم المكان وإعادة بناء حصن الماسادا جزئيا، وأصبح من السهل الوصول الى المكان بالقطار المعلق (التلفريك) وتزوره جموع السائحين كل سنة، وتقام حفلات بصورة دائمة فى الماسادا تمثل الترابط بين السياسة وعلم الآثار فى التاريخ الاسرائيلى الحديث.

وحتى قبل حفائر يادين، وقبل رصف الطرق الجديدة، وبناء السلالم والممرات الى رأس الجبل، كان الرحالة وحركات الشباب وجنود الجيش يحيطون الماسادا بهالة رومانسية، وتقوم اليوم حركات الشباب والفصول المدرسية بمدرسيها بطوابير الى الجبل بصورة دائمة. وتصعد وحدات مختارة من الجيش الاسرائيلى فى مسيرات الى الحصن، بعد تجنيدها بمدة غير طويلة ، ويقسم جنود المدرعات يمين الولاء على مرتفعات الماسادا، ويقام الحفل ليلا على ضوء مئات المشاعل. وقد ألقى البروفيسور يجآل يادين خطابا فى إحدى

هذه الحفلات فى صيف سنة ١٩٦٣ . وكثيرا ما يذيعون تسجيل هذا الخطاب الذى قال فيه :

«عندما مر نابليون بجيوشه بالقرب من الأهرام فى مصر قال مخاطبا أياها، إن أربعين قرنا من التاريخ تتطلع إليكم ولكن ماذا كان يحدث لو أنه قال : أن أربعين قرنا من تاريخكم تتطلع اليكم : إن صدى قسمكم هذا المساء يتردد فى جميع أرجاء معسكرات أعدائنا، ومغزاه لايقل فى قوته عن أى سلاح» (٢٤).

ويسود جو غريب وأحيانا غيبى فى تلك الحفلات التى يقيمها علمانيون عصريون على تلال انقاض أشخاص كانوا متعصبين دينيا.

وبعد حرب يونيو ١٩٦٧ واحتلال القدس العربية، بدأ الاسرائيليون اعتبارا من بداية عام ١٩٦٨ فى سلسلة حفريات حول «الحائط الغربى» (حائط المبكى)، من أجل اكتشاف مراحل من التاريخ اليهودى القديم. وقاموا فى سبيل هذا باخلاء وهدم مناطق بأكملها من تلك المحيطة بمنطقة «الحائط» لكى يستيطعوا القيام بحفرياتهم دون ازعاج، ولكى يطمسوا أو يزيلوا المعالم العربية والإسلامية المحيطة بتلك المنطقة رغبة فى أن يكون الطابع اليهودى هو الوحيد الذى يحيط بالمكان.

وإذا كانت الوطنية الإسرائيلية فى تنقيبها فى الماضى البعيد بحثا عن شعارات ونماذج للسلوك المثالى «وقد وجدت فى عقيدة الماسادا» أو «عقيدة الانتحار» انجازاً يبلغ القمة لأشخاص عقدوا العزم على التمسك بعقائدهم العميقة، من خلال الإصرار والشجاعة فى مواجهة الرومان» فإن هناك سخرية عميقة لا يستطيع حتى الإسرائيلى القومى أن يتجاهلها من خلال بعدين متوازيين:

أولا: المقارنة بين اليهود المكابيين وبين العرب الفلسطينيين. فالعرب الفلسطينيون قاوموا ومازالوا يقاومون، وبنفس القدر من التعصب والحماس «وبنفس القدر المحدود من النجاح»، إقامة الدولة الصهيونية على أرضهم فلسطين، وهو نفس الدور الذى قام به اليهود حينما قاوموا على تلك التلال التاريخية غزو المستوطنين، واحتلال جيوش الرومان التى تفوقهم من الناحية التكنولوجية. وعلى هذا الأساس فإن الاستمرار التاريخى الذى قد يبدو للوهلة الأولى أمراً مثيراً للفضول، ومصدراً للفخر، ومثيراً للحماس فى نفوس الجيل الإسرائيلى، هو فى نفس الوقت مصدر لمقارنة لا مفر منها تقع كالصاعقة على معظم الإسرائيليين.

ففى رواية عاموس عوز «ميخائيل الخاص بى»، (ميخال

شيلى) يتحول التوأمان العربيان خليل وعزيز رفيقا الصبا لحنا اليهودية، إلى رجال مقاومة عرب يحملان الثأر العربى للغزاة اليهود.

ثانيا: إن بعض أصحاب الوعى من الإسرائيليين قد تنبهوا إلي المعايير التى يسعى الصهاينة إلى استولادها من أجل إثبات «حقهم التاريخى»، و«استمراريتهم التاريخية» فى أرض فلسطين، هى نفس المعايير التى تستخدمها «الوطنية العربية الفلسطينية» لإثبات جذريتها فى هذه الأرض. وقد انعكست هذه الورطة فى أعمال أدباء كثيرين من الأدباء الإسرائيليين الشبان وبصفة خاصة آ.ب يهو شواع فى قصته «فى مواجهة الغابات» «مول هَيعْاروت» «حيث يثبت وجود قرية عربية تحت أنقاض غابات الصندوق القومى اليهودى، التى تحمل أشجارها أسماء ليهود من خارج فلسطين دفعوا أموالاً لإقامة الكيان الصهيونى الجديد على أنقاض هذه القرية العربية. وعلى ضوء هذا فإن «منظمة التحرير الفلسطينية» تحرص فى تصريحاتها فى الصحف، وفى كتبها الدعائية على ذكر الأسماء العربية القديمة لأماكن الاستيطان فى إسرائيل. وتقوم منظمة «ذكرى فلسطين» فى بيروت بنشر خرائط لفلسطين العربية تورد فيها أسماء مئات القرى التى أختفت تماما بسبب حرب ١٩٤٨. وقد أطلق يهوشا فاط هركابى على

هذه المؤسسة فى سخرية مريرة اسم «يدفاشيم» العربية أى «هيئة تخليد ذكرى النكبة العربية» «وذلك على غرار يد فاشيم»، وهى الهيئة المسئولة عن تخليد ذكرى أحداث النازى بالنسبة لليهود فى إسرائيل»، وقد أدى ضياع فلسطين إلى نوع من «الصهيونية العربية» تتميز بخصوبة فى محصولها من الكتابات «كالصهيونية اليهودية» .

٨ - البرود العاطفى :

يحدد دكتور قدرى حفنى فى كتابه «تجسيد الوهم» أن البرود الانفعالى هو من السمات الرئيسة التى تميز الإنسان الإسرائيلى وبصفة خاصة أبناء «الكيبوتسات»: «عدوانى لا يعرف الرحمة، منغلق على نفسه، لا يعرف حرارة الانفعال، حاقد على كل من حوله، شاعر بأنه مختلف عنهم»« ٢٥»

وهذا صحيح إلى حد كبير، إذا أنه كثيراً ما يبدى الإسرائيلى الشاب تحفظاً عاطفياً مقصوداً، ويكبح جماح نفسه، ويكره نفسه على الامتناع عن أية عاطفة، ويكبح فى حذر عواطفه كإنسان، كما يكبح الإنسان خيولاً برية، خشية أن تجمح. وفى المناقشات التى تحتاج إلى التعبير عن العواطف يمسك الإسرائيليون الشبان بزمام أنفسهم، وهذا طابع بارز لديهم، كما لو كان ذكره للاحساس والعاطفة ينقض الحظر أو يكشف السر، أو يظهر ليونة لا داعى لها .

ولغة الإسرائيليين الشبان كثيراً ما تكون قاسية إلى حد المبالغة وليس بها أى زخرف، وغير متنوعة، وتعبر فى جمل قصيرة وسريعة. ولذلك سبب واحد هو أن «العبرية الرسمية» لازالت شكلية إلى حد كبير، ومتخلفة عن احتياجات حديث الحياة اليومية. ونجد أن لهجة الشارع تعوض النقص فى القاموس، وهى لازالت لغة فجة لا شكل لها. ويصف أهارون ميجد الأديب الإسرائيلى، فظاظة وخشونة اللغة العبرية فى روايته «رحلة فى أغسطس» «(مساع بيآف) بقوله: إنها تبدو لغة خشنة، غير شجية، مثل الخربشة على جذوع شجرة، لغة اشارات لقبيلة صغيرة، منغلقة، مرتبطة فيما بينها برباط حلف من الخداع والمخاوف، وتنتمى لحضارة زائلة.. غريبة (ـ٢٦)، وهناك سبب آخر ربما كان أهم، وهو القسوة التى تميز لغة «الصباريم»، والعادات التى ترجع إلى سنوات عديدة من جهود التعليم الموجه لخلق إسرائيلى جديدة وطبيعى قوى، وغير معقد وحر، وغير معرض للضعف المخزى المتفشى فى شخصية يهودى الشتات. وتصف ياعيل ديان ابنة موشى ديان شخصية مواليد البلاد فى روايتها «طوبى للخائفين» مما فسر على أنه شخصية أبيها: «هل تعلم مم يخاف؟ إنه يخاف من التعرض للخوف، لدرجة أن جميع المخاوف الإنسانية الطبيعية والسليمة، تدفع جانباً، ولا يعود لها وجود». «٢٧»

وينقل عالم النفس برونوبتلهايم عن محلل نفسى إسرائيلى خصص جزءاً كبيراً من حياته العلمية للبحوث عن أهالى الكبوتسيم: «ان أبناءنا يخجلون من أن يخجلوا ويخافون أن يخافوا، ويخافون أن يحبوا، ويخافون أن يقوموا من أنفسهم، ولست على يقين إذا كان هذا فى الأحساس أو خوفاً من الاحساس «٢٨».

ونلمس من كتابات الإسرائيليين الشبان إلي محبوباتهم جفاء بشعاً وانعداماً فى الخيال غير إنسانيين بصورة غريبة، وأحياناً يبخلون بكلمات الحب والإعراب عن الإخلاص والشوق لدرجة أن القارئ لا يجد أية عواطف أو رقة على الاطلاق، وقد يرتاب فى أن الكاتب الشاب إذا كانت لديه عواطف وأحاسيس فهى مخجلة وضالة، ولذلك قرر أن يحتفظ بها إلي الأبد مغلقة بالقفل والمفتاح. إن هؤلاء الشبان لا يتحدثون عن العواطف ولا يعترفون بوجودها إلا نادراً. وهذه العلاقة المتحفظة نحو العواطف تتجسد على أنها أحاسيس من النوع السليم – ولكن يجب التعبير بالأعمال لا بالأقوال، لأن الكلام لا قيمة له.

إن هذا فى الواقع تحفظ عاطفى متطرف، ينطوى على المبالغة فى عملية ضبط النفس التى تكشف عن نوع من الخجل الغريب، وعدم الثقة، تولدا من حالة العزلة التى تعانى منها إسرائيل كبلد صغير غارقة فى حرب بلا هوادة.

ويصف الصحفى الصهيوني يعقوب تيمرمان هذا الاتجاه نحو التحفظ العاطفى المتطرف عند حديثه عن لحظة وداع ابنه عند ذهابه للاشتراك فى حرب لبنان «يونيو١٩٨٢» بقوله:

«بدأ شارون هجومه فى الساعة الحادية عشرة صباح الأحد ٦ حزيران/ يونيو١٩٨٢، وإن كانت الحرب قد بدأت بالنسبة لى قبل ذلك بست عشرة ساعة عندما تم استدعاء ابنى دانيال لأداء الخدمة العسكرية، وجاءت لحظة الوداع ولاحظت أن زوجته لم تنخرط فى البكاء، إنها الجيل الثالث لابناء إحدى الكيبوتسات، لقد اعتادت على الصرامة وكبت العواطف، وهو أمر لا نعرفه فى أمريكا اللاتينية».«٢٩»

إن التحفظ العاطفى الذى يتميز به الشبان الإسرائيليون كثيراً ما يبين وعياً متطرفاً، وهذا الوعى من جانبه يوازى نوعاً من المرح اللاذع، الذى يتعذر وصفه، ويصحبه نوع من الغضب والطيش والوقاحة. إن الخوف من التعبير عن العواطف يبدو وكأنه نوع من الحركة فى أراضى العدو التى تلزم باسكات اللاسلكى أثناء التحرك. إنه صفة أساسية فى طابع الجيل الإسرائيلى الجديد. ونجد نموذجا جميلاً لوصفها فى حديث دار بنيويورك بعد حرب يونيو ١٩٦٧ ببضعة أسابيع، فقد أجرى ايلى فايزل الأديب اليهودى المشهور حديثاً صحفياً مع العميد مردخاى جور أحد الذين اشتركوا فى هذه الحرب:

فايزل: لقد كنت أول من صعد جبل البيت المقدس أليس كذلك؟

جور: نعم.

فايزل: هل استولى عليك الانفعال؟

جور: وماذا تعتقد؟

فايزل: هل بكيت؟

جور: كلا، لم أبك.

فايزل: ولماذا لم تبك؟

جور: لست أعرف. إننى لا أحب الدموع.

فايزل: هل شعرت بالرغبة فى البكاء؟

جور: طبعا - مثل الآخرين- ولكنى لم أبك.

فايزل: ماذا كان شعورك حقا؟

جور: لا أعتقد، أننى لا أستطيع أن أحاول ذلك بالكلمات.

فايزل: حاول.

جور: كلا لا أعتقد أن الاشخاص يجب أن يتحدثوا عن مشاعرهم.

فايزل: علام يجب أن يتحدثوا؟

جور: ومن قال إنه يجب أن يجب أن نتحدث عن شئ ما؟ إننا لسنا مضطرين.

فايزل: إننى أسمح لنفسى أن أخالفك. إن هذا واجب وحق أن نتحدث عن هذا«٣٠»

٩ - الحساسية تجاه النقد وتجاه الشرعية:

لقد كانت الهجرات اليهودية إلي فلسطين ومبدأ العودة الذى رفعته الصهيونية بمثابة أشياء لم تقم على أساس مبدأ شرعى عادى متعارف عليه بين الجميع، ذلك لأن إدعاء الصهيونيين بالحقوق التاريخية فى فلسطين، واستناد الصهيونية إلي الوعد الآلهى، كل هذه الأشياء كانت فريدة فى نوعها ومعادية لكل من التاريخ والعقل، وتسبح فى بحر من الغيبية لا يتفق وروح القرن العشرين ومعاييره.

ويقول عاموس ايلون: «إن الإسرائيليين يعترفون اليوم عن طواعية بأن العالم يمكن أن تسوده الفوضى، لو طالبت أمم أخرى بحق العودة لبلاد كانوا يحكمونها أو كانت مهداً لتاريخهم. ومع هذا، فإن هناك ثمناً سيكولوجياً يجب على الأشخاص المتحضرين أن يدفعوه مقابل المطالب الشرعية

الشاذة. ويدفع الإسرائيليون هذا الثمن سواء رضوا أم لم يرضوا، وعليهم أن يطمئنوا أنفسهم بلا هوادة، ويظل الإسرائيليون يعتمدون بصورة إجبارية على عبارات التعاطف والتهدئة من جانب الآخرين» «٣١»

ومن هنا، فإن الإسرائيليين يشعرون دائماً بضرورة أن يحصلوا على إقرار من الآخرين بأن مطالبهم وسياستهم ليست معقولة وواعية فحسب، بل هي أيضاً عادلة وأخلاقية. ومع ذلك فإنه رغم التظاهر بالثقة الزائدة، فإن إسرائيل - بصورة عامة حساسة للنقد الأجنبي أكثر من معظم الدول. إن حاجة الإسرائيلي للحصول بلا هوادة عل إقرار من الآخرين، يوازي الحاجة العميقة للاطمئنان الذاتي الدائم. إن الحاجة الأولى تولد لدى الإسرائيلي حساسية زائدة تجاه النقد. بينما تثير الثانية شهية قوية للتأمل الذاتي. والاطمئنان الذاتي لدى الإسرائيلي يرتبط بالتعريف الذاتي وأحيانا يتحقق بواسطته. وليس هناك بلاد أخرى يتحمس أهلها بل ويتجادلون حتى الآن حول تعريفات ذاتية مثل: من نحن؟ وما نحن؟ وما هي الهوية اليهودية؟ وما هي الهوية الإسرائيلية؟ مثلما يحدث في إسرائيل. وإذا كان الوعي الذاتي هو أمر يميز كل مجتمع جديد أو مصطنع. فإن هذا مازال قائماً منذ بداية الفكر الصهيوني الحديث، منذ مائة سنة وحتى الآن، وسيظل

مستمراً، لردح طويل من الزمن، لأن هذا الأمر ليس سمة خاصة بالمجتمع الإسرائيلى، بل سمة مميزة للإنسان اليهودى أينما وجد.

وقد قام دكتور فرانس جوزيف شيدل فى مقدمة كتابه «أسطورة إسرائيل» بتجميع بعض الأقوال عن حساسية اليهود تجاه النقد نوردها فيما يلى:

«يجوز للمرء أن يتحدث دون مبالاة عن أى دين أو أى عنصر أو طبقة، ولا يجرؤ أن يوجه لليهود أى كلمة نقد.. أليس هذا منطقاً غريباً؟ إن الأمر عجيب للغاية ويحتاج منا غاية التسامح عندما نلقى هؤلاء الناس».

«نشر فى مقال لاكسيميليان هاردين فى مجلته «المستقبل» فى ١٨ يونيو سنة ١٩٠٤ ببرينى».

«إن كل أمة معرضة للنقد، ولكن إذا ما تجرأ شخص على أن يمس اليهود وينتقدهم، حينئذ تتشابك أيدى اليهود حول هذا العيب توضحه وتلتمس المعاذير».

«مستشار الدولة الألمانية أو توفون بسمارك»

«يمكن للمرء أن يتحدث بصراحة عن شعبه دون خجل، ولكن من يجرؤ على التحدث بإنصاف وعدل ودقة عن ضعف الشخصية اليهودية، يجمع العالم على التمثيل به كأي بربرى

أو ملحد».

«المؤرخ الألمانى هينريش توتيسكا»

«إن اليهودى يخلق من يهوديته أكثر من مشكلة سياسية دقيقة. إنه يتحاشى أى نقد. فمن يجرؤ اليوم على ذم اليهود؟ إن الذى يتناول المسألة اليهودية، لن يسلم من افتراس وتمزيق كلاب الحراسة اليهودية.. فاليهود معصومون من النقد.. هذا هو قانون اليهود».. فليس من الجائز توجيه النقد إلي اليهود.. إن هذا محظور».

«دكتور ليونيل كرانا - نيويورك ١٩٢٤».«٣٢»

١٠- الروح العدوانية أو التوحد في المعتدى:«٣٣»

مما لاشك فيه أن تحولاً جذرياً طرأ على اليهود بعد عرضهم للتشريد. فتاريخهم قبل عصر التوراة وبعده تاريخ دموى حربى ملئ بالغزو والعدوان، وتغلب عليهم فيه صفة الشراسة والعنف. أما بعد مجازر الآشوريين والبابليين «٧٢١ق.م و٥٨٦ق.م»، ثم الرومان «القرن الأول الميلادى» فقد تحول اليهودى فجأة إلى شخصية مستضعفة خانعة تحقق أغراضها بالوسائل الناعمة والملتوية وبالتزلف والمكر والخديعة. ويرجع هنتجتون هذا التحول فى الشخصية

الجماعية إلى عملية الانتخاب التى فرضتها تلك المجازر حيث بادت فيها العناصر المناضلة المقاومة، ولم يبق إلا عناصر الجبن والمسكنة والخبث.. الخ ومنها ومن حينها أخذ اليهود طابعهم الذى عرفوا به فى كل العالم حتى اليوم.«٣٤»

وفى العصر الحديث حاول المفكرون الصهاينة المتأثرون فى منهجهم الفكرى بآراء داروين فى التطور الطبيعى، تطبيق هذا المنهج على التطور التاريخى والاجتماعى لليهود شأنهم فى ذلك شأن النازية. لقد فسر هؤلاء المفكرون التيه اليهودى فى الصحراء بعد خروج بنى إسرائيل من مصر على أنه التطبيق الربانى لنظرية الاختيار الطبيعى، وبذلك لا يكون التيه عقاباً لليهود على ضلالهم وفسادهم الأخلاقى، وإنما يصبح محاولة من جانب الرب للقضاء على الضعيف من بينهم، حتى لا يدخل أرض كنعان سوى الأصحاء الأقوياء. وجنباً إلي جنب كان هناك من بين هؤلاء المفكرين الصهاينة من حاول تفسير التيه فى الصحراء على أنه كان مرحلة إعداد روحى لبنى إسرائيل قبل دخول أرض كنعان: «لقد كان اليهودى فى الصحراء فى حالة الميت الحى. إن الصحراء هى مكان الموت، وفى مكان الموت هذا يحدث التجدد الروحى. والصحراء أيضاً هى مكان طاهر غير موجود، وهناك يقوم الشعب باستعداداته من أجل الذهاب إلى البلاد. والرب يطلب

استعدادت دقيقة بالفعل. إن الدخول إلى البلاد، هو دخول ذو مغزى كبير. إنه ليس احتلالاً مادياً فقط للبلاد بواسطة شعب جوال، بل هو احتلال ذو مغزى روحي. ووعد الشعب بالبلاد مقرون بشروط خطيرة لأن القوة بمفردهالن تضمن سيطرته عليها. إن الشعب يستطيع أن يصمد في البلاد فقط إذا ما أطاع صوت الرب وأقام شرائعه. وإذا لم يفعل - فإنه سيتحمل عقوبات شديدة، ذروتها- الطرد من البلاد» «٣٥»

وهذان الاتجاهات في الفكر الصهيوني يقودان إلي نتيجة واحدة جعلت الفكر الصهيوني في نظرته للتاريخ اليهودى وللشخصية اليهودية تفكيراً نبويا نخبوياً، بتأثير فكر نيتشه. إنه يرى أن التطور «مرحلة الصحراء في العصور القديمة ومرحلة الشتات في العصر الحديث» لابد من أن تؤدى إلى ظهور السوبر مان، وإلى ظهور أمة ممتازة من هذا النوع من الرجال الذين يتمثلون القوة والعنف. وهذا التفكير النخبوى حول حياة اليهود في الشتات إلي حلقة وجسر يوصلان إلى ظهور السوبر مان اليهودى، الذى تتأصل صفات القوة والعنف لديه على أرض فلسطين في العصر الحديث، كما اتصلت في العصور القديمة من خلال حلقات غزو أرض كنعان.

وإذا جاز لنا القول بأن أولئك الذين «كانوا عبيداً في أرض

مصر»، وفق رواية التوراة، قد تحولوا إلى غزاة محتلين لأرض كنعان، بعد فترة التيه أو الاختيار الطبيعى، فإن أولئك الذين «كانوا عبيداً فى الجيتو» فى العصر الحديث، قد تحولوا هم الآخرين إلى غزاة محتلين لأرض فلسطين، بعد أن تعرضوا لسلسلة من الاضطهاد بلغت ذروتها فى اللاسامية النازية التى تركت أثراً واضحاً على السمات السلوكية للنمط الصهيونى، ثم على الشخصية اليهودية الإسرائيلية.

لقد نفذ إلى لب مكونات الشخصية اليهودية الإسرائيلية والتى تكمن فى الحقيقة السيكولوجية، حقيقة أن أولئك الذين سبق أن عوملوا باستخفاف من الآخرين يفقدون الثقة فى أنفسهم عن طريق الإدراك اللاشعورى. إنهم قد يحاولون إخفاء هواجسهم الداخلية عن الأشخاص الآخرين باتخاذ الغطرسة، إلا أن افتقارهم الخفى للثقة فى أنفسهم يظل قائماً. ومن أجل هذا السبب نراهم «عندما يجدون الأشخاص الآخرين أضعف منهم» يمارسون معهم نفس الاستخفاف ونفس القسوة اللذين احتملوهما فيما مضى. وهذه الظاهرة معروفة فى علم النفس «بالتوحد فى المعتدى».

لقد تعرض اليهود الأوروبيون للقتل. والعجز والطرد والتشريد، والمهانة على أيدى النازى، مثلما تعرضت لذلك

الشعوب الأوربية، وإزاء هذا الموقف «الصادم» كان المخرج لدى اليهودى هو التوحد فى المعتدى: أن يغدو اليهودى الضحية نازياً له ضحاياه، يقتل بدلاً من أن يُقتل. وهكذا تشكلت فى فلسطين العصابات الإرهابية، وهكذا كانت مذابح دير ياسين وكفر قاسم، ثم كانت التصرفات الوحشية للجيش الإسرائيلى فى الأرض المحتلة بعد حرب يونيو ١٩٦٧، ثم فى لبنان ضد الشعب الفلسطينى على النحو الذي حدث فى مذابح صبرا وشاتيلا، وفى جنوب لبنان أثناء حرب لبنان يونيو ١٩٨٢، وفى أعقاب انتفاضة الأقصى فى سبتمبر ٢٠٠٠، حيث مارس شارون وآلته العسكرية أبشع أنواع القتل والإبادة الجماعية والحصار والتجويع والاغتيالات وحرق المزروعات... إلخ.

«والهدف الجماعي لعملية التوحد بالمعتدي، كما كشفت عنه دراسات التحليل النفسى، هو أن يتحول الحمل ذئباً، وهكذا لا يبقى أمامه خطر يخشاه، لكن العملية أكثر تعقيداً من ذلك بكثير. فعندما يتحول الحمل ذئباً يظل يشعر فى أعماقه بالحمل فى داخله، وتكون شراسته المبالغ فيها لمغالبة خوره ومشاعره القديمة، مغالبة الحمل القابع فى أعماقه. هذا من جانب، ومن جانب آخر يظل يرى فيمن يفرض عليه دور

الحمل، أى ضحيته، يظل يرى فيه نفسه، أى أن القاتل يرى نفسه قتيلاً فى ضحيته، وهنا يستمر فى فعل القتل، وكأنه بذلك يهرب من صورته مقتولاً من ضحاياه، وهو أمر لا يستطيع منه خلاصاً، ومن هنا نجد تفسير ذلك القهر الذى لا يجد القاتل منه فكاكاً، وهو أن يستمر فى القتل كيلا يُقتل، ومع تزايد ضحاياه يتزايد خوفه من الثأر والانتقام. وهكذا فإنه بالقتل يبرر حماية الحياة «٣٦»

وقد كانت نتائج أحداث النازية على الشخصية اليهودية الإسرائيلية بعيدة المدى. فمن ناحية خلقت موقفاً سلبياً تجاه شخصية «يهودى الجيتو» السلبية، المستسلمة، الجبانة، وسعت، كما ذكرنا، إلى خلق شخصية جديدة، نقيضة لها تماما. ومن ناحية أخرى فإن الأمر قد وصل إلى حد اتهام الذات اليهودية بالمسئولية أو التقصير، كما أتهم اليهود الحلفاء بالتقصير فى مساعدتهم على تنفيذ بعض الخطط التى كانوا قد رتبوها من أجل انقاذ اليهود عن طريق نسف معسكرات أو شفيتس وغيرها.

وبالنسبة لاتهام الذات اليهودية بالتقصير، فقد أعرب مراسل الجارديان والأوبزرفر فى القدس، أريك سلفر، عن رأيه فى الموضوع، عند كتابته لسيرة مناحم بيجن الذاتية، حيث قال، إن بيجن كان لديه إحساس بالذنب، كونه يمثل

حركة «بيتار» في بولندا، قد هرب من وارسو عشية الاحتلال الألمانى لها وتخلى عن رجاله، مكتفياً بالنجاة بجلده. والمراسل المذكور، سلفر، الذى قابل عدداً من قدامى الحركة الصهيونية التصحيحية، قال: إن لدى بعضهم اتهامات قاسية ضد بيجن الذى تصرف كالقبطان الذى يسارع أولاً إلى الفرار من سفينته التى على وشك الغرق، بدلا من أن يكون آخر من يترك السفينة، كما تفرض عليه مكانته. وتحدث المؤرخ البرفيسور يهودا بادر بالروح نفسها، لكنه امتنع عن إتهام بيجن بالفرار، تلك التهمة التى يوجهها إليه خصومه. ويذكر البروفيسور بادر أن بيجن قد غادر وارسو بناء على مصادقة من مؤسسات حركة «بيتار» فى بولندا، وأنه حاول العودة إلى المدينة المحتلة لكنه لم يفلح فى ذلك. ولذا فإن حنين بيجن يعذبه، رغم أن وجوده فى المدينة، ما كان «من ناحية موضوعية» لينفع كثيراً ومع ذلك، فإن التخلى عن رفاقه يعذبه ويزيد من عدائه للألمان، علما بأن قادة حركات الشباب الطلائعية وقادة الأحزاب اليسارية بقوا مع رجالهم تحت عبء الاحتلال النازى «وقد عاد عمداً إلى بولندا بعض من كان منهم خارجها أثناء الاحتلال» والكثير منهم لقى حتفه هناك. وهذا الاحساس، وفق تقدير بادر، قد تقوى عندما هاجر أولئك القادة الذين نجوا بأعجوبة إلى فلسطين، وأثاروا لدى بيجن

من جديد أحاسيسه بالذنب. وهناك من يفسر عداءه لليسار الإسرائيلي في كون زعمائه قد صمدوا في الامتحان الذي فشل هو في الصمود فيه. وهناك من يعتقد أن بقاء عرفات ومعظم قادة منظمة التحرير الفلسطينية مع رجالهم في بيروت المحاصرة قد أثار لدى بيجن ولدى شارون أيضا هذه الضائقة، وهناك من يرى، على سبيل المثال، أن حكومة إسرائيل تركت (كما يزعم بعض الزاعمين ومن بينهم آريئيل شارون»، وعرفات يخرج حيا من بيروت ومن طرابلس بعد ذلك، لكي لا يرتسم عرفات في نظر بيجن والتاريخ كبطل أكثر من بيجن.«٣٧»

وقد دفع هذا الموقف زعماء إسرائيل إلي اتخاذ أسلوب خاص في معالجة قضاياهم يتجلى في ملحوظة أبداها بن جوريون في نهاية الأربعينات مؤداها: «لا يهم ما تقوله الشعوب الأخرى عنا، بل المهم هو ما يفعله اليهود».. وربما تفسر هذه الملحوظة لماذا كانت إسرائيل أقل حساسية للرأى العام الدولي دائماً تجاه ممارستها العدوانية إزاء الشعب الفلسطيني.

وقد كان من بين النتائج التي ترتبت على رفض اليهود للسلوك الذي اتخذه يهود الشتات إزاء النازية، واستسلامهم المخزي للذبح دون مقاومة، أن ظهر يهودي من نوع جديد في

فلسطين اعتبارا من منتصف الأربعينات بتأثير الحرب العالمية الثانية، يهودى عنيد، وعدوانى، ومتشائم، ومقاتل. «٣٨»

ويصـــور عـــامـــوس إيلون هـذا التـــحـــول فى كـــتـــابه: «الإسرائيليون، الابناء والمؤسسون» فيقول:

«تصـور قـصـة ايلى فـيزل «الفـجـر» إرهابيـا يهـوديا يبلغ الثامنة عشرة من عمره يقتل رهينة بريطانية انتقاما لمقتل زمـيل إرهابى. وقـد حـدثت القـصــة فى أيام الاضطرابات المعادية لبريطانيا فى فلسطين بعد الحرب العالمية الثانيـة. وكان هذا الشاب من الناجين من معسكر بوختفالد، وهو يرى فى الإرهاب دليـلا على أن اليـهود لم يعودوا اليهود الجـبناء. وقبل ذلك كـان يؤمن بأن رسـالة اليـهـود هى أن يمثلوا هزة التاريخ، وليس العاصفة التى تهزه، وقد أصبح مستعدا لمهمته كجلاد طاردته رياح ماضية، وكان عليه أن يبرر عمله الفظيع وأن يقـتل الرجل. ولكن الفـجـر المأمـول لم يكن فـجـرا على الأطلاق، بل مرحلة أخرى من الليل، وسيكون غداً ليلاً، وليلاً بعد نهار وبعد أسبوع وبعد مائة سنة»«٣٩».

وفى مجال آخر تظهر أبعاد هذا التحول فى الشخصية الإسرائيلية التى توحدت فى المعتدى، فى كتاب «مكشوفون فى برج الدبابة» لشبتاى طيفت عام ١٩٦٧ «إن طيفت يسوق

حوارا قصيراً وشيقا بين المقدم شموئيلى، وضابط شاب يدعى جورجى. والمقدم شموئيلى من أسرة فى القدس، وكان فى الماضى طالبا فى معهد دينى، وفى أواخر الأربعينات أصبح جنديا محترفا، وظل على هذا الوضع منذ ذلك الحين. وفى وسط الاستعدادات المحتدمة للمعركة غاص هذا المقدم الذى كان طالبا فى «المعهد الدينى» فى تأملات مثل:

«إننى اعتقد يا جورجى أننا لا نستطيع تقدير الخسارة التى سببها لنا هتلر. لقد دمر النواة الخلاقة للشعب. إننا شعب تكون من «المعبد»، وليس من أى شئ آخر، ولكنى أعتقد أن الشعب اليهودى اليوم يقوم على ساقين هما «الجيش الإسرائيلى» والمعاهد الدينية فى الولايات المتحدة».

جورجى: الجيش يا سيدى؟ إن الجيش يا سيدى ليس فى الحقيقة هو السمة الأساسية للشعب اليهودى.

شموئيلى: إننى أوافقك على هذا يا جورجى. ولكن لن يعيش الذئب مع الحمل إلا فى آخر الزمان، وحتى يحين ذلك الوقت فإننى أفضل أن أكون ذئباً ياجورجى: نعم يا سيدى القائد:«٤٠»

وفى أثناء حرب لبنان ١٩٨٢ أصدر رئيس الوزراء الإسرائيلى تعليماته إلى أجهزة الإعلام بعدم تصوير ضحايا

الحرب اللبنانية من المدنيين، وإن حدث وظهرت عفوا صورة لطفل لبنانى قتيل على شاشة التليفزيون الإسرائيلى، فإن مناحم بيجن كان يرد على الفور بأن النازيين أحرقوا فى الأفران مليونا ونصف مليون طفل يهودى، ثم لا يلبث أن يجتر ذكرياته العائلية فى هذا الصدد» «٤١».

وعند هذه النقطة يتضح دائماً أن الإنسان الإسرائيلى، بل والمجتمع الإسرائيلى، اتخذ من «النازى» مثلا أعلى له، وهو الأمر الذى يعطى له علم النفس التفسير المقبول: «إذا ما تعرض الفرد لعدوان لا قبل له بمواجهته وأصبحت الهزيمة خطرا يهدد اتزانه النفسى، فإنه كثيراً ما يلجأ إلي اتخاذ مصادر العدوان نماذج يقتدى بها، ومثل عليا يسير على هديها حفاظا على اتزانه النفسى«٤٢».

ويعلق عالم النفس المصرى دكتور مصطفى زيور على جوهر تلك الظاهرة فيقول: «إن التوحد بالمعتدى إذن حيلة لا شعورية تصطنع للتغلب على الخوف من المعتدى»«٤٣».

ويتجسد هذا التوحد فى المعتدى فى اصطناع القوة التى كانت الأداة فى يد المعتدى لكى يتحول الإسرائيلى من مضطهد «بفتح الطاء» إلى مضطهد «بكسر الطاء» يتصرف بقسوة ووحشية.

وقد ذكر هون هيربرت س.موريسون الذى كان رئيسا للمجلس الاستشارى وزعيما لمجلس العموم البريطانى أثناء مناقشات مشكلة فلسطين فى ٣١ يوليو ١٩٤٦: «لقد أحضر الإسرائيليون النازية معهم من أوروبا إلى فلسطين متمثلة فى التعصب والتفرقة العنصرية والتردد والرعب والخضوع للقوة. فهم يحتمون بها لكيلا تدمرهم وتؤدى بهم إلى الزوال» «٤٤»

وقد عبر الأديب الإسرائيلى «عاموس عوز» فى روايته «حب متأخر» «أهافا مئوحيريت) «٤٥» عن نبوءة أدبية تعكس الرغبة فى الانتقام ممن اضطهدوا اليهود فى أوروبا(الروس والنازيين) على حد السواء إنه يرى بعينيه كيف يقتحم جيش الدفاع الإسرائيلى أرجاء أوروبا لينتقم للدم المسفوك: «بغضب عارم تدفقت فجأة طوابير المدرعات العبرية على طول الغابات البولونية المظلمة، وكل من اعترض طريقها كانوا يرشقونه بدفعات النيران، وطوابير نازية طويلة، وخطوط خنادق، وحصون كئيبه وتحركت عاصفة الخراب فى أرجاء بولونيا دون أن تستطيع قوة فى العالم أن توقفها. إن الغضب اليهودى المدرع يجتاح أرض السلافيين، ويكنس الحقول والغابات، ويجرف ويتقدم للأمان .. ويغضب جارف أحرقوا كل الكتائب المشاغبة فى الطريق، بولونية ولتوانية وأوكرانية. وفى عدو لاهث دون توقف، ودون النظر إلى مايدور وإلى ما

يحرق، ثم التقدم إلى الشرق وهنا رأيت موشيه ديان، وهو يرتدى ملابس القتال المعفرة على جسده، يقف هادئاً منتصبا، يقف صامتا ومخيفا وهو يتلقى فى هدوء متجهم وثيقة الاستسلام الجنرال جوير ناتور قائد كيشنيف (٤٦)، وهذه النبوءة الأدبية ليست منفصلة تماما عن الفكر السياسى الصهيونى الذى يرى أن مصالح إسرائيل الاستراتيجية لاتقتصر على الأقطار العربية فى الشرق الأوسط، والبحرين الأبيض المتوسط والأحمر، ففى مقابلة أجرتها الصحفية الإيطالية المعروفة أوريانا فالاتشى مع وزير الدفاع الصهيونى آنذاك آرئيل شارون «جلاد بيروت» بعد حرب لبنان ١٩٨٢ ذكرته الصحفية بتصريح أدلى به فى ديسمبر ١٩٨١ قال فيه: «استراتيجيته التى لم تتغير منذ ذلك الحين وحتى توليه رئاسة الوزراء فى إسرائيل عام ١٩٩٩: «علينا فى الثمانينات، انطلاقا من اعتبارات الأمن، أن ندرج فى مجال المصالح الإسرائيلية، بلدانا كتركيا وإيران وباكستان ومناطق كالخليج العربى وافريقيا، ولاسيما أقطار افريقيا الشمالية والوسطى»، أجابها شارون بقوله: «إن إسرائيل بلد خاص... نحن نستشعر خطر غزو من قبل الاتحاد السوفييتى»(٤٧).

وفى الواقع الذى يتجاوز خيال الأدباء وتصوراتهم، والذى تعكس أبعاده النفسية الإسرائيلية نجد أن الإحساس بحتمية

القوة يتردد فى خطب وأحاديث كل قادة إسرائيل، وخاصة عندما يعقدون المقارنات بين ضعف وجبن اليهودى الجيتوى إزاء تجربة النازى، وبين شجاعة وعدوانية الإنسان الإسرائيلي الجديد، الذى اصطنع لنفسه أدوات العنف والعدوانية، ففى ٢٩ ابريل عام ١٩٧٣، وفى ذكرى مرور ثلاثين عاما على أحداث جيتو وارسو، تحدث دافيد اليعيزر، رئيس الأركان الإسرائيلى، فى ذلك الوقت، عن تجربة النازى ومغزاها، وعن مغزى انتصارات إسرائيل على العرب بقوله:

«ينبض فينا اليوم إحساس بأن القوة هى أمر حتمى، لذلك فقد أقسمنا بأن نكون أقوياء ومسلحين، وقررنا ألا نعتمد على فضل الكرماء، وألا نرهن وجودنا بموافقة الآخرين»(٤٨)، أو على حد قول الأديب الإسرائيلى حانوخ برطوف: «إن التغيير هو أننا نعرف كيف نقتل، والمشكلة هى مشكلة وجود يهودى، فإذا ماحاربت من أجل حياتك.. ولكى نستطيع الوجود فنحن مرغمون على القتال»(٤٩).

ولنقرأ معا تلك الفقرات من حديث أجراه الأديب الإسرائيلى عاموس عوز مع شخصية سياسية مهمة ومؤثرة «على حد قوله» أشار إليها بالحرف «زد» يعبر خلالها عن المفهوم الجديد للقوة عند الشخصية الإسرائيلية، ويؤكد على أن إمتلاك القوة، هو خير وسيلة لكسب احترام العالم

والشعوب، مهما كانت الجرائم التى ترتكب باسم هذه القوة منافية للأخلاق والضمير الإنسانى:

«إنهم يطلقون علينا الآن اصطلاح «اليهود النازيون»، إنهم يريدون تخويفنا، أو الضغط علينا عن طريق تشويه صورتنا، ولكنى أقول لهم إننى لا أبالى بهذا الوصف، وهل فى هذا الوصف ما يشين؟ إننى لا أريد أن أحصل على اعجاب الأغيار وفى سبيل ذلك ألجأ إلى أن أسلك سلوك اليهود، إننى لا أريد أن أكون أفضل من الخمينى أو برجنيف أو الأسد.. إن كثيرين من مشاهير زعماء العالم كانوا قتلة إرهابيين.. فلماذا أكون أنا أفضل منهم من الناحية الأخلاقية؟ إننى أريد أن تنضم إسرائيل إلى هذا النادى الذى يضم مجموعة من الزعماء الأقوياء الذين لا يراعون المبادئ والأخلاق، لأنه حينئذ سيهابنا العالم بدلا من أن يعطف علينا.. صحيح أن العالم سيبدأ فى الإرتجاف خوفا من نزواتنا، بدلا من الاعجاب بنبل أخلاقنا، ولكن فلنتركهم يعوون فى العراء، ويصفوننا بأننا أمة من الكلاب المسعورة.. دع العالم كله يعرف أننا لا نتورع عن إثارة حرب عالمية ثالثة إذا قتل أحد سفرائنا فى الخارج.. كان يهود الشتات يدعون أننا نحن الإسرائيليين فقط الذين تلوثت أيدينا بالدماء فى الحروب، وأنهم هم الاتقياء المتدينون المسالمون الذين لا يعرفون العنف وإراقة الدماء، أما الآن فهم

يتعرضون للانتقاد والهجوم والكراهية، وهذا في صالحنا، لأنهم في النهاية سيرفعون شعارنا القديم الذي يقول: «أيها اليهود.. اذهبوا إلى فلسطين»، وسيضطرون إلى المجئ إلى هنا، لأنه لن يكون أمامهم خيار آخر وسيزداد عدد المهاجرين. إنني لا أهتم بأن يطلقوا علينا أفظع الألقاب، لا يهم، فكل شئ محرم مسموح في سبيل البقاء.. حتى طرد العرب من الضفة الغربية.. فليقولوا عنا إننا نازيون.. ماذا لو قتلنا من العرب مليونا، أو حتى ستة ملايين؟ ماذا سيحدث؟ سيكتب التاريخ عنا صفحتين فقط مجللتين بالسواد، ولكن ثمن ذلك سيكون عظيما.. سيأتي إلينا يهود الشتات ونصبح أمة تعدادها ٢٥ مليونا، أمة تدعو للاحترام، وبعد ذلك سينسى التاريخ ذلك.. ويأتي أدباؤنا ويكتبون روايات عظيمة عن المذابح التي ارتكبناها في حق العرب، ومشاعر الذنب التي تنتاب الجيل الجديد، ويحصلون على جوائز نوبل مثلما فعل أدباء النازية الذين كتبوا عن الشعور بالذنب.

والذي سيحدث أنه بالرغم من هذه الجرائم التي سنرتكبها سنجد أولاد «السفاح هؤلاء في جميع العالم من موسكو إلى بكين إلى واشنطن يتمسحون فينا ويتوددون إلينا، ويخطبون ودنا برغم أيادينا الملطخة بالدماء. ما العيب في أن يكون لكل دولة سجل إجرامي.. إن كل الدول الكبرى لها مثل هذا

السجل، وأصبحت الآن محترمة ومتحضرة ونسيت ماضيها الإجرامى القديم.. هل أخبرك بالخطيئة التى ارتكبها أسلافنا والتى أدت إلى هدم المعبد وإلى الشتات اليهودى، إنها كما يقول الفليسوف اليهودى ميمونيدس «إنهم لم يدرسوا فن الحرب وفتح الممالك».. سأعقد معك صفقة مغرية.. سأقوم أنا بالدور القذر القتل والطرد، وستقوم أنت بالدور الطيب النظيف، ستدعو إلى المظاهرات التى تتعاطف مع مصير العرب السئ.. ستكون أنت الرجل الذى ستتشرف به العائلة، بينما سأكون أنا النقطة السوداء على ثوبها الناصع» «٥٠».

وهذا الحوار بكل ما يحويه يؤكد على أن هتلر لم يقتل من اليهود ما قتل من البشر فحسب، بل إنه أصابهم بعدوى مسمومة أصبحت تجرى فى عروق الكثيرين منهم دون أن يستطيعوا لها منعا، عدوى القتل والتخريب وتلويث أيديهم بالدماء.. إنها صورة من التوحد فى المعتدى، أو مرض الرغبة الدائمة فى الانتقام.. أو الخوف من تكرار ما حدث.

ونظراً لأن تجربة النازى فى حياة اليهود كانت متلازمة مع مشاعر العداء للسامية، ونظرا لأنها كما أوضحنا، ولدت ميلا لدى الإنسان اليهودى الإسرائيلى «للتوحد فى المعتدى» من حيث الرغبة فى القتل الجماعى، فإن الإسرائيليين قد اتخذوا

مما أسموه «الشعارات المعادية للسامية» فى الدعاية العربية ذريعة، على أساس «أحداث النازية» رأوا فيها أن الخصم متمثلا فى العرب هو ممثل «للشر المجرد»، وقد أسقط هذا الأمر فكرة أساسية للصهيونية تنص على أن إسرائيل هى أحد الحواجز بل الحاجز الوحيد فى الواقع لمناهضة معاداة السامية.

ولقد قام يهوشا فاط هركابى«٥١» بتجميع وجدولة كل مظاهر الكراهية والتشنيع على اليهود والصهيونية التى ظهرت فى الصحف والمجلات والكتب الصادرة باللغة العربية فى كتاب يحمل عنوان «موقف العرب من النزاع العربى الإسرائيلى» صدر فى عام ١٩٦٨ فى تل أبيب، وكان أول من وضع نظرية «مناهضة العرب للسامية» التى استغلت فيما بعد فى إسرائيل.

وقد أشار هركابى إلى أنه من بين ١٦٠ كتابا عربيا صدرت عن إسرائيل هناك حوالى خمسين كتابا تتناول «بروتوكولات حكماء صهيون»، وأن بعض المؤلفين يبررون جرائم النازية صراحة ويشيدون بإيخمان بعد إعدامه، ويصفونه بأنه بطل سقط فى الجهاد، والبعض يقوم بإحياء جرائم الدم اليهودية الخاصة بأن رب اليهود لا يكتفى

بالقرابين من الحيوانات ويلزم اليهود بالقرابين البشرية تقربا إليه، ومن هنا نشأت العادة اليهودية بذبح الأطفال، واستنزاف دمائهم لعجين فطائر عيدالفصح، كما قام باستخراج التعبيرات التى تستخدم ضد إسرائيل، وأكد أن جميعها تدور حول الذبح«٥٢»

وهكذا، فإن مثل هذه التأكيدات بالإضافة إلى ظروف الدفاع عن الوجود التى يعيشها الإسرائيليون تجاه العرب توازى العنصرية النازية تجاه اليهود وتتخذ لنفسها نفس الأدوات.

ويفسر الكاتب الإسرائيلى عاموس ايلون هذه الظاهرة بقوله:

«إن كراهية العرب لإسرائيل تبدو نكبة خطيرة فى نظر الأشخاص الذين يحملون ذكرى تاريخية عن مشكلة بالتجربة الشخصية أو عرفوها من مصادرها الأولى. إن هذه الكراهية تبعث على الذعر إذا صحبها، كما حدث، كثير من التهديدات المزعجة بابادة إسرائيل ماديا وسياسيا. ويبدو أن هذه التهديدات لن تنتهى من العالم. وطالما أنها باقية فسيكون لها تأثير قوى على السيكولوجية القومية. إن التهديدات العربية لازالت تدمر الاحساس الطبيعى السليم الذى كان أحد

الأهداف الأساسية للصهيونيين: إن ذكرى أحداث النازى لازالت حية وعندئذ تثير تهديدات الابادة العربية فى قلوب الكثيرين من الإسرائيليين نوعا من رد الفعل الإنعكاسى»«٥٣»

وهذا الالتواء الفظ فى مواجهة الحقيقة يضطر ليون أوريس لتكوين أربعين صفحة من روايته «Exodus» «الخروج» لشرح تفصيلى ومبالغ فيه للمذابح الهتلرية على لسان طفلة، ليدخل عبر هذه البوابة البدائية نحو تبرير جرائم ارتكبها اليهود بعد عشر سنوات، وعلى بعد عشرة آلاف ميل وضد شعب لا علاقة له بألمانيا الهتلرية، والشئ نفسه يفعله ميتشير فى روايته «الينبوع» «The Source»، حيث نجد شيئاً أكثر فظاعة من ذلك: فاليهودى بات، مثل المفجوع بمقتل حبيبته سارة، ينسف دبابتين عربيتين ويضرم فيهما النار «كان متعبا، ولكنه أحس بجسده خفيفا بصورة لا تصدق، استدار نحو الدبابتين: هذا من أجلك يا سارة، من أجلك». وسارة هذه ماتت فى معسكر للعمل القسرى فى ألمانيا الهتلرية، ويروى الحبيب المفجوع مأساته بعد عشر سنوات من موتها، وعلى بعد عشرة آلاف ميل من المعسكر ماتت فيه، وضد العرب، وليس ضد الألمان، ثم يجد ذلك كله منطقيا للغاية»(٥٤).

وفى مسرحية «الوطنى» (هياتربوت) للأديب الإسرائيلى حانوخ لفين نجد تجسيدا لهذا الموقف، حيث يقف طفل يهودى في مواجهة جندى ألمانى، ويطلب الطفل أن يهبوا له حياته، وفى اللحظة التى يتذكر فيها «الوطنى» الطلقة التى قتلت الطفل اليهودى، يطلق «الوطنى» طلقة حقيقية على العربى الملقى أمامه. «٥٥»

وقد أثارت هذه المسرحية خلافا وجدلا كبيراً فى إسرائيل، وتدخلت الرقابة لمنع عرضها. ولكن بالرغم من هذا لابد من التساؤل: هل يحق للإسرائيليين أن يفرغوا أحقادهم فى شعب آخر؟ هل تعوض الجريمة بالجريمة؟ هل من الحق أن يطالب الفلسطينيون وسائر العرب بدفع ثمن جرائم لم يرتبكوها تعويضا عن فظائع النازية؟.. وقد وصف عدنان الباجهجى، مندوب العراق فى الأمم المتحدة هذا الموقف غادة حرب يونيو ١٩٦٧ بقوله:

«إن الغزو الصهيونى يستمد الوحى والقوة الدافعة لتصرفاته، من أحلام وتطلعات تلك الأرواح التى تعرضت للتعذيب فى الجيتوات الأوروبية، إذ يبدو أن السنوات الطويلة من الاذلال والاضطهاد اللذين عاناهما اليهود فى أوروبا والذى بلغ ذروته فى عمليات الابادة الهتلرية، قد تركت شرخا عميقا فى البنية الروحية لليهود الأوروبيين الذين يقودون

إسرائيل اليوم، وهكذا فإن أحقاد مئات الأعوام تجد اليوم، متنفسا لها من خلال الوحشية التى يعامل بها العرب على نحو لم يسبق له مثيل قط. ولكن أى قدر ساخر قاس هذا الذى يجعل اليوم العرب الذين كانت أراضيهم ملاذا لليهود يفرون إليها من الفظائع الرهيبة التى كانوا يتعرضون لها فى أوروبا خلال القرون الوسطى، ضحايا لاضطهاد بهذا المستوى من القسوة على أيدى اليهود بالذات» «٥٦». وقد وصلت تأثيرات فظائع النازية على السيكولوجية القومية فى إسرائيل إلى ذروتها فى الأسابيع التى سبقت حرب يونيو ١٩٦٧. لقد استولى الفزع على الإسرائيليين بما فيهم الكثير من الشباب، واعتقد الكثيرون أن المصريين الذين كانت نداءاتهم متعطشة للدماء، وتتردد كل ساعة فى الراديو يدبرون لهم نكبة يهودية جديدة. إن المؤسسة الإسرائيلية تنمى حاسة اليهودى باستمرار لتحقيق أكثر من هدف. وأهم هذه الأهداف هو دفع الإسرائيلى للقتال بشراسة تحت ستار «الدفاع عن النفس من خطر الابادة» ، وايهام العالم الخارجى بمدى الخشية الإسرائيلية من خطر الابادة العربية . وقد شهد الكثيرون من المراقبين بقدرة هذه المشاعر فى تلك الفترة ، حيث تنفجر فيها عقدة المسادا الانتحارية وتحل كل المشاكل الشخصية ، وتتآلف الأحزاب المتعارضة ، وتنشأ حكومة

قومية ويبحثون عن بطل قومى . وهكذا نرى أن مأساة نكبة اليهود تركت أثرا لا يمحى فى بلورة الشخصية الذاتية التاريخية الإسرائيلية ، وفى السيكولوچية القومية الاسرائيلية ، وفى مفهوم الحياة العامة ، وإدارة السياسة الخارجية والتعليم والأدب والفنون .

والغريب فى الأمر، أن هذه الروح العدوانية التى ولدتها ذكرى النازى ، والتى ترى فى الإنسان العربى النموذج المثالى لتفريغ غرائز العنف التى تولدت لديها ، قد انعكست بشكل لا إرادى فى ممارسات للعنف بين الإسرائيليين المنقسمين على أنفسهم تجاه القضايا المصيرية ، وخاصة تلك المتصلة بمصير الشعب الفلسطينى ، أو مستقبل الدولة الفلسطينية ، وغيرها من القضايا التى تلقى تأييدا من جانب قطاع من الجمهور الإسرائيلى . فمن المعروف أن اليهود الذين هم من أصل عربى ، يشعرون فى إسرائيل بالتفوق على العرب الذين كانوا فى الماضى غير البعيد أسيادهم ، ويمارسون تجاههم أبشع أنواع العنف . وهؤلاء اليهود العرب، أو من على شاكلتهم حينما يرون أن عناصر معينة فى إسرائيل متعاطفة مع العرب ، أو مع منظمة التحرير الفلسطينية ، فإن المشاعر المتزايدة ، والرغبات الشديدة من

أجل الإضرار بالعربى وبمنظمة التحرير الفلسطينية تتداخل عند هؤلاء اليهود . وعلى سبيل المثال : إذ كان هناك شخص ما يصنف حركة «السلام الآن» بأنها متعاطفة مع منظمة التحرير الفلسطينية ، ومن الصعب على اليهود المتعصبين الإضرار بالمنظمة لأنها بعيدة عن الشارع الإسرائيلى الذى يغلى بغرائز العدوانية والعنف ، فإن الشخص العدوانى يسرع إلى تحويل عدوانيته إلى الأقرب لديه ، والذى يصنفه على أنه عدو ، وهو فى هذه الحالة حركة «السلام الآن» .

ومما يثير الدهشة فى هذا السلوك من جانب الشخصية اليهودية الإسرائيلية ، ذلك البعد المتصل بالذاكرة اليهودية . إن الذاكرة اليهودية التى تشكل إحدى الدعاوى الأساسية لإدعاء الحق على فلسطين عاجزة عن الاعتراف بحث الآخرين بالتمتع بحاسة الذاكرة والتذكر . إن الإسرائيلى يرفض التعايش مع الذاكرة الفلسطينية ويرفض الاعتراف بها . إن صورة العربى الفلسطينى على أرض الوطن المزعوم فى فلسطين ظلت عبئا على الضمير الإسرائيلى ، ثم تحولت إلى ديكور طبيعة ، ثم استقرت بعد ذلك على صورة عدو لابد من ابادته ، ولا حق له فى الوطن ... لا حق له على الإطلاق ، بالرغم من صرخات الضمير النادرة التى يطلقها من حين

لآخر أديب إسرائيلى أو سياسى إسرائيلى ، والتى تؤكد على أن الوطن الاسرائيلى لم يقم لا بالحق ، ولا بالتاريخ ، ولا بالهرب من الاضطهاد بل بالعنف وحده .. نعم بالعنف والدم .. إن الإسرائيلى يباهى الدنيا بأنه رائد اللجوء والغربة فى التاريخ ، حتى حول هذه الصفة إلى ميزة وامتياز ، ولكن من يملك حاسة اللجوء والغربة أصبح عاجزا كل العجز عن ادراك هذه الحاسة لدى الآخرين .

ويؤكد الصحفى الصهيونى يعقوب تيمرمان على هذا الصراع عند حديثه عما ارتكبه جيش الدفاع الإسرائيلى من فظائع ضد المدنيين أثناء حرب لبنان ١٩٨٢ فيقول : «إن التركيب النفسى للشخصية اليهودية غير عادى ، فكل يهودى يحمل فى داخله أثر جرح نفسى قديم أو حديث نتيجة للاذلال الذى تعرض له ، وبالتالى فإن هذه الشخصية أحوج ما تكون للبطولة والشفاء من هذه الجراح . ولكن ما حدث فى لبنان أبعد ما يكون عن البطولة التى يحتاج إليها الشخص اليهودى، وبدأ السؤال الذى يردده الجميع : هل البطولة العسكرية هى صورة هذا الرجل الحسن الذى يبحث فى الأنقاض عن حفيده ، أو هذا الرجل الذى يفر هاربا من الجحيم حاملا بين ذراعيه ابنته ذات السنوات العشر، أو

صورة مجموعة من الرجال والأطفال والنساء ترفع يدها للاستسلام ، ويحيط بها حراس إسرائيليون مدججون بالسلاح ، وهؤلاء الأسرى ترتسم على وجوههم وتنطق عيونهم بعبارة لا يفهمها إلا اليهود الذين عانوا من قبل من الشعور بالاذلال ؟ . ومع ذلك فحرام علينا أن نعقد المقارنات بين ما يحدث اليوم لهؤلاء العرب وبين ما حدث لنا فى الماضى ، لأننا لو عقدنا هذه المقارنات لاتضح أن الجرائم التى ارتكبت فى حقنا بالأمس هى نفس الجرائم التى نرتكبها اليوم» .

وإذا كان الإسرائيلى الرسمى لم يغير نظرته حيال هذه القضايا بالرغم من التشابه الصارخ بين مشكلة اللاجئين العرب وبين اليهود الذين كانوا دوما أمة من اللاجئين ، فإن بعض الإسرائيليين الشبان اندهشوا جدا من المواجهة الفجائية خلال حرب يونيو ١٩٦٧ مع هذه المعاناة والآلام العظيمة ، وأخذت البيانات الإحصائية والشعارات المجردة فجأة أبعادا إنسانية أدركها الجميع . ويمثل اعتراف جندى شاب ورد فى كتاب «سيياح لوحاميم» (أحاديث المقاتلين) هذه النقطة . ففى أيام الحيرة الأولى التى أعقبت الحرب هرب آلاف من العرب من الضفة الغربية المحتلة ، قال أحد الشبان عندما ذكر هذه الهجرة الجماعية : «إذا كنت فى هذه الحرب

قد تذكرت نكبة اليهود فى أوروبا .. فلقد حدث هذا الأمر فى لحظة معينة حينما كنت فى طريق القدس ، وكان اللاجئون يتدفقون أمامنا فى اتجاه نحو الأردن .. لقد شعرت على الفور بالتعاطف معهم . حينما رأيت هؤلاء الأطفال المحمولين على أذرع آبائهم ، رأيت فيهم نفسى محمولا بين ذراعى أبى .. ولقد ذكر جندى آخر أنه حينما دخل معسكر اللاجئين لكى يقوم بعملية تفتيش ، شعر بأنه «رجل جستابو» ...

ويذكرنا هذا بقول الفليسوف الألمانى هيجل : «إن تقتل فإنما نفسك تقتل» ، ذلك لأن قدر الإنسان الذى لا مهرب له منه أنه لا يوجد إلا فى آخر ، ذلك الآخر الذى رغم آخريته ، ورغم تمايزه وانفصاله واستقلاله ، إلا أنه فى نهاية المطاف هو المرآة التى يرى فيها الإنسان ذاته . ففعل القتل إذن ، بقدر ما هو حماية للذات من خطر ، لا مفر للقاتل من أن يرى نفسه مقتولا فى ذات القتيل» .

وقد فوجئ كثيرون من الجنود الإسرائيليين لدى مواجهتهم للعدو بأنهم اكتشفوا بين الفلسطينيين نوعا من «الصهيونية العربية» . إن ذكرى الوطن الذى ضاع مازالت حية فى أذهانهم . وقد اكتشف أحد الجنود فى «أحاديث المقاتلين» : «أنه لدى دخوله لأحد معسكرات اللاجئين اكتشف أن سكانه

مازالوا منظمين طبقا للعشائر الأصلية ، ويقيمون فى وحدات سكنية طبقا القرية والمدينة ، بل والشارع الذى كان يقيمون فيه قبل شتاتهم عام ١٩٤٨ ، تلك القرى والمدن التى أصبحت الآن إسرائيلية تماما : بئر السبع وزار نوجه والرملة واللد ويافا وعكا وصفد :

شاى : إننى أذكر أن هذا جعلنى أغلى .

عاموس : لماذا ؟

شاى : إننى لم استطع أن أفهم . لقد مرت تسع عشرة سنة فكيف تستطيع أن تقول : إنك من زار نوجة ؟ أو أنك من بئر السبع ؟ أو إنك من رجوت ، لقد أثار هذا سخطى .

عاموس : والآن ؟

شاى : لقد أدركت الآن وفهمتهم تماما .

عاموس : ألم تشعر باحترام لأشخاص يحفظون الود لديارهم ، وللمكان الذى ولد فيه آباؤهم ؟ إننا فى تعليمنا كنا نقول : إننا لن نفقد الأمل فى العودة لأرضى آبائنا . إن هذا الأساس كان موجودا لدينا . فنحن أيضا نشأنا على حفظ الود للمكان والديار والأرض والبلاد الضائعة ، وأسطورة البلاد الضائعة هى أيضا أسطورتنا . ألم تربط الأمور ؟

شاى : عندما أحاول اليوم تحليل هذا فإننى أقول : إن هذا غير واضح من ناحية أن مأساتهم مأساة ... وفى نظرى لا يبدو أى مانع اليوم من أن يعيشوا بيننا . إننى أعرف أن هذه مشكلة سياسية ... ولكن يبدو أنه ليس لدى أى مانع .. نعم ... ليس لدى مانع فى أن يوجد عرب فى زار نوجه وبئر السبع وأن يقولوا إنهم سكان زار نوجه أو بئر السبع .

ولكن هل هذا الاعتراف بالذاكرة الفلسطينية وبالوطن الفلسطينى يمثل الحقيقة ؟ إنه لا يتعدى أكثر من كونه أزمة أخلاقية فى مواجهة الواقع المرير الذى يستجلب حالة من المقارنة مع التجربة اليهودية ، إن ما تدعيه إسرائيل من حساسية تجاه ما تعتبره ظلما لاحقا باليهود فى أى مكان بالعالم ، سرعان ما يتحول إلى عمل مشروع حين تمارسه ضد العرب . وما كان يعتبر وحشية عندما كان يمارس ضد اليهود ، سرعان ما يتحول إلى واجب قومى عندما ينفذ بالسلاح اليهودى «الطاهر» عندما يتم تطبيقه ضد العرب . وليس عربيا القائل : إن الصهيونية «تعتبر العمل الواحد حقا وصوابا إذا قامت هى به ، وخطأ غير مشروع إذا قام به غيرها» . بل القائل هو موشيه سيملانسكى ، الذى قال : إن القومية اليهودية فى فلسطين مبنية على أنانية عسكرية من العنف ، وبعيدة كل البعد عن الإنسانية .

ومـرة أخرى يـحدث التـقـابل بين ذكرى فظائع النازى فى إسرائيل ، وبين الشعور بالخزى والغضب والمهانة الذى أحدثه بين العرب نجاح إسـرائيل المتكرر . عندمـا كنا نمر فى أحـد الشوارع سمعنا صيحـات من النوافذ تقول «شالوم» أى سلام باللغة العبرية ، كمـا حيانا بعض المارة بنفس العبـارة . وقد يفسر الإسرائيليون ذلك على أنه علامة ترحيب بنا من جانب اللبنانيـين ، ولكن هناك جانب آخر من الحـقيقة ، فكل إنسان قد يضطر بسبب الظروف أن يتكيف مع الأوضـاع السـائدة ، والظروف السائدة هنا هـى الخوف الدائم ، ويعلمنا التاريخ أن كثـيرا من الشـعـوب تعلم لغـة الغزاة ، وأقول كم مـرة اضطر اليهود إلى مجـاراة الفاتحين فى لغـاتهم وعاداتهم ، كذلك فان كلمـة «شـالوم» هنا قـد تعنى الخوف وليس الترحـيب . وهكذا نجـد أن كـلا من العـرب واليـهـود ينوء تحت عبء مـشـاعـر متشابـهة ، ويرتبط «من الناحـيـة السيكولوچيـة» كل بالآخر ، ويدور «من الناحية السياسية» فى حلقة مفرغة .

إن ذكرى فظائع النازية ، كما أسلفت القول ، تدفع اليهود إلى ادخـار قوة داخلية لا تقتصر على منع الهزيمة فحسب ، بل تحتم ضرورة الانتصـار . ولكن الفكر الصـهيونى المعاصر يحـرص على الاحـتـفـاظ بعنصـر رئيس من عناصـر التكوين

السيكولوچى الإسرائيلى المعاصر ، وهو أنه لا مكان فى ذلك التكوين ليهودى منتصر ، بل هناك فقط مكان ليهودى يرد اعتداء ، أو يستعد لحماية نفسه من اعتداء ، وإذا لم يكن هناك فى الواقع ثمة اعتداء أو تهديد باعتداء عندئذ يكون من المحتم الايهام بكل ذلك حتى تذوى سريعا صورة «انتصار اليهودى» ، ولتحل محلها صورة «مخافة اعتداء العرب» .

وإذا شئنا تبسيطا للقضية ، فإن «اليهودى المنتصر» إنما يعنى بالفعل ، فى إطار الفكر الصهيونى ، أن اليهودى لم يعد يهوديا ، أو بعبارة أخرى ، إن التكوين السيكولوچى القديم لليهودى قد انهار ، وحينئذ يصبح على الفكر الصهيونى الإقدام على عملية بالغة الصعوبة والتعقيد ، وهى تشكيل تكوين سيكولوچى جديد لليهودى الإسرائيلى . وهى العملية التى بدأت بوادرها بالفعل على ضوء الواقع الإسرائيلى الجديد .

مراجع وهوامش
الفصـل الرابـع

١ – حفني . قدرى : الإسرائيليون ، من هم ؟ الباب الثالث ص٣٩١
٢ – هلال ، على الدين : م. س . ذ ، ص ٨٥ .
٣ – اليهـودية الأرثوذكسيـة : تعتبر بمـثابة رد فعـل رجعى للتيارات التنويرية والاصـلاحية بين اليـهود فى العـصر الحـديث ، وأهـم مـا يمـيز اليـهودية الأرثوذكسية أنها تدافـع عن كل المقـولات اليـهودية التـقليدية ، والأسـاطير القـديمة بكل بسـاطتـهـا ومـجـافـاتهـا لحـقـائق التـاريخ والواقـع . فـالدين اليهودى حسب تصـورهـم ليس مجرد عقيدة يؤمن بها اليهودى كفرد ، بل هو نظام دينى يفسر تـاريخ اليهود ، ويغطى كل جوانب الحياة اليهودية . ويعتقد الأرثوذكسى اعـتقـادا حـرفيـا فى صـحـة الأسـاطير اليـهودية مثل الايمان بالعـودة الشـخصية للمسـيح والعودة لفلسـطين ، وأن اليـهـود هم الشـعب المختار الذى يجب أن يعيش منعزلا عن الناس لتحقيق رسـالته . واليهـودية . الأرثوذكسـية تسـيطر على الفكر الدينى والحياة الدينية فى المجتمع الإسرائيلي عن طريق المؤسسـات الدينية والاحزاب الدينية اللتان تشكلان قاسما مشـتركا للسـلطة الحـاكمة فى إسـرائيل منذ قيامها حتى الآن .
٤ – عطارى . عـادل توفـيق : التـربيـة اليـهـودية فى فلسطين المحـتلة و«الدياسبورا» ، ص ١٢٤ – ١٢٥ .
٥ – ايزنشتادت . ش . ن : م . س . ذ ، ص ٢٣٣ .
٦ – حفنى . قدرى : م . س. ذ ، ص١٠٦ .
٧ – ايزنشتادت . ش . ن : م. س. ذ ، ص ٢٣٣
٨ – عوز . عاموس : فى أرض إسرائيل ، ص ٣٨ .
٩ – عبدالوهاب المسيرى: اليهودية والصهيونية وإسرائيل ، ص ٢٦٠ .

١٠ – كينن . عامـوس : «دانى – إحياء لذكراه» (دانى لز خرونو) ، صحيفة هاآرتس ١٩٥٢/٦/٦ .

١١ – روبنشتين . امنون : م . س. ذ ، ص ١١٩ – ١٢٠

١٢ – ايلون . عاموس : م. س. ذ ، ص ٢٨٦

١٣ – لافين . جون : م. س. ذ ، ص ١٤٩ .

١٤ – كلمة «بولموس» العبرية هى اصطلاح تلمودى مشتق من الكلمة اليونانية () وتعنى النهم الشديد ، أو الجوع الشديد ، أو الشهوة العارمة نتيجة الصيام أو الكبت .

١٥ – ايلون . عاموس : م. س . ذ ، ص ٢٨٣ – ٢٨٤ .

١٦ – كان اهرونسون من أسرة الرواد الأوائل من رومانيا التى استطونت مستوطنة زخرون يعقوب ، فى سنة ١٨٨٢ ، وقد كان عالما لامعا متعدد الاهتمامات . فقد كان عالم نبات ومهندسا زراعيا وجيولوجيا وجغرافيا . اشتهر عالميا بكشف أم الصحح فى سنة ١٩٠٦ ، وكان كشفا له أهميته للمهندس الزراعى ومؤرخ الحضارة . وفى الحرب العالمية الأولى رأس اهرونسون شبكة تجسس فى فلسطين كانت تمد المخابرات البريطانية بالمعلومات الحيوية قبل احتلال الجنرال اللنبى لفلسطين .

١٧ – كتاب بن تسفى الصغير عن يهود فقيعين – الذى نشر لأول مرة فى ١٩٢٢ افتتحه بأسلوب خطابى مميز : «مثل الأساطير القديمة ومثل صدى الصوت المنبعث من حجب فئات السنين ، يدوى النبأ عن وجود بقايا الفلاحين اليهود القدامى فى فقيعين» .

١٨ – ايلون . عاموس : م. س. ذ ، ص٢٨٤ .

١٩ – هذه البرديات تم شراؤها من تجار عرب عن طريق وسطاء مختلفين . وقد أعلن رئيس الوزراء نبأ شرائها فى بيان رسمى فى الكنيست وهى تشتمل على كتابات خطية من القرن الأول لسفر اشعيا ، وهو أقدم من أية نسخة خطية عبرية للعهد القديم .

٢٠ - كانت معروفة من قبل ، بألف سنة على الأقل ، مثل حرب أبناء النور وأبناء الظلام ، وتضم سفر حبقوق وبرديات أخرى . وأضافت إليها اسرائيل فى حرب ١٩٦٧ برديات أخرى من كهف قمران (بردية التقديس وبرديات أخرى) ، وحفظت فى متحف روكفلر فى القدس الشرقية .

٢١ - راجع . ب . بول وارید : اعداد الجلد والرق بواسطة جماعة لفائف البحر الميت ، ومراجعة وتعليق دكتور رشاد الشامى .

٢٢ - ايلون . عاموس : م . س . ذ ، ص ٨٥ .

٢٣ - نفس المرجع ، ص ٨٧ .

٢٤ - نفس المرجع ، ص ٢٨٨ .

٢٥ - حفنى . قدرى : م. س. ذ ، ص ٢٢١ .

٢٦ - ميجد . اهارون : «رحلة فى آب» (مَسَّاع بيآف) ، ص٨ .

٢٧ - ايلون . عاموس : م. س. ذ ، ص ٢٣٧ - ٢٣٨ .

٢٨ - بيتلحمى . برونو : أطفال الحلم ، ص ٢٥٥ - ٢٥٦.

٢٩ - تيمرمان . يعقوب : م . س . ذ .

٣٠ - ايلون . عاموس : م. س. ذ ، ص ٢٣٧ - ٢٣٩ .

٣١ - نفس المرجع ، ص ٢٤١ .

٣٢ - شيدل . فرانس جوزيف : اسطورة اسرائيل ، ص ١١ - ١٢ .

٣٣ - التوحد فى المعتدى : (identification) ويقصد بالنسبة لليهود الإسرائيليين اتخاذ عنف وقسوة النازى مثلا أعلى ، ويعنى به فى نفس الوقت الاقتداء . ويستخدم فى علم النفس اصطلاح آخر للدلالة على نفس المعنى ، وهو اصطلاح «الإزاحة» (displacement) أى إزاحة هدف العنف والقسوة من مصدر العنف الأصلي إلى هدف آخر ، وهو ما يمكن أن يطبق على حالة الاسرائيليين الذين يزيحون عنف النازى إلى الوطن والشعب العربى الفلسطيني بدلا من رده إلى النازى المعتدى ذاته .

والمثال على ذلك حينما يعنف أحد المديرين موظفا خاضعا لادارته ، فإن هذا الموظف لا يستطيع أن يرد عدوان المدير ، ولكنه يزيح هذا العدوان على من يرأسهم ، أو على من يخضعون لسيطرته مثل زوجته أو أطفاله في المنزل وهكذا . وقد فضلنا استعمال مصطلح «التوحد فى المعتدى» لأنه أكثر دلالة فى الحالة المعنية .

٢٤ – حمدان . جمال : اليهود انثروبولوجيا ، ص٢١ .

٢٥ – يهو شواع . أ. ب: م. س. ذ ، ص ٣٢ .

٣٦ – فرج . فرج أحمد : م. س. ذ ، ص ٢١٤ .

٢٧ – برويس . تيدى : سنوات بيجن فى الحكم ، مجلة صوت البلاد ، ١٩٨٥/٦/١٩ .

٢٨ – كان الشاعر اليهودى الروسى حييم نحمان بياليك (١٨٧٣ – ١٩٣٤) أول من ثار على روح الاستسلام والخنوع عند اليهود في مواجهة ما يعانونه ، أو يتعرضون له من مذابح فى شرق أوروبا . وكتب قصيدته المشهورة «فى مدينة الذبح» (بعير ههريجا) والتى وصف فيها مذبحة كيشنيف التى أسست في أعقابها منظمة «هشومير» (الحارس) ، وهاجم الشاعر اليهودى الروسى شاؤول تشرنحوفسكي (١٨٧٥ – ١٩٤٣) أيضا في أشعاره روح الخنوع اليهودية ، ودعا إلى الروح الكنعانية المتمثلة فى القوة والعنف والجمال متأثرا بذلك بالروح الهلينية.

٣٩ – ايلون . عاموس : م . س. ذ ، ص٢١٤ .

٤٠ – طيفت . شبتاى : «حسونيم بتسريح» (مكشوفون فى برج الدبابة) ، ص ١٤٩ .

٤١ – تيمرمان . يعقوب : م . س . ذ

٤٢ – حفنى . قدرى : تجسيد الوهم ، ص ١٩٠ .

٤٣ – زيور . مصطفى (دكتور) : التفسير النفسى للسلوك الإسرائيلى ، ورحلة اليهودى التائه من الجبن إلى الطغيان .

٤٤ – شيدل . فرانس جوزيف : م س . ذ ، ص ٤٥ .

٤٥ – عوز . عاموس : حب متأخر (أهافا مئوحيرت) .

٤٦ – كيشنيف : مدينة روسية حدثت بها مذابح ضد اليهود عرفت باسم «بوجروم» عام ١٩٠٢ ، وتركت أثرا فى الوجدان اليهودى انعكس على الأدب العبرى الحديث ، وخاصة فى قصائد شاعر القومية اليهودية حييم نحمان بياليك الذى كتب عنها قصيدة بعنوان (فى مدينة الذبح) (بعير ههريجا) ، كانت السبب المباشر وراء تنظيم اليهود فى روسيا لفرق الدفاع الذاتى .

٤٧ – صحيفة الثورة العراقية ١٩٨٣/١/١٢ ، تحت عنوان «مصارحات جلاد بيروت» نقلا عن مجلة شتيرن الألمانية ، ص ١٠ .

٤٨ – برطوف . حانوخ . «٤٨ عاما وعشرون يوما آخرون» الجزء الأول ، ص ٢٦١ .

٤٩ – الشامى . رشاد : الأدب الاسرائيلى لجيل حرب ١٩٤٨ بين الالتزام الصهيونى والبحث عن الذات ، مجلة شئون فلسطينية (٩) ، ص ١١٦ .

٥٠ – عوز عاموس : م. س. ذ ، مجلة المصور ، ص٣٩ .

٥١ – يهوشافاط هركابى : رئيس المخابرات الإسرائيلية الأسبق ، واستاذ التاريخ المعاصر للشرق الأوسط بالجامعة العبرية ، وعضو وفد إسرائيل بالأمم المتحدة سابقا : يعتبر من أشهر مجموعة المستشرقين والمستعربين الإسرائيليين . وهو صاحب أفكار تتفق مع المفاهيم الرسمية الإسرائيلية تجاه الصراع العربى الإسرائيلى . بفضل ماضيه والاعتبار الذى كان يستمده منه ، أحدثت آراؤه أصداء واسعة النطاق كما نشرت أجهزة الإعلام الإسرائيلية فى إسرائيل وفى الخارج على حد

السواء الكثير من الكتيبات الصغيرة التى أصدرها . ومفهوم هركابى يعتبر بصفة خاصة مفهوما سيكولوجيا ، وينطوى على أفكار تتعلق بالمشاعر مثل الحقد . ويولى الايديولوجيات والفلسفة التاريخية اهتماما أكبر من ذلك الذى يوليه للمصالح السياسية والاقتصادية أو للقوى الاجتماعية ، فهو يرى أن العوامل الثقافية والنفسية هى التى تمنع المجتمع العربى من قبول وجود إسرائيل ... وهو يشير إلى المفاهيم التى يعرضها المستشرق الأمريكى هارولد د. جليدين (الذى يرى أن جوهر الصراع العربى الاسرائيلى يرجع إلى الطابع القبلى البدوى للعرب الذى يولد «الخجل» ويمنع العرب من تبنى وجهة نظر منطقية . وهكذا فإن هركابى يرى نوعا من «المحدودية الثقافية والنفسية» التى تضفى على الثقافة العربية اعراضا تمنعها ومن العيش بصورة مشتركة مع إسرائيل . وبناء على ذلك لا يبقى سوى استخلاص النتيجة التى تفرض نفسها فى هذا الشأن ، ومؤداها ، أنه نظرا لتكوين العرب ، فإن كل المحاولات التى تبذلها إسرائيل للاقتراب منهم تفتقر إلى أى معنى . وقد ألقى هركابى كارثة حرب أكتوبر ١٩٧٣ بالنسبة لإسرائيل على أكتاف الذين لم يعد لتأثيرهم على السياسة الإسرائيلية أى وزن على الإطلاق ، منذ عدة سنوات ، ألا وهم المعتدلون أو «الحمائم» الذين خدروا المجتمع الإسرائيلى بكلمات معسولة عن اتجاهات السلام لدى المعتدلين من العرب .

٥٢ – راجع : ياسين . السيد : الشخصية العربية بين المفهوم الإسرائيلى والمفهوم العربى ، ص١٣٧ وما بعدها .

٥٣ – كنفانى . غسان : فى الأدب الصهيونى ، ص١٢٩ .

٥٤ – ايلون . عاموس : م. س. ذ ، ص٢١٨ .

٥٥ – روزنتال . روبيك : «العرض المزدوج للباتريوت» (هتساجا هكفولا شل هباتريوت)، صحيفة على همشمار ٢٩/١٠/١٩٨٢ .

٥٦ – أتوف . ترياكا : دور إسرائيل في خدمة الامبريالية، ص ١٦٥ .

٥٧ – درويش . محمود : يوميات الحزن العادى ، ص٥٦ – ٥٧ .

٥٨ – تيمرمان . يعقوب : م. س. ذ .

٥٩ – أحاديث المقاتلين (سياح لوحاميم) : فصول إنصات وتأمل ص ١٦٣ .

٦٠ – فرج . فرج أحمد : م. س. ذ ، ص٢٠٩ .

٦١ – ايلون . عاموس : م. س. ذ ، ص ٢٦٤ – ٢٦٥ .

٦٢ – درويش . محمود : م. س. ذ ، ص١١٣ .

٦٢ – بالطبع لقد خففت حرب أكتوبر ١٩٧٢ كثيرا من هذه المشاعر .

٦٤ – تيمرمان . يعقوب : م. س. ذ .

٦٥ – حفني . قدرى : م. س. ذ ، ص١٠٤ .

الفصل الخامس

جذور ودوافع الروح العدوانية
تجاه العرب فى
الشخصية اليهودية الإسرائيلية

سعت بعض الدراسات التى قام بها بعض علماء النفس من الإسرائيليين والأمريكيين فى محاولة منهم لتفسير «الروح العدوانية» تجاه العرب لدى الشخصية اليهودية الإسرائيلية إيعاز هذه الروح العدوانية إلى عوامل ومثيرات خارجية تتمثل فى اطار درء الأخطار التى تتهدد الوجود الإسرائيلى والمتمثلة فيما يطلقون عليه «بحر العداء العربى» ، والتهديدات الخارجية التى يشكلها هذا «العداء» بأشكاله المختلفة من حروب وهجمات من الفدائيين الفلسطينيين، وفى الحقيقة ، فإن مثل هذه التفسيرات ، التى تعتمد على المنهج السلوكى الفردى وتحاول تطبيقه على السلوك الجماعى ، إزاء الاستجابة العدوانية ، وتناسبها طرديا مع شدة الاحباط أو تزايد حجم التهديد ، قد يكون مقبولا فى بعض جوانبه ، ولكنه يغفل ظاهرة أساسية من ظواهر التكوين السيكولوچى التاريخى والايديولوچى للشخصية اليهودية الإسرائيلية ، على امتداد مراحل تكوين هذه الشخصية منذ مرحلة انعزالية «الجيتو اليهودى» ، ومرحلة الانعزالية الصهيونية ثم الانعزالية اليهودية الإسرائيلية ، وهى المراحل التى خلقت وعملت على تثبيت ظاهرة «الروح العدوانية» فى الشخصية اليهودية

الإسرائيلية كرد فعل لكل هذه المراحل ايديولوجيا وتاريخيا ونفسيا .

إن الباحث الأمريكي بارى بليخمان قام بدراسة حول «الآثار المترتبة على الانتقامات الإسرائيلية : محاولة تقييم عام ١٩٧٠» (١)، وأفرد جانبا كبيرا من دراسته لتناول الانتقامات الإسرائيلية فى الفترة من عام ١٩٥٨ حتى قبيل عام ١٩٦٧ ، وبالرغم من اعتماده على الإحصائيات وردود الفعل على الجانبين العربى والاسرائيلى، إلا أنه انتهى إلى أن «الانتقام الاسرائيلى»(٢) «هو» سلوك قومى إسرائيلى» ، وأن إسرائيل تعتبر الانتقام «صورة شرعية من صور السلوك القومى» (٣).

وقد أشار بليخمان كذلك إلى أن التصريحات الإسرائيلية المصاحبة لتلك الاعتداءات تتضمن نغمة مشتركة ، وهى التأكيد على أن هذه الانتقامات «واجب» و«التزام» و«أن جيش الدفاع الإسرائيلى» (صهل) كان مجبرا على التحرك و«أنه لم يكن ثمة اختيار و«أنه لا توجد بدائل أخرى» ، وهى تأكيدات تدخل ضمن شعار «اللاخيار» الإسرائيلى الذى تعرضت له عبر هذه الدراسة .

وقد أصاب بليخمان جانبا لا يستهان به من الحقيقة فى محاولته وصف مظهر رئيسى من مظاهر العدوانية

الإسرائيلية، وكذلك في محاولته تلمس أسبابها داخل النسيج السيكولوچى العام للمجتمع الإسرائيلى(٥) .

وعلى أى الحالات ، فإنه لا يمكن الاقتصار فى تفسير العدوانية لدى الشخصية اليهودية الإسرائيلية ، على العوامل الخارجية أو المثيرات الخارجية الموضوعية فحسب ، بل لابد من تقصى جذورها الضاربة فى التكوين السيكولوچى التاريخى والعقائدى للشخصية اليهودية الإسرائيلية .

وإذا كانت الروح العدوانية هى النمط المثالى ، الذى من الممكن أن نصف به بشكل عام ، الاطار السلوكى للشخصية اليهودية الإسرائيلية ، تجاه العرب عامة ، والفلسطينيين بصفة خاصة ، فإن هذا لا يعنى أن كل اليهود الإسرائيليين يتبعون هذا الأسلوب فى حياتهم ومواقفهم طول الوقت ، فالنمط المثالي - كما هو معروف - ليس حقيقة امبريقية أو قانونا علميا ، وإنما هو أداة تحليلية تهدف إلى عزل بعض جوانب الواقع بهدف إبرازها حتى يتسنى إدراكها بوضوح ، ومعرفة أثرها على الواقع(٦) .

وهنا ينبغى الإشارة إلى أن الروح العدوانية كخاصية سلوكية تعبر عن سمة من سمات الطابع القومى للشخصية الإسرائيلية ، إنما تعبر عن مفهوم جزئى ، ولا تعبر عن مفهوم كلى ، بمعنى أن هذا المفهوم إنما يدور حول المواطن العادى ،

ذلك المواطن الذى لا وجود له فى ذاته ، ولكن له وجود فى كل مـواطن بدرجـة أو بـأخـرى . ويقـودنا هذا إلى تحـديد بعض الملاحظات .

١ - أن هذا المفهوم يبرز بشكل أكثر وضـوحا فى نطاق المقارنة بمعنى التحليل الذى يسعى إلى إبراز أوجه الشبه ، وأوجه الخلاف بين الخصائص السلوكية لمواطن معين وآخر ينتمى إلى مجتمع آخر ، وإلى حقيقة حضارية أخرى .

٢ - أن هذا المفهوم لا يعنى أن كل من ينتمى إلى مجتمع معين يملك صفات معينة بنفس المقدار ونفس النسبة ، وأن من لا ينتمى إلى ذلك المجتمع لا يملك تلك الصفات أو تلك النسب . كل ما هنالك أن أغلب من ينتمى إلى ذلك المجتمع يتصف بصفات سلوكية معينة تختلف من حيث درجاتها تبعا لظروف وخصائص كل شخصية فردية .

٣ - أن الطابع القـومى لا يمنع اسـتـقـلال الشـخـصـيـة الفردية بالنسبة لكل مواطن .

وفى محاولة لتقصى الجذور التراثية والتاريخية والعقائدية والنفسية التى عملت على خلق وتثبيت الروح العدوانية لدى الشخصية اليهودية الإسرائيلية تجاه العرب ، انتهيت إلى تحديد عدد من العوامل التى تفاعلت داخل التكوين العام للشخصية اليهودية الإسرائيلية فى صورة طبقات متراكمة

امتزجت كل بالأخرى ، بحيث يصعب تصور أن إحداها أو بعضها قد انتهى مفعولها ، أو ضعف أثرها أو من الممكن أن يحدث لها ذلك فى المستقبل القريب . و بالرغم من هذا فإن البحث ، من هذه الزاوية ، لا يدعى إمكانية أن تكون هذه العوامل ، هى فقط التى تلعب هذا الدور المؤثر ، فى هذا الاتجاه ، ويرى أن ما يقدمه هو اجتهاد يحتمل الاضافة والمناقشة وحتى كذلك المراجعة .

وعلى ضوء ما تقدم فإنه يمكن القول إجمالا ، أن جذور ودوافع العدوانية لدى الشخصية اليهودية الإسرائيلية تجاه العرب تنحصر فى العوامل التالية :

١ - استلهام الروح العدوانية فى التراث الدينى اليهودى :

عند قراءة كتاب «العهد القديم» تطالعنا منذ البداية فكرة الصراع بين الخير والشر ، وهى الفكرة التى تنطوى عليها فلسفة الحرب منذ أن خلقت البشرية حتى اليوم . والنص الذى يحتوى على اشارة من هذا النوع فى العهد القديم ، ذلك الوارد فى سفر التكوين ، بشأن ذلك الحكم الذى فرضه الرب محددا به طبيعة العلاقة التى ستنشأ بين الحية وبين الانثى : «وأضع عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلك ونسلها . وهو يسحق رأسك وأنت تسحقين عقبه» (٩) . ومنذ ذلك الحين

أصبح الصراع بين القوى المختلفة لفرض الإرادة هو جوهر العلاقات بين البشر مع تعدد الأسباب التى تؤدى لهذا الصراع من سياسة واقتصاد ودين .. إلخ . وتاريخ اليهود على النحو المدون به فى «العهد القديم» يزخر بالكثير من الاشارات إلى أشكال هذا الصراع التى تجسدت فيما عرف بأنه «الحرب» .

وأول حرب يرد ذكرها فى «العهد القديم» هى تلك الحرب التى شنها إبراهيم الخليل ، والتى دارت رحاها فى غور الأردن ، حيث كان هناك ملك تسميه التوراة «كدر لا عومر عيلام» يبسط سلطانه كحاكم طاغية مطلق فى هذه الناحية ، يخضع له أمراؤها جميعا واستمر خضوعهم له اثنتى عشرة سنة . وفى السنة الثالثة عشرة ثاروا ضده : «وفى السنة الرابعة عشرة أقبل «كدرلا عومر» والملوك الذين معه فضربوا الرفائيين فى عشتارون قرنايم والزوزيين فى هام والايميين فى شوى قريتايم ، والحوريين فى جبلهم سعير إلى بطمة فاران التى عند البرية ، ثم رجعوا وجاءوا إلى عين مشفاط التى هى قادش ، وضربوا كل بلاد العمالقة وأيضا الأموريين الساكنين فى حصون تامار»(٩) . ثم دارت معركة انتقامية أخذ فيها لوط ابن أخى إبراهيم أسيرا ، ونهب ماله لأنه كان من سكان سادوم ، فجاء من نجا واخبر «إبرام العبرانى» (١٠) ، وهو

مقيم عند أشجار السنديان التى لمرا الأمورى أخى أشكول وعانر ، وكانوا أصحاب عهد مع إبرام» (١١) ، فجمع إبراهيم رجاله وانتصر وخلص الأسرى واسترد المؤن والأموال . وبالطبع فإن صياغة رواية على هذا النحو فى سياق روايات «العهد القديم» يكون الهدف منها واضحا ، إن مدون العهد القديم يهدف بالرغم من عدم وجود أدلة تاريخية على صحة هذه الوقائع الحربية التى صال وجال فيها جد اليهود الأكبر بثلاثمائة وعشرة رجال ضد جيوش كدر لاعومر عيلام وجيوش حلفائه ، إلى هدف واضح ، وهو الرغبة فى اغتصاب الانتصارات وادعائها لبنى جنسه حفزا لهممهم وغرسا للتقاليد القتالية فى نفوسهم .

وبعد ذلك نجد أن التوراة تطبع العقيدة الإسرائيلية بعد ذلك برباط وثيق بين «حرب اسرائيل» و«رب إسرائيل» ، حيث يصبح هذا الرب هو «رب الجنود» الذى يمهد لبنى إسرائيل السبيل لتحقيق مآربهم فى الغزو والاحتلال وطرد الشعوب :

«ولا يسمع لكما فرعون حتى أجعل يدى على مصر فأخرج أجنادى شعبى بنى إسرائيل من أرض مصر بأحكام عظيمة (١٢) «ويقول : «الرب يطرد من أمامك شعوبا أكبر وأعظم منك» (١٣) ويقول : «الرب الهك يطرد هؤلاء الشعوب

من أمامك ، ويدفع ملوكهم إلى يد فتمحو اسمهم من تحت السماء» (١٤) ، وهو الرب القاسي المتوحش الذى لا يعرف الرحمة بالإنسان أو الحيوان : «الهك في وسطك اله عظيم ومخوف» (١٥) ، «فحدث في نصف الليل أن الرب ضرب كل بكر في أرض مصر من بكر فرعون الجالس على كرسيه إلى بكر الاسير الذى فى السجن وكل بكر بهيمة» (١٦) .

«الرب الهك هو العابر أمامك نارا آكلة . هو يبيدهم ويذلهم أمامك فتطردهم وتهلكهم سريعا كما كلمك الرب» (١٧) .

وبعد ذلك حينما تحدث معجزة شق البحر ويخلص الرب إسرائيل من يد المصريين ، فإن موسى وبنى إسرائيل يترنمون بتسبيحة للرب يصفون فيها الرب بأنه «رجل الحرب» (١٨) وتشهد التوراة على أن بنى إسرائيل حين خروجهم من مصر كانوا مسلحين :

«وصعد بنو إسرائيل متجهزين من أرض مصر» (١٩) ، وأشار حكماء بنى إسرائيل إلى أن اليهود قد خرجوا من مصر ومعهم خمسة عشر نوعا من الأسلحة (٢٠) ، وأن الرب هو الذى كان يوحى إلى موسى بخطط الحرب والخديعة ، فيأمره بالتجسس وجمع المعلومات قبل الهجوم على أرض كنعان ..

«ثم كلم الرب موسى قائلا : أرسل رجالا ليتجسسوا على أرض كنعان التى أنا معطيها لبنى إسرائيل» (٢١)

ويعطيهم موسى تعليماته التى يجب أن يأخذوها فى الحسبان ليجهز عدته وفقا لها فيقول لهم : «انظروا الأرض ما هى . والشعب الساكن فيها أقوى هو أم ضعيف . قليل أم كثير . وكيف هى الأرض التى هو ساكن فيها جيدة أم رديئة.

وما هى المدن التى هو ساكن فيها مخيمات أم حصون«٢٢».

وحينما انتصر جند موسى على المديانيين وجاءوا بالسبايا والغنائم، قال لهم موسى : «فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال وكل امرأة عرفت رجلا بمضاجعة ذكر اقتلوهما . لكن جميع الأطفال من النساء اللواتى لم يعرفن مضاجعة ذكر أبقوهن لكم حيات» (٢٣) . ويوصى الرب موسى قائلا: «فتطردون كل سكان الأرض من أماكن ، وتمحون جميع تصاويرهم وتبيدون كل أصنامهم المسبوكة. وتخربون جميع مرتفعاتهم»(٢٤)

وثمة صورة أخرى لأخلاقيات الحرب تتضمنها هذه الوصية: «وحين تقرب مدينة لكي تحاربها استدعها للصلح، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك ، فكل الشعب الموجود فيها يكون للتسخير ويستعبد لك، وإن لم تسألك بل عملت معك

حربا فحاصرها، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف. وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة كل غنيمتها فتغنمها لنفسك وتأكل غنيمة اعدائك التى اعطاها الرب الهك . هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدا التى ليست من مدن هذه الأمم هنا. وأما مدن هذه الشعوب التى يعطيك الرب إلهك نصيبا فلا تستبق منها نسمة ما» (٢٥).

وهكذا وضع موسى أسس التقاليد العسكرية الإسرائيلية التى سار علي هديها من بعده سائر الأحفاد . وبعد موت موسى تولى من بعده عبده وخادمه يشوع بين نون «أحد الجواسيس الذين أرسلهم موسى للتجسس على أرض كنعان، وعادوا ليبثوا الرعب فى نفوس بنى إسرائيل، فأمر موسى برجمهم حتى الموت، ولكن الرب عفا عن يشوع بين نون وكالب بن يفنه»(٢٦). وكان بعد موت موسى عبدالزب أن الزب كلم يشوع بن نون خادم موسى قائلا: موسى عبدى قد مات . فالآن قم اعبر هذا الأردن أنت وكل هذا الشعب إلى الأرض التى أنا معطيها لهم أى لبنى إسرائيل (٢٧) . وهكذا أصبح يشوع هو القائد العسكرى لعملية غزو أرض كنعان وفق رواية العهد القديم. وقد صار يشوع بن نون بطلا إسرائيليا

معاصرا بسبب وحشية أسلوبه فى التعامل مع الشعوب غير اليهودية .

وقد جمعت قوانين الحرب فى «العهد القديم» فى سفر التثنية، وهى تحدد لهم أسلوب الاستيلاء على المدن، وأسلوب التعامل مع أهل البلاد فى الاصحاحات التالية: وهى الإصحاح الثالث والعشرون الفقرات ١٠-١٦ ، والاصحاح الرابع والعشرون الفقرة الخامسة (٢٨) . وهذه القوانين هى التى يتسلمها القادة الإسرائيليون كمصدر وحى، وكشريعة مقدسة لاستئناف البعث الإسرائيلى فى فلسطين، على أساس أن كل جريمة تصبح شرعية وقانونية من أجل تحقيق وعد الرب . وكان يشوع بن نون هو الذى أرسى تقاليد العسكرية الإسرائيلية التى تحظى بالقدسية ، والتى تنفذ كما لو كانت طقسا من طقوس القرابين البدائية طمعا فى رضاء الرب في الجسد العربى واللحم العربى والارض العربية . وكان يشوع بن نون هو أول من نفذ وصية موسى بحمل «تابوت العهد» أمام الجنود : «وقال يشوع للكهنة احملوا تابوت العهد واعبروا أمام الشعب. فحملوا تابوت العهد وساروا أمام الشعب (٢٩) . و«وما زال جيش الدفاع الإسرائيلى يحافظ على هذه التقاليد حتى الآن، فكل وحدة من وحداته تحمل تابوتا توضع فيه التوراة وقد نقشت عليه الآية «انهض بالله

ودع أعداءك يتشتتوا ، واجعل الذين يكرهونك يهربوا أمامك».

وبعد أن تمكن يشوع بن نون من دخول أريحا وضع أسس التعامل مع أهل المدينة : «وقتلوا كل ما فى المدينة من رجل وامرأة ، من طفل وشيخ حتى البقر والغنم بحد السيف» (٣٠) . ولما استولى على مدينة عاى حدث نفس الشيء:

«وكان لما انتهى إسرائى من قتل جميع سكان عاى فى الحقل فى البرية حيث لحقوهم سقطوا جميعا بحد السيف حتي فنوا . إن جمع إسرائيل رحل إلى عاى وضربوها بحد السيف» (٣١) . وحينما تقدم يشوع لمحاربة أهل مقيدة فإن الرب تدخل بمعجزته حيث جعل الشمس لاتغرب حتى ينتهى يشوع من مهمته الدموية الوحشية : «وأخذ يشوع مقيدة فى ذلك اليوم ، وضربها بحد السيف، وضرب ملكها وكل نفس بها ولم يبق شاردا» (٣٢) . وهكذا فعل مع لبنة ومع لخيش ومع ملك جازر ومع عجلون وحبرون ودبير وكل أرض الجبل والجنوب والسهل والسفوح وكل ملوكها» (٣٣) . وكذلك أيضا فعل داود مع أعدائه (٣٤). وتتوج وصايا الحرب تلك العبارة الناضجة بالشر : «قومى ودوسى يا بنت صهيون لأنى أجعل قرنك حديدا ، وأظلافك أجعلها نحاسا فتسحقين شعوبا كثيرة، غنيمتهم للرب وثروتهم لسيد كل الأرض»(٣٥).

وهذه النصوص التوراتية التى تغذى الوجدان الإسرائيلى بمبررات العنف والقسوة والوحشية الحيوانية تدرس فى المدارس الإسرائيلية دون أن تحظى بأى معالجة نقدية تذكر . وقد قام العالم السيكولوجى جورج تامارين بإجراء بحث فى جامعة تل أبيب عام ١٩٦٦ حول ردود فعل الطلبة على سفر يشوع وفظائع أريحا ومقيدة وغيرها من الأماكن، وقدم ثلاثة أسئلة إلى ١٠٦٦ طالبا من الصف الرابع حتى الصف الثامن: هل تعتقدون أن يشوع والإسرائيليين قد فعلوا الصواب؟

لنفرض أن الجيش الإسرائيلى يحتل قرية عربية بالقتال، فهل يتحتم أن يفعل كما فعل يشوع مع أهالى أريحا ومقيدة؟

وكانت النتيجة أن ٦٠٪ أجابوا بأن يشوع قد فعل الصواب، و(٣٠٪) وافقوا على عمل المثل ضد أهالى القرية العربية المحتلة. أما السؤال الثالث فقد درس تأثير التمركز العنصرى على الحكم الأخلاقى ، وطلب رد فعل على عمل فظيع ارتكبه جنرال لين فى الصين البعيدة وحصل هذا السؤال على رد ايجابى من جانب ٧٠٪ فقط (٣٦).

وقد كان بن جوريون يقول : «إنى اعتبر يشوع هو بطل التوراة، إنه لم يكن مجرد قائد عسكرى بل كان المرشد لأنه توصل إلى توحيد قبائل اسرائيل» (٣٧).

وفى دير ياسين وغيرها من الأماكن، كرر الإسرائيليون ما فعله يشوع بن نون عند دخوله أرض كنعان وفق ما ورد فى التوراة : «وقتلوا كل ما فى المدينة من رجل وإمرأة من طفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف» (٣٨) وقد علق موشيه مينوجينى على هذا بقوله: «إن الاستشهاد بالتوراة والتوصل بالأرهاب لنشر الذعر، هما أسلوبان قديمان «لتحرير أرض موعود بها» والتخلص من سكانها الأصليين . وما على بن جوريون ومناحم بيجن إلا أن يرجعا إلى سفر يشوع قبل أن يطبقا أساليب الإرهاب القديمة فى فلسطين ، فى دير ياسين يوم ٩ أبريل عام ١٩٤٨ ، وفى قبية يوم ١٤-١٥ أكتوبر عام ١٩٥٣، وفى عدد آخر لا ينسى من مذابح العرب الفلسطينيين . ويشوع هو الوحيد الذى يروى قصته بروح فطرية لم تصقل باسم «يهوه» كإله صغير لم ينضج بعد ، وفى غضون أزمنة بربرية . أما أشباه يشوع اليوم، وهم دبلوماسيون مزيفون ، فإنهم يتصرفون بنفس أسلوب يشوع فى العصور القديمة، ثم يعرضون السلام، (السلام وكل ما نريده هو الحالة الراهنة» بعد أن يكونوا قد أنجزوا المهمة القذرة (٣٩) . وقد دعمت كتب التراث اليهودى التى جاءت بعد «العهد القديم» «كالتلمود» هذه القيم ، وتمسكت بها كذلك الفرق اليهودية المختلفة «الفريسيون - الصدوقيون -

الاسينيون» ، وكانت هى الوسيلة أيضا من أجل تحقيق المسيحانية لمن يؤمنون من اليهود «بالخلاص المسيحانى» . وقد جعلت «الصهيونية الدينية» الحرب أساسا من الأسس التى تقوم عليها هذه الصهيونية مستندة فى ذلك إلى كل ما سبق ذكره من جذور تراثية فى «العهد القديم» تدعو للحرب وتشريعها. ويقول أحد منظرى الصهيونية الدينية:

إن الحروب التى تشنها إسرائيل على الدول العربية هى وفق «الهالاخا» (الشريعة النظرية) هى حرب مقدسة للدفاع عن «اليشوف» (الاستيطان اليهودى) فى فلسطين ضد الجيوش العربية التى غزت أرض فلسطين لكى تبيد - معاذ الله - الشعب المقاتل من أجل حريته. وكذلك فإن «إنشاء» جيش الدفاع الإسرائيلى والخدمة فيه هى فى رأى الصهيونية الدينية من تشريعات التوراة الصحيحة (٤٠).

وقد أعلن الحاخام العسكرى لإسرائيل، موشيه جورن أثناء حرب ١٩٦٧ أن الحروب الثلاث التى جرت بين إسرائيل والعرب خلال السنوات ١٩٤٨ ، ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ ، هى فى منزلة «الحرب المقدسة» ، فأولها لتحرير «أرض إسرائيل»، والثانية لاستمرار دولة إسرائيل ، أما الثالثة فقد كانت لتحقيق نبوءات أنبياء إسرائيل» (٤١).

ويرى زعماء إسرائيل حاليا أو واضعو الأسس لسياستها، أن هناك استمرارية للتاريخ العسكرى اليهودى منذ أيام موسى ويشوع حتى الآن. «فبن جوريون يسمح لنفسه بأن يتحدث عن أعداء دولة إسرائيل الصهيونية على أنهم مصر وبابل ، ويشير للعراقيين على أنهم آشوريون وبابليون ، ويشير إلى اللبنانيين على أنهم فينيقيون، بل إنه كان يعتقد (كان هذا آخر عام ١٩٧٠ بعد الميلاد وبعد الصعود إلى القمر) أن إسرائيل كشعب كانت تواجه كل هذه الأمم على حدة خلال الأربعة آلاف سنة الماضية ، ولكنها الآن ولأول مرة تواجهها مجتمعة، ويشير إلى ثورة بركوخبا (فى القرن الأول الميلادى) على أنها آخر معارك الجيش قبل عام ١٩٤٨» (٤٢)

وهكذا أصبحت فترة المكابيين (٤٣) ، بما تعنيه فى التاريخ اليهودي من تمرد على الحياة الروحية وبعث للروح العسكرية من أجل تجديد النفوذ السياسى لليهود فى فلسطين، من أزهى الفترات فى نظر الصهاينة، فأصبح اسم «المكابيين رمزا لمؤسسات وجمعيات شبابية وعمالية ورياضية وكشفية وشبه عسكرية كثيرة فى إسرائيل من أجل إحياء ذكراهم.

وهذا التعصب الدينى يمتد إلى التلاعب بالسياسة على المستويين الخارجى والمحلى ، كما هو واضح فى حالة «جوش

ايمونيوم» تلك الجماعة الصغيرة التى تدعو إلى ضم الأراضى المحتلة ، والتى لايظهر فى اتجاهها العاطفى أى ورع أو نزعة خيرية . ويصعب على المراقب المحايد أن يتبين فى أنشطة هذه الجماعة أى شيء يهودى بالمعنى الدينى للكلمة، بل يصعب أكثر تبين أى شيء نبيل فى كلمات الحاخام موشى بن تسيون أو سبيزاى عضو «رامات جن» . لقد أدى به تفسيره الدينى الصهيونى للتلمود إلى الدعوة للقضاء على الفلسطينيين واستعمار كل أرض إسرائيل التاريخية. وربما يوافق كثيرون على أنه يكاد يكون مستحيلا أن نتبين أى شيء «دينى» أو «يهودى» فى الحاخام ابراهام افيدان «زامل» مسئول الشئون الدينية بالقيادة المركزية الإسرائيلية عندما أوصى بعدم الوثوق بالعرب، والسبب فى هذا – كما يدعى – هو أنه سيجب علينا .. طبقا للشريعة الدينية.. ألا نثق بغير اليهودى» .. وعندما قال للجنود الإسرائيليين إنه «مصرح لكم، بل من واجبكم – طبقا للشريعة – أن تقتلوا المدنيين الطيبين، أو بمعنى أصح المدنيين الذين يبدون طيبين، وعندما استشهد بالآية القائلة : «يجب عليك أن تقتل أفضل الناس من غير اليهود»(٤٤)

وعلى هذا الأساس فإن جماعة «جوش إيمونيم» ترفض أى فكرة للسلام مع العالم العربى بدعوى أنه فى ظل السلام

«هناك خشية جدية من أنه فى حالة عدم وجود التوتر الأمنى سوف يتدهور التوتر الفكرى ، الذى مازال موجودا هنا وهناك، ويعشعش فى القلوب ، والخطر الشديد من التفتت الداخلى سوف يهدد المجتمع الإسرائيلى» . ويربطون بين فكرة السلام وبين فكرة قدسية البلاد: «إن فكرة السلام ، هى الأخرى ذاتها، مثل قدسية البلاد، مستقاة لدى الرب آرئيل من الأسس المسيحانية وليس من الأسس الأرضية المادية.. إن اليهود الذين يؤمنون بأن السلام لديهم هو قيمة عليا ومقدسة ونبوئية وإلهية ليسوا على استعداد لتدنيسه بالمساواة الشرقية المخجلة التى تجرى نصب أعيننا حاليا، إن اليهودى المؤمن بالقيمة الحقيقية للسلام ليس على استعداد لاستبداله بسلام مزيف خاص بالجولات فى الاهرامات... ولا حتى بالمفهوم الاسمى الخاص بتخفيف العبء الأمنى والمتصل بالميزانية الذى معناه هو الآخر ، راحة مادية مؤقتة ووهمية.. إن التساهل والتنازل فى مقابل السلام الحقيقى يجب أن يكون مقرونا بثورة روحية وأخلاقية فى الداخل وفى الخارج.. وهذا السلام الحقيقى هو نبوءة آخر الأيام، معناه اعتراف العالم «بالوحدانية المطلقة للرب الواحد.. واعتراف سكان البلاد الذين يقيمون فيها من غير اليهود «بالقدس كعاصمة روحانية لهم ومصدرا لوحيهم الأخلاقى . وحيث أن هذا اليوم

ليس قائما فى مجال المستقبل الواقعي والنبوءة السياسة ، وليس إلا جزءا من أيام المسيح نفسها، فإن فكرة السلام مع إسرائيل والعرب مرفوضة تماما» (٤٥).

وتظهر الاتجاهات العنصرية المتعصبة فى فكر «جوش ايمونيم» فى النظرة إلى غير اليهود فى العالم عموما ، وإلى غير اليهود المقيمين داخل الدولة اليهودية . ويمتلىء الأدب والصحافة الدينية بمقالات تعبر عن وجهة نظر معادية وعنصرية لكل من هو غير يهودى . ففى العالم الجديد للصهيونية الدينية القومية لايوجد مكان لوجهة النظر الصهيونية التقليدية التى تحدثت، ولو على سبيل الادعاء والدعاية، عن الحقوق المتساوية والأخوة بين اليهود وغير اليهود فى فلسطين.

وقد كتب الحاخام يعقوب ارئييل يقول : «إن السكان الأجانب فى بلادنا، والذين ربما من غير ذنب، أقاموا فيها عندما كانت خالية، سوف يضطرون ذات مرة أن يحددوا مصيرهم، برغبتهم الحرة، بأن يكونوا «متهودين عن ايمان» (جيرى صيدق) ، أو «يتهودون جزئيا» (جيريم توشافيم) ، أو سكانا مؤقتين، وإذا لم يقرروا فى النهاية برغبتهم الحرة الهجرة إلى بلد آخر، فعليهم أن ينظروا إلى اورشليم

باعتبارها عاصمتهم، الروحية ومصدر وحيهم الأخلاقى . إننا ضد انتزاع ملكيتهم وظلمهم بالقوة . ولكن المنطلق الأخلاقى يفرض علينا أن نقول لهم الحقيقة وألا نخدعهم . إن الأخلاق تفرض علينا ألا نكذب وألا نعدهم بوعود لن يمكننا تنفيذها فى المستقبل البعيد أو القريب» (٤٦)

وقد كتب الحاخام اليعيزر ولدنبرج، الحاصل على جائزة إسرائيل لعام ١٩٧٦، يقول معبرا عن نفس الاتجاه: «إننى ، على سبيل المثال، أؤيد الشريعة التى تنص على عدم السماح للأجنبى أن يسكن فى أورشليم ، ولو كنا نقيم الشريعة كما ينبغى ، لكان ينبغى علينا أن نطرد كل الأجانب من أورشليم وأن نطهرها تماما . كذلك فإنه محظور علينا أن نسمح للأجانب أن يشكلوا أغلبية فى أية مدينة من مدن إسرائيل» (٤٧).

وهذا التطرف الدينى والعنصرى فى النظرة الصهيونية الجديدة تجاه غير اليهود، يعكس دمجا فكريا بين القومية المعادية للأجانب وبين التطرف الدينى ضيق الأفق. وقد وصل هذا الدمج إلى ذروته فى كلمة أحد الحاخامات العسكريين التى احتوت تفسيرا جديدا لشريعة موسى ممتزجة بعسكرية مقاتلة تؤدى فى النهاية إلى عالم من المفاهيم الجديدة فى

الصهيونية الدينية المتطرفة. لقد احتوى هذا المقال على تبرير ديني تشريعي لقتل المواطنين غير اليهود ، ولاسيما النساء والأطفال أثناء الحرب:

«لقد قالوا مثل هذا حيث أنه لابأس من قتل «الجوييم» (الأجانب - غير اليهود) ولانثق بغير اليهودي بأنه لن يؤذي قواتنا» (٤٨).

وقد تجلت هذه الروح العدوانية العنصرية المتطرفة أكثر من مرة في حوادث العنف التي مورست من قبل أعضاء «جوش ايمونيم» ضد السكان العرب في الأرض المحتلة . وقد توجه جندي تلميذ «يشيفا» (المعهد الديني العالي) إلى حاخامه بسؤال حول طهارة السلاح . وقد استنتج من إجابة حاخامه: «في ساعة الحرب مسموح لي وربما أكثر من هذا يجب على ، أن أقتل كل عربي وعربية يصادفان في الطريق.. يجب أن أقتلهما حتى ولو كان هذا الأمر مرتبطا بتورطي مع القانون العسكري»(٤٩)

وحينما قام جندي احتياطي من المحافظين على الشرائع بقتل عابر سبيل عربي، وخفض رئيس هيئة الاركان الإسرائيلية عقوبته إلى السجن لمدة عامين، حظيت هذه الخطوة بتأييد الأحزاب الدينية . وهناك تقرير صحفي عن حادثة مميزة لهذا الاتجاه:

لقد أدين الحاخام ميشامشكين بالتخطيط لإصابة الحشود السكانية المدنية العربية. وقد ورد فى عريضة الإتهام أن المتهم كان ينوى إلقاء قنبلة يدوية وسط جمهور عربى فى القدس انتقاما من عمليات الفلسطينيين. وقد حكى المتهم أنه قبل أن يقرر القيام بالعملية تشاور مع حاخام «يشيفا» «آلون موريه» - المستوطنة المشهورة لحركة جوش إيمونيم- وسأله عما إذا كان مسموحا له أن يلقى قنبلة لكى يقتل مواطنين عربا، ووفقا لأقوال المتهم أجابه الحاخام، بأن عليه أن يدرس المسألة من ناحية الشريعة وأنه لن يستطيع أن يرد عليه فورا. وقد أشار عليه «على أية حال» بقوله : «لايبدو أن إجابتى ستكون إيجابية ، لأنك قد تصيب يهوديا أيضا»(٥٠)

وقد كتب الحاخام يسر ائيل هيس، فى المجلة الناطقة بلسان طلبة جامعة برايلان، وهى جامعة للدراسات الدينية، مقالا تحت عنوان «شريعة الجهاد فى التوراة» ، أوضح فيه الأمر الذى يشير إلى محور ذكر عماليق، وقال إنه ليست هناك رحمة فى هذا الأمر الذى يأمر بقتل وإبادة الكبار والصغار.. وعماليق هذا هو رمز لكل من يعلن الحرب على شعب الله، وفى مواجهة هذه الحرب «يعلن الرب الجهاد المضاد» .. وقد أوضح الحاخام ، أنه ليس المقصود بذلك مجرد «نزاع بين شعبين» ، لأن الرب شخصيا مجند فى هذه

الحرب. لأن له مصلحة شخصية فى الموضوع» .. وقد يعتقد القارىء أن هذا المقال يعالج موضوعا متصلا بتفسير لبعض إصحاحات العهد القديم، ولكنه فى الواقع كان يعالج الوضع الراهن المتصل بعلاقة إسرائيل بالشعوب الأخري، وخاصة الشعوب العربية، وقد ختم مقاله بما لايدعم مجالا للبس بقوله: «سوف يقترب اليوم الذى ندعى فيه جميعا لشريعة الحرب المقدسة هذا من أجل إبادة عماليق»، وبالطبع فليس من الصعوبة بمكان استنتاج من هو عماليق هذا؟ إنه الشعوب العربية أبناء إسماعيل.

٢ - استلهام تقاليد الروح العدوانية فى الفكر والسلوك الصهيونى :

مما لاشك فيه أن الصهيونية فكرا وسلوكا موبوءة بالتعصب العنصرى والتعصب الدينى، وعقد الشعوب بالاضطهاد والفزع من معأداة السامية ، وتفننوا فى التنكيل بهم، وكان من أواخر ذلك «البوجرومز» (مذابح اليهود فى روسيا) واللاسامية النازية.

لقد قامت دولة إسرائيل فى عام ١٩٤٨، بعد مرور ستين عاماً من الهجرة الصهيونية المنظمة لنقل اليهود من بلاد الشتات إلى ما يسمى «الأرض التاريخية»، حسب الزعم

الصهيونى. وبالرغم من أن فلسطين كانت آهلة بسكانها من العرب(٥١) الذين يقيمون فيها منذ قرون طويلة، فإن المنطق الصهيونى آثر تجاهل هذه الحقيقة ورفع شعار «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض» ولجأ إلى سياسة النقل، نقل اليهود من أماكن إقامتهم إلى فلسطين، ونقل- أو أكثر صحة - طرد الفلسطينيين من أرضهم وبلادهم كحتمية ضرورية لإقامة دولة صهيونية لليهود. وكان من الطبيعى فى ظل هذه السياسة الصهيونية أن يلجأ السكان العرب إلى الدفاع عن أراضيهم وممتلكاتهم فى وجه عمليات الاستيلاء والشراء المنظمة التى قامت بها المنظمة الصهيونية، ومن هنا نشأت حالة التوتر والعنف .

والحرب التى سادت المنطقة منذ حوالى مائة عام حتى الآن . وقد اعترف الزعماء الصهاينة بحتمية الوضع الناجم عن محاولة الاستيلاء على الأرض والممتلكات العربية ، ومقاومة عرب فلسطين لهذه السياسة فى كتاباتهم منذ مطلع القرن العشرين . وكان المفكر الصهيونى آشير يشيعيا هو جينزبرج المشهور باسم آحاد هاعام ورائدتيار الصهيونية الروحية (١٨٥٦ - ١٩٢٧) ، قد كتب بشكل تنبوئى فى عام ١٨٩١ يقول : «نحن فى الخارج نظن أن فلسطين اليوم صحراء تقريباً وبرية غير مزروعة ، وأن أى شخص يستطيع

أن يشترى من الأرض حسب رغبته ومناه . ولكن هذه ليست في الحقيقة هى الحال . فمن الصعب إيجاد أى أرض غير مزروعة فى البلاد .. نحن فى الخارج نظن أن العرب متوحشون وعلى مستوى الحيوانات ولا يعرفون ما يدور حولهم . ولكن ذلك خاطىء تماما . إن العرب ، وخاصة أهل المدن ، يرون نشاطاتنا فى بلدهم وأهدافنا ، ولكنهم يصمتون ولا يتحركون لأنهم لا يرون الآن خطراً على مستقبلهم فى ما نحن بصدده» (٥٢) . ولكن إذا حان الوقت وطور شعبنا حياته فى فلسطين لدرجة تجعل السكان الأصليين يشعرون بضيق فإنهم عندئذ لن يفسحوا الطريق أمام شعبنا بسهولة»(٥٣) .

وقد كرر آحد هاعام الملاحظة نفسها بعد عشرين عاماً بقوله : «إن كثيرين من أهالى فلسطين الذين أخذ وعيهم القومى فى النمو منذ الثورة التركية ينظرون شذراً، وهذا طبيعى تماما ، إلى بيع الأراضى «للغرباء» ويعملون جهدهم لوقف هذا الإثم» (٥٤) .

وقد صدقت نبوءة آحد هاعام بالنسبة لما يمكن أن يترتب على السياسة الصهيونية فى فلسطين . وقد أثبت نفيل ماندل أن المعارضة الفلسطينية للصهيونية على الصعيد المحلى سبقت بوقت طويل دخول المنظمة الصهيونية رسمياً إلى

فلسطين فى عام ١٩١٨ . (٥٥)

لقد بدأت المقاومة الفلسطينية الأولية على مستوى أبسط وأكثر إنسانية وأساسية : إنها مقاومة الفلاح غير السياسية للأجانب الذين رآهم يشترون أرض بلده . وكون المقاومة غير سياسية فى البداية يعطيها أهمية أكبر لأن ذلك يدل على إدراك المزارع الفلسطينى العادى غريزياً بخطر الاستعمار الصهيونى ، ولم ينقل له هذا الإدراك زعماؤه الذين نبهتهم المقاومة الفلاحية من الصهيونية . (٥٦) .

وقد رأى شخصان اثنان عى الأقل الوضع فى فلسطين بوضوح . فقد ذكرت . س . لورانس فى عام ١٩١٥ فى تقرير بعث به إلى دائرة المخابرات : «يقف خلف هؤلاء اليهود الصهيونيين الألمان عدوهم ، الفلاح الفلسطينى» . وكتب الصهيونى المخلص سايبدبوثام فى عام ١٩١٨ يقول : «يشعر العرب إزاء البعث اليهودى فى فلسطين كما يمكن أن تشعر إنجلترا إزاء بعث سيطرة ويلز القديمة على بريطانيا» (٥٧) .

هذا وقد اعترف آرثر روبين بالطبيعة اللا أخلاقية للصهيونية السياسية ، ولكونه مسئولاً عن الاستعمار الصهيونى خلال العشرينات والثلاثينات من هذا القرن ، فقد كان يتمتع بميزة الحصول على المعلومات الصحيحة . وعندما

حاول في عام ١٩٢٨ مواجهة مسألة المواطنين الفلسطينيين بدون مراوغة ، توصل إلى نتيجة مفادها أنه كان من الصعب «تحقيق الصهيونية وجعلها تتماشى باستمرار مع مطالب الأخلاقيات العامة» . وبحلول عام ١٩٣٦ «اضطر لأن يسلم بأن الأمر ليس صعباً فقط بل ببساطة مستحيلاً» . وقال في وصفه لنفس عملية الاستعمار التي يشرف عليها : إنه «في كل مكان نشترى فيه أرضاً يتم فيها توطين بعض الأفراد ، يصبح من المحتم تجريد الزراع الحاليين من ممتلكاتهم ، «وفي ختام كلمته، أشار إلى أنه طالما يجرى تنفيذ العمل الصهيوني في فلسطين ضد إرادة العرب ، فإنه ليس هناك بديل سوى أن يفقد بعض الأشخاص أرواحهم» . بل إن روبين حذر مما أطلق عليه «الاتجاه الامبريالي» لهرتسل ، لأنه شعر بأن تنفيذ مفهوم هرتسل للدولة اليهودية يستند إلى تجاهل وجود العرب. كذلك يعتبر موشى ديان قادراً على مثل هذا التبصر . ففي مناقشته للبدائل من وجهة نظره ، أدرك تماما أن الصهيونية تواجه اختيارين: «إما الأخذ بآراء ورغبات العرب ووضع نهاية للصهيونية» ، وإما بمواصلة تنفيذ عمليات الهجرة وشراء الأراضي والاستيطان ، مع حرمان عرب فلسطين من حق تقرير مستقبل البلاد» (٥٨) .

وهكذا فإنه مع بداية الهجرات الصهيونية إلى فلسطين

اعتباراً من عام ١٨٨١ ، فى محاولة لبلورة مجتمع صهيونى فلسطينى ، استناداً إلى دعاوى المنطق الصهيونى ، المتجاهلة لوجود الشعب الفلسطينى ، بدأت معالم جديدة للنمط الصهيونى تتبلور بمؤازاة تحقيق هذا الهدف ، على نحو لم يكن متوقعاً من قبل ، حتى بالنسبة لبعض المفكرين الصهاينة أنفسهم . لقد كتب آحاد هاعام بعد زيارته لفلسطين فى مقال بعنوان «حقيقة من فلسطين» (١٨٩١) يقول : «ماذا يفعل إخواننا المهاجرون اليهود فى فلسطين ؟ لقد كانوا عبيداً فى بلاد الدياسبورا ، وفجأة وجدوا أنفسهم وسط حرية لا رادع لها . ولقد ولد التحول ، المفاجىء فى نفوسهم ميلا إلى الاستبداد ، كما تكون الحال عندما يصبح العبد سيداً . إنهم يعاملون العرب بروح العداء والشراسة ، ويهينون حقوقهم بصورة معوجة وغير معقولة ، ثم يوجهون لهم الاهانات دون أى مبرر كاف ويتفاخرون بتلك الأفعال فوق كل ذلك . وليس هناك بيننا من يقف فى وجه هذا الاتجاه الخسيس والخطير فى آن واحد» (٥٩) .

وفى خطاب مفتوح بعث به آحادها عام إلى جريدة هاآرتس (٨ سبتمبر / ايلول ١٩٢٢) أعرب آحادها عام عن احتجاجه لمقتل طفل عربى على يد أحد الصهاينة ، وأعرب كذلك عن حزنه لارتباط «اليهود بالدم» ، مؤكداً على أن تعاليم

الرسل والأنبياء قد انقذت اليهود من الدمار ، ولكن المستوطنين الصهاينة لا يسلكون مسلكاً يتماشى مع تلك التعاليم ، وفى نهاية خطابه سأل آحاد هاعام ، بغضب واضح : «يا الهى أهذه هى النهاية ؟ هل هذا هو حلم العودة إلى صهيون ، أن ندنس ترابها بدم الأبرياء ؟ إن الله يكون قد أنزل بى العذاب إذا مد فى حياتى حتى أرى بعينى رأسى أننى قد حث عن جادة الصواب .. إذا كان هذا هو المسيح ، فإننى لا أود رؤية عوديه» (٦٠) .

وبالرغم من هذه الصرخة التى أطلقها المفكر الصهيونى آحد هاعام ضد تيار العنف والقسوة الذى بدأ مع موجات الهجرة اليهودية الأولى إلى فلسطين ، والذى لم يكن له مبرر سوى الانتقام الحيوانى تعويضاً «لعقدة الاضطهاب والشعور بالنقص» التى عانى منها اليهود الذين اعتادوا على العنف والتعذيب وسوء المعاملة فى روسيا ، ومن اضطهاد النازى، والتى دفعتهم إلى اتقان تقليد مضطهديهم ، و«التوحد فى المعتدى» تنفيساً عن مشاعر الكراهية المكبوتة تجاه جميع الأمم والشعوب ، فإن الفكر الصهيونى يزخر بمبررات لانهاية لها للعنف المسلح الذى لايفتقد إلى أسانيد من الدين اليهودى ذاته، بالرغم من أن أغلبية المستوطنين اليهود لم يكونوا يمارسون شعائر اليهودية ، وكان كثيرون منهم

ملحدين علناً . وقد كان تراث الصهيونية استناداً إلى هذا التراث الدينى هو الذى أباح العنف وحلل القسوة والجريمة . وكان زئيف جابوتنسكى (١٨٨٠ - ١٩٤٠) «فيلسوف العنف والارهاب فى الحركة الصهيونية»، واضحاً مع نفسه حينما قال لمستشار الطلبة اليهودى فى فيينا : «تستطيع أن تلغى كل شيء : القبعات والأحزمة الملونة والإفراط فى الشاب والأغانى ، أما السيف فلا يمكن الغاؤه . عليكم أن تحتفظوا بالسيف ، لأن الاقتتال بالسيف ليس ابتكاراً ألمانياً ، بل هو ملك لأجدادنا الأوائل . إن السيف والتوراة قد نزلا علينا من السماء» (٦١) . وكذلك حين جعل بطل قصته «يهودون» التى ظهرت ضمن مجموعة قصص باللغة الروسية عام ١٩٣٠ ، يحدد هدفه بصورة بسيطة هى : «على التلاميذ أن يحصلوا على فرعين من فروع العلم : أن يتحدثوا العبرية وأن يضربوا بالقبضة» (٦٢) .

وذهب الأمر إلى ما هو أبعد من ذلك ، بالنسبة لمفكر صهيونى آخر هو ميخا يوسف بيرديتشفيسكى (١٨٦٥ - ١٩٢١) . إن بيرد يتشفيسكى يرى أن الأيام العظيمة فى تاريخ اليهود هى أيام محتلى كنعنان : «ففى هذه الأيام نمت غرائز الاحتلال والوجود ، ولو كان ذلك عن طريق إبادة الغير .» لقد كان اليهود مرتبطين ارتباطاً عميقا بالطبيعة ،

وكانت حياتهم طبيعية ، وكان الذى يحدد طريقهم هو جدوى الأعمال . وهذه هى الفترة التى سادت فيها عبادة الأوثان بين العبريين . ومع ظهور الأنبياء ومطالبهم ، ومع انتصار يهوه على «البعل» (الاله الوثنى) بدأ التدهور فى تاريخ اليهود ، وفق رأى بيرد يتشفيسكى . وبدلا من السلوك الطبيعى والأخلاق النابعة من الحياة الطبيعية فرضت على اليهودى أوامر ومحظورات «بددت قوته» وأخلاق منعزلة عن الحياة ومناقضة لها . وهكذا فإنه اعترض على صحبة السيف والكتاب ، ودعا إلى أولوية الانتماء للعنف المسلح بقوله : «إن كلا من السيف والكتاب يناقض الآخر، بل ويقضى عليه كلياً . إن الفترة التى يعيشها الشعب اليهودى هى فترة عصيبة . وفى مثل هذه الفترات يعيش الرجال والأمم بالسيف، وليس بالكتاب . إن السيف ليس شيئا مجرداً أو بعيداً عن الحياة . إنه تجسيد مادى للحياة فى أنقى معانيها ، أما الكتاب فليس كذلك» (٦٣) .

وهذه الرؤية للتاريخ عند بيرد يتشفيسكى تتضح كذلك فى خطابه لبعض الطلاب اليهود فى فيينا ، حيث أوصاهم بالاحتفاظ بالسيف «لأن الاقتتال بالسيف ليس ابتكاراً ألمانياً ، بل إنه ملك لأجدادنا الأوائل .. إن التوراة والسيف أنزلا علينا من السماء» . (٦٤) لقد رفض بيرد تيشفيسكى

التاريخ اليهودى الذى يسيطر عليه الحاخامات والمفكرون اليهود ، ورفض أخلاقيات العبيد ، ونادى بتفضيل الفعل على الفكر ، وأخلاق السادة على أخلاق العبيد ، والسيف على الكتاب .

ثم يأتى مناحم بيجن - الاستمرار الحى والوفى لمدرسة جابوتنسكى فى العنف - ليؤكد على أهمية العنف فى التاريخ ، إذ يقول : «إن قوة التقدم فى تاريخ العالم ليست للأم بل للسيف (٦٥) لينسج له فلسفة على منوال ديكارت ويرفع شعاره «نحن نحارب ، فنحن إذن نكون» . ويصف بيجن فلسفته بقوله : «عندما قال ديكارت : أنا أفكر إذن أنا موجود ! قال فكرة عميقة جداً غير أن هناك أحياناً فى تاريخ الشعوب لا يكفى التفكير لاثبات وجودها . فقد يفكر شعب ثم يتحول أبناؤه بأفكارهم «بالرغم منها» إلى قطيع من العبيد .. هناك أحيانا يصرخ فيها كل ما فيك قائلا : إن عزتك ككائن حى رهن بمقاومتك للشر .. «نحن نحارب فنحن إذن نكون»(٦٦) .

وهكذا فإن العنف يصبح الأداة التى يتوسل بها الصهاينة لإعادة صياغة شخصية اليهودى . فاليهودى - فى هذا التصور - يحتاج إلى ممارسة العنف لتحرير نفسه من نفسه ، ومن ذاته الطفيلية الهامشية . إن العنف يصبح هنا

مثل الطقوس الدينية التى تستخدمها بعض القبائل البدائية حينما يصل أفرادها إلى سن الرجولة ، لأن اليهودى حينما يمارس العنف والقتل يتخلص من مخاوفه ويصبح جديراً بالحياة .

وبذلك يؤكد الفكر الصهيونى، على «أن الصهيونى الاسرائيلي الذى يحمل رغبة مكبوتة فى الانتقام يكون فى حاجة إلى تجديد وجوده بطريقة وحيدة هى الحرب، وإلى ملء هذا الوجود بأسباب مستمرة لجدارة التفرد، وهى القتل والقتل والقتل » .. ويضيف فليسوف الجريمة : كن أخى وإلا سأقتلك» . والعنف عند بن جوريون ، كما هو الحال عند مناحم بيجن ، يكتسب بعداً خاصاً ويصبح غاية فى حد ذاته بل وسيلة بعض حضارى . فبن جوريون كان المسئول عن إنشاء القوة العسكرية الصهيونية ، وكان المنادى بفكرة «اقتحام الحراسة» ، وأسس من أجل ذلك جماعة «هشومير» (الحارس) التى جعل شعارها : «بالدم والنار سقطت يهودا ، وبالدم والنار ستقوم يهودا» . وهذا الشعار الذى اختاره بن جوريون مبنى على تصور جديد للشخصية اليهودية أنها شخصية محاربة منذ قديم الأزل : «إن موسى أعظم انبيائنا هو أول قائد عسكرى فى تاريخ أمتنا» ومن هنا يكون الربط بين موسى النبى وموشى ديان مسألة منطقية بل حتمية ، كما

أنه لا يكون من الهرطقة الدينية فى شىء أن يؤكد بن جوريون على «أن خير مفسر ومعلق على التوراة هو الجيش ، فهو الذى يساعد الشعب على الاستيطان على ضفاف نهر الأردن، مفسراً بذلك ومحققاً لكلمات أنبياء العهد القديم . وكتابات بن جوريون تزخر باشارات إلى بركوخبا (البطل اليهودى) والمكابيين والغزو اليهودى لأرض كنعان وبطولات اليهود عبر العصور» (٦٧) .

وهكذا فإنه لا نهاية لمبررات العنف فى الفكر الصهيونى ، ولا للأدلة التى يستندون إليها من واقع تراثهم الدينى القديم .

وحينما بدأت الصهيونية فى التطبيق العلمى فإنها جعلت من اللحم العربى ومن الدم العربى معهداً لتخريج خبراء القتل المجانى ، وسرعان ما أصبح «اليهودى التائه» نمطاً جديداً يتعبد فى محراب الوثنية اللاأخلاقية المتعطشة دوما للدماء من واقع رغبة مكبوتة فى الانتقام بفعل حساسية الظلم الذى لحق باليهود فى أى مكان من العالم ، والذى يتحول إلى عمل إنسانى مشروع حينما يمارس ضد العرب .

ويقدم يجآل آلون وزير الخارجية الاسرائيلى الأسبق تقريراً فى كتاب «البالماح» (سرايا الصاعقة) عن مساهمته

المبتكرة فى تكتيكات الإرهاب بقوله : «جمعت جميع العمد اليهود الذين لهم صلة بالعرب فى مختلف القرى ، وطلبت منهم أن يهمسوا فى أذن بعض العرب ، بأن قوة عسكرية يهودية كبيرة وصلت إلى منطقة الجليل ، وأنها ستحرق كافة قرى منطقة الحولة ، وينبغى عليهم أن يقترحوا على هؤلاء العرب ، بصفتهم أصدقاء لهم ، الهرب حيث أنه مازال هناك وقت لتنفيذ ذلك» (٦٨) .

وشرح آلون كلامه بقوله : «وانتشرت الشائعة فى جميع مناطق الحولة بأن الوقت قد حان للفرار . وبلغ عدد الهاربين آلاف لا تحصى . وبذلك حقق التكتيك هدفه تماما .. ونظفت المناطق الوسطى (٦٩) .

والتعبير المجازى «تنظيف»، ملائم تماما للتعبير عما يدور فى الذهن الاستعمارى الصهيونى الواضح الذى لم يرد الأرض وحدها ، بل أراد تجريدها من السكان .

وإذا نظر المرء إلى التحول من مجرد الإرهاب إلى الاستخدام الصريح والمباشر للعنف، فإن ما يستوقفه هو ما وصل إليه مستوى الأخلاق الصهيونية فى هذا الشأن. لقد كانت الغارات الليلية على القرى العربية ، أحد الأساليب التى طورها لورد وينجت ، وكانت «الهاجانا» و«البالماح» تشنان

هذا النوع من الغارات خلال عام ١٩٤٨ . وكما أشار المؤرخ اليهودى آريه يتسحاقى، فإن التكتيكات كانت بسيطة . عبارة عن هجوم على قرية العدو، وتدمير أكبر عدد ممكن من المنازل وكانت النتائج بسيطة بالمثل، مصرع عدد كبير من المسنين والنساء والأطفال أينما واجهت القوة التى تشن الهجوم ، مقاومة .

ولكن «الهاجانا» أدخلت على ما يبدو بعض التحسينات المهمة على تكتيكاتها، ولا سيما فى نهاية فترة الانتداب البريطانى .. ففى الهجوم على القرى العربية كان رجال «الهاجانا» يضعون أولا وبهدوء شحنات متفجرة حول المنازل المبنية من الحجارة ، ويبللون اطارات النوافذ والأبواب بالبنزين ، وبمجرد أن يتم تنفيذ هذه الخطوة التحضيرية ، يفتحون بعد ذلك نيرانهم، وفى الوقت نفسه ينفجر الديناميت ويحرق السكان النائمين حتى الموت» (٧٠) .

وقد بادر هربرت صموئيل، الذى كان أول مندوب سامى لبريطانيا فى فلسطين، إلى استنكار هذا الإرهاب اليهودى استنكاراً عنيفاً ، مع أنه هو نفسه كان يهودياً صهيونياً فقال:

«إن الشعب اليهودى قد فاخر دائما بالأعمال الطيبة ،

وآيات التفوق التى أنجزها وظفر بها هذا الشعب ، ويعدد العلماء والكتاب والموسيقيين والفلاسفة والساسة الذين خرجوا من صفوف اليهود ، واليوم وجدت فى صفوف هذا الشعب نفسه طائفة من السفاحين تنكروا فى ثياب مزيفة للجند ورجال الشرطة ، وأخذوا يلقون القنابل خبط عشواء وينسفون القاطرات .. »(٧١) .

ولدى اندلاع أعمال العنف فى فلسطين بعد اقتراع الأمم المتحدة على التقسيم عام ١٩٤٧، لجأ اليهود إلى أعمال الإرهاب باعتبارها سلاحاً نفسيا فى الحرب ضد عرب فلسطين ، وكان لهم من ذلك هدف مزدوج هو قمع المعارضة لانشاء دولة يهودية ، وحمل العرب على الفرار من البلاد . وفى نهاية عام ١٩٤٧ ، وفى الشهور المتبقية من الانتداب ، وجهوا إلى المدنيين العرب وسائل الإرهاب التى طورها وأتقنوها فى حملة عنفهم على حكومة فلسطين . والتسلسل الزمنى للحوادث التى وقعت فى فلسطين من الأشهر الست التى سبقت انتهاء الانتداب ، تلقى ضوءاً على الأعمال الفظيعة التى تقع تبعتها على الإرهابيين اليهود . ومما اقترفه الإرهابيون اليهود نسف البيوت على رؤوس سكانها ، والقاء القنابل على جموع الناس فى الأماكن العامة (٧٢) واغتيال الأفراد ٧٣٠) وتدمير القرى (٧٤) ، وهى ذات الأعمال التى

قام بها شارون فى عملية «الجدار الواقى» عام ٢٠٠٢ ضد الفلسطينيين.

وقد كان أفظع الأعمال الوحشية التى اقترفتها المنظمات اليهودية فى فلسطين ضد السكان المدنيين العرب غير المسلحين ، هى المذبحة المتعمدة التى أقدمت عليها دون أى استفزاز ، يوم ٩ ابريل ١٩٤٨ ، وأزهقت فيها أرواح جميع السكان تقريباً فى قرية دير ياسين ، وهى قرية صغيرة مسالمة تقع على مشارف القدس . وسيبقى هذا العدوان لطخة عار فى جبين الصهيونية إلى الأبد . وهناك وصف صادق لهذه المذبحة الفظيعة أورده جاك دى رينيه ، كبير مندوبى هيئة الصليب الأحمر الدولية حين عرض حياته للخطر ، واستطاع أن يصل إلى القرية ويرى بعينى رأسه عواقب المأساة . (٧٥) ومما قاله : «لقد ذبح ثلاثمائة شخص بدون أى مبرر عسكرى ، أو استفزاز من أى نوع كان ، وكانوا رجالاً متقدمين فى السن ونساء وأطفالا ورضعاً ، اغتيلوا بوحشية بالقنابل اليدوية والمدى وبأيدى قوات «إرجون» اليهودية ، تحت الاشراف والتوجيه الكاملين لرؤسائها » (٧٦)

ووصف رينيه القوات اليهودية التى لقيها فى مكان الحدث ، فقال :إنها تألفت من رجال ونساء مسلحين بالمسدسات

والمدافع نصف الرشاشة والقنابل اليدوية ومدى كبيرة كان معظمها لايزال ملطخا بالدماء» (٧٧) . بل إن شابة يهودية أرته مديتها وهى «لاتزال تقطر دما ، وكأنها علامة على النصر» . وقد شق رينيه طريقه إلى دور القرية فرأى الجثث المشوهة للضحايا ، ومنهم فتاة عمرها عشر سنوات وعجوزان مازلن يتنفس بالرغم من أنهن جرحن وتركن لكى يدركهن الموت . وقد عملت الوكالة اليهودية و«الهاجانا» كل ماتستطيعان للحيلولة دون قيام مندوب الصليب الأحمر الدولى بالتحقيق فى هذه المذبحة الفظيعة (٧٨) .

وطبعا ، أعربت السلطات الصهيونية عن «استيائها وسخطها» بعد أن انتشرت أخبار المذبحة عن طريق الصليب الأحمر الدولى ، ولكن هذا لم يثن المجلس الصهيونى عن التصديق فى نفس اليوم على اتفاقية عقدت قبل المذبحة للتعاون بين «الهاجانا» و«إرجون تسفائى لئومى» (المنظمة العسكرية القومية)، وهما المنظمتان اللتانى كانتا مسئولتين عن المذبحة (٧٩) . كذلك فإن مناحم بيجن رئيس عصابة «الإرجون» نفسه اعترف فى ٢٨ ديسمبر ١٩٥٠ ، فى حديث صحفى أدلى به فى نيويورك، بأن حادث دير ياسين وقع وفقا لاتفاق بين عصابته وبين الوكالة اليهودية و«الهاجانا»(٨٠) .

وقد أدلى الدكتور ستيفن نبروز رئيس جامعة بيروت الأمريكية بالتعليق الآتى على مذبحة دير ياسين :

«اقترفت من الجانبين أعمالا مروعة ، غير أن الصهاينة احسنوا استعمال الأساليب الإرهابية التى أجادوا تعلمها على أيدى سادة هذا الفن من النازيين» (٨١) .

وقد وصفها جون كمحى، بأنها أكبر عار فى التاريخ اليهودى ، «لم يرتكب عبثا» ، ففيما بعد ، افتخر مناحم بيجن بأن «القوات اليهودية تتقدم فى حيفا كما ينفذ السكين فى الزبد ، والعرب يهربون وهم يصيحون «دير ياسين» (٢) .

وقد ألهمت دير ياسين آرنولد توينبى، بذلك الحكم الصارم المتصف عن حق بالمرارة : «إذا كان سواد الخطيئة ينبغى أن يقاس بدرجة العنف التى أذنب بها المذنب فى خق النور الذى منحه الله إياه ، فإن اليهود عذرهم أقل فى طرد العرب الفلسطينيين من ديارهم فى عام ١٩٤٨ ، من عذر نبوخذ نصر وتيتوس وهارديان ، ومحاكم التفتيش الإسبانية والبرتغالية حين طرودا يهود فلسطين وغيرهم فى الماضى . ففى عام ١٩٤٨ ، كان اليهود يعلمون عن تجربة ما يفعلون : وكانت مأساتهم الكبرى أن الدرس الذى استخلصوه من مواجهتهم مع النازيين قد قادهم لا إلى تجنب بعض الجرائم التى ارتكبها النازيون ضد اليهود بل إلى تقليدها» (٨٣) .

وقد قال أ . ف ستون : إن الارهاب اليهودى ، لا على يد الإرجون وحدها فى مذابح وحشية كمذبحة دير ياسين ، بل فى شكل أخف منه على أيدى «الهاجانا» نفسها ، قد شجع العرب على ترك المناطق التى رغب اليهود فى الاستيلاء عليها لأسباب استراتيجية أو سكانية . ولقد حاولوا أن يجعلوا أكبر ما يمكن من مساحة فلسطين خلوا بقدر المستطاع من العرب» (٨٤) .

وهكذا نجحت العصابات الصهيونية ، من مذبحة إلى أخرى فى طرد مليون عربى بين مسلم ومسيحى من قرابة اثنتى عشرة مدينة وخمسمائة قرية فى عام ١٩٤٨ (٨٥) .

ودير ياسين تذكر هنا ، لأنها أصبحت نموذجا أوليا لعدد من الغارات الإرهابية الصهيونية التى حققت أهدافها فى تفريغ فلسطين من أصحابها العرب ، وأسماء مثل ناصر الدين (١٩٤٨/٤/١٤) ، والكرمل (١٩٤٨/٤/١٨) والقبو (١٩٤٨/٥/١) وبيت دارس (١٩٤٨/٥/٣) ، وسعسع (١٩٤٨/٢/١٤) ، وبيت الخورى (١٩٤٨/٥/٥) ، والزيتون (١٩٤٨/٥/٦) ووادى عرابة (١٩٥٠/٥/٣١) ، واللد فى يوليو ١٩٤٨ ، وغور الصافى (١٩٥١/٩/٢٥ ، وقبية (١٩٥٣/١٠/١٤) ، وقلقيلية (١٩٥٦/١٠/١٠) وكفر قاسم

٢٩٠/١٠/١٩٥٦) وكفر قاسم (٢٩/١٠/١٩٥٦) هى سجل أسود يشهد على بشاعة الروح العدوانية التى تفجرت فى داخل اليهودى لتنفيذ المخطط الصهيونى بإقامة الدولة اليهودية بأى ثمن .

وهكذا واصلت العصابات الصهيونية الإرهابية تطبيق مخططها بتفريغ فلسطين من العرب بالعنف المسلح ، أطلق بيجن صرخة : «لولا النصر فى دير ياسين لما كانت هناك دولة اسرائيل»٨٦٠) . وما أن تم إعلان دولة اسرائيل حتى أصبح العنف مكرسا ، وأصبح للإرهاب تقاليده .

ويقول عاموس ايلون فى كتابه : «الإسرائيليون المؤسسون والأبناء» : «إن الصهيونية الأولى قامت على أساس العقيدة فى إجراء تغيير بالطرق السليمة واكتشاف أن هذا الأمر غير ممكن أثر تأثيراً عميقاً على الطابع الإسرائيلى ، وكما فى حركات التحرر الأخرى الاجتماعية أو القومية ، ارتبطت فكرة الخلاص ارتباطا وثيقا بفكرة العنف . وقد أصبحت هذه النتيجة المتنافرة اليوم بمثابة السمة الأساسية الاسرائيلية إن الفكرتين تمثلان وجه التجربة الاسرائيلية وتتبادلان على التوالى ، وتتطابقان وتتشابكان ، الجانب المزهر والجانب القائم اللذان يثيران الأمل والمأساة . وطرق ونوعية المجتمع

الاسرائيلي مستقبلا تتوقفان على نتائج هذه المواجهة إلى حد كبير » (٨٧) .

٣ – الفزع من ذكريات الأحداث النازية :

تشكل ما يسمى بالذاكرة اليهودية (٨٨) إحدى الدعاوى الأساسية لادعاء الحق على فلسطين . ومن هنا فإن الصهاينة يلحون بشكل دائم على إبقاء الوعى العام لليهود فى حالة من التذكر الدائم كنقطة استقطاب للمشاعر الوطنية . وقد رفعت الصهيونية منذ بداية أيامها مزمور داود «لتنسنى يميينى إذا نسيتك يا أورشليم» ، شعارا لها ورسختـه فى وجدان الجماهير اليهودية ، كما رسخت ووقرت تلك العادات الدينية اليهودية القائمة على الارتباط بأيام الحزن والمآسى فى تاريخ اليهود ، وخاصة إذا ما عرفنا أن الدين اليهودى يتميز بطقوس وشعائر تفوق سائر الطقوس والشعائر فى الأديان الأخرى ، إن الدين اليهودى يتيح الفرصة لليهودى المتدين للتذكر وبكاء الكوارث وحمد الله . وبالرغم من أن اليهودية تركز على الحياة ، فإنها تحترم الحفلات الجنائزية وطقوس الدفن وتعتبر إحدى دعامات الحفاظ على الذاتية اليهودية المميزة . ويتمسك حتى العلمانيون من بين اليهود بطقوس الحداد والدفن بكافة تفصيلاتها (أيام الحداد السبعة ، وعدم

حلاقة الذقن ، وتمزيق الثياب بشكل رمزى ، واعلانات الحداد فى الصحف ، وزيارة القبور فى المناسبات) (٨٩) .

وتنصب الذاكرة اليهودية هنا على تذكر ما حل باليهود على أيدى الأخرين ، أما ما يفعله اليهود حيال الآخرين فالذاكرة اليهودية تنساه .

ومن ناحية التعبير عن العواطف فإن الجيل اليهودى القديم لا يبدى تماسكا ، بينما نجد أن مواليد فلسطين من اليهود يختلفون إلى حد كبير . فنحن نجد أن أبنـاء الجيل القديم يعبرون عن عواطفهم تعبيرا خارجيا ، بالنواح والتنهد والعويل ، فهذه أمور طبيعية لديهم ، فاليهودى النائح له أساس فى الواقع .

وقد كانت أحداث النازية (٩٠) من العوامل التى كان لها أعمق الأثر فى تشكيل العقلية الإسرائيلية ، وكانت ردود فعلها والمحاولات المتوالية لفهمها ذات تأثير كبير على الإسرائيليين كأفراد وكمجتمع . وليس أدل على ذلك من أن المادة المسهبة عن النكبة فى «الموسوعة اليهودية» تبدأ بالتأكيد على أن أحداث النازية «تعد دون شك أكثر فترات تاريخ الشتات اليهودى مأساة» . وهكذا فإنه .. حينما وقعت أحداث النازية وكان اليهود من بين ضحايا النازية ، فإن الصهيونية صنعت

من هذه المأساة حينما وقعت، وثنا للبكاء والعويل يتحتم على من ينتمي لليهودية أن يصلى إليه مؤديا طقوس النواح والصراخ . ومن هنا، فقد أصبح هذا الأمر ركنا مهما من أركان العقيدة الصهيونية . وبالرغم من أن اليهود لم يكونوا الضحايا الوحيدين ولا الأكثر من الناحية العددية ، حيث قتل النازيون وخنقوا بالغاز ملايين البولنديين والروس ، فإن ما قر في وجدان الصهاينة هو أن اختيار اليهود للإبادة كان لأنهم هم الوحيدون من بين الشعوب الذين لا يملكون أرضا خاصة بهم ، ولذلك كانت تنقصهم وسائل المقاومة ، وسهلت هزيمتهم:

«ولما لم تكن لهم سيادة ، لم يكن هناك مجال لاختيار حيويتهم الجماعية بالدفاع عن النفس دفاعا منظما ، وسيقوا للذبح كالماشيه . وهكذا أصبحت إحدى فرضيات الصهيونية الكلاسيكية هي : «إذا لم يكن لك وطن خاص بك فإنك حثالة الإنسانية ، وفريسة للحيوانات المفترسة» (٩١) .

ويربط الدكتور قدرى حفنى فى كتابه «تجسيد الوهم»، بين مقولتين شائعتين يرددهما الفكر الصهيونى بمختلف تياراته ومدارسه وهما : «أن اليهود جميعا قد تعرضوا لتيار من الاضطهاد والعذاب بدأ منذ تاريخ موغل فى القدم ومازالت آثاره مستمرة حتى الآن» ، و«أن اليهود هم سبب كل شرور

العالم» ، ويرى أن هاتين المقولتين تعبران عن نفس الحقيقة السيكولوجية ، وتخدمان نفس الهدف السكيولوجى على أساس علاقة الفعل ورد الفعل أو علاقة التتالى أو التناظر ويحرص الصهاينة على أن تظل المقولة الثانية محتفظة بقوتها، لأنها تساعد على ترسيخ مقولة «الاضطهاد الأبدى» فى وجدان الشعوب . ولذا حرص الصهاينة على أن تظل تلك المقولة محتفظة بقوتها فى حرصهم على إبراز أنهم كانوا الضحية الوحيدة للنازيين ، وهى النغمة التى مازالوا يعزفون عليها حتى الآن ، بالرغم من افتضاح المبالغة وتزييف الحقائق فيها (٩٢) .

ولقد خصص لضحايا أحداث النازية يوم حداد خاص ، كما تحدد يوم آخر لذكرى ضحايا الحروب العربية الإسرائيلية . ويبدأ اليوم الأول فى ٢٧ أبريل بصفارات الإنذار التى تبعث دائما الرهبة فى بلد تسوده حرب دائمة ، وتظل تدوى فى أنحاء البلاد لمدة دقيقتين كاملتين فى أشد ساعات الصباح نشاطا ، فتتوقف الحركة تماما ويقف المارة فى أماكنهم . وفى أنحاء إسرائيل تقام احتفالات خاصة بهذه المناسبة فتغلق أماكن الترفيه والمسارح ودور السينما والبارات والنوادى الليلية ، وتصدر كبريات الصحف ملاحق خاصة ، ويعقد الكنيست جلسة خاصة ، وتبث الإذاعة

والتليفزيون برامج خاصة وتحظر البرامج الخفيفة . وفى المدارس يرددون على مسامع التلاميذ ما حدث فى أوشفيتس وترلينكا ، وأحيانا بلغة واقعية ومريرة لدرجة تثير احتجاج الآباء ، ويجتمع آلاف الأشخاص فى «هيئة تخليد ذكرى ضحايا النازى» (التى اقيمت خصيصا والتى اشتهرت باسم «يدفاشيم») (٩٣) للاحتفال بهذه المناسبة فى المقابر حول النصب التذكارية (٩٤) .

وفى السنوات الأخيرة انتهجت المدارس الاسرائيلية عادة، وهى أن تهتم بإحدى الطوائف اليهودية التى أبيدت من خلال أبحاث عن حياة هذه الطائفة وتاريخها . وقد يقوم التلاميذ بمسرحية ، أو ينظمون الشعر ويكتبون موضوعات الإنشاء ، ويخرج بعضهم لإجراء أحاديث صحفية مع الناجين ، ودعوة بعضهم لإلقاء كلمات فى المدرسة ، والإجابة عن أسئلة التلاميذ والمدرسين ، وهكذا تغطى المدرسة الموضوع وتنقب فى الماضى طوال أسبوع .

وقد أثار أسلوب تدريس قصص أحداث النازية فى المدارس مشكلة فى إسرائيل فى السنوات الأخيرة ، فلا يمكن أن تدرس المأساة مثل الكيمياء أو اللغات الأجنبية . وقد رفض المدرسون سرد تفصيلات حكايات حجرات الغاز ، وأفران حرق الجثث على أسماع التلاميذ ، ولكن مع ذلك فإن

هناك تشددا من وزارة التربية والتعليم فى اسرائيل فى هذا الشأن. إن المدرس يمكنه أن يعارض تدريس الجنس للصغار ، ولكنه لا يستطيع أن يتخلص من دروس أحداث النازية اليهود لتلاميذ الحضانة .

وبالإضافة إلى التركيز على وصف الأهوال والفظائع اللاإنسانية ، فإن وصف هذه الوقائع عادة ما كان يرتبط فى ذهنية التلميذ الاسرائيلي بتعبيرات «الخنوع» و«الاستسلام» و«الخوف» و«العار» . فقد كان هناك موضوع مطالعة عبرى ظل لسنوات عديدة يدرس فى المدارس الاسرائيلية يشمل الملحوظة التالية فى تحليل قصيدة «حييم نحمان بياليك» «فى مدينة القتل» (بعير ههريجا) عن مذبحة كيشينف عام ١٩٠٣ : «إن هذه القصيدة تصف الوحشية الغادرة وذعر يهود المدينة المخزى» . «لقد كانت كلمتا «الذعر» و«العار» كلمتين أساسيتين تشيران إلى بعض مبادىء التعليم الصهيونى فى مراحله الأولى . وهذا الاتجاه يبرز أيضا فى قصة قصيرة لحييم هزار بعنوان «الموعظة» (هدراشا) ، وهى ضمن الكتب التعليمية لتلاميذ الصف الثامن من المدارس الثانوية . إن الشخصية الرئيسة لهذه القصة القصيرة تلقى خطابا تاريخيا تقريبا ضد «يهود الشتات» وكل ما يمثلونه . وهناك عرض يثير الانزعاج على نحو خاص وهو عبارة عن كتلة ذهبية

ضخمة غير منتظمة الشكل ربما كان وزنها أربعة أو خمسة أرطال إنجليزية . صيغت من حشوات ذهبية كثيرة مأخوذة من ضروس اليهود الذين قتلهم النازى . وتعتبر هذه الكتلة بعد الاستيلاء عليها بعد الحرب من معروضات متحف «يد فاشيم» تصويرا للاستبسلام اليهودى لوحشية النازى .

وقد اعتاد الشبان الإسرائيليون أن يطلقوا على اللاجئين اليهود في سخرية «صابون (نسبة إلى أن النازيين كانوا يصنعون الصابون من شحم الآدميين ، وأصبح هذا الاسم مرادفا للذعر والضعف ، ويقال بالعبرية «صبن الشخص» أى أوقعه فى الشرك») . وفى الكتابات الصهيونية يوصف يهود الشتات بالذعر والجبن ، وأنهم قدموا للذبح دون مقاومة ، وأن الشتات كان خزيا وعارا . وربما كان الصهاينة يرمون من وراء هذا إلى التأكيد على أنه فى فلسطين تم خلق شخصية يهودية جديدة : «آخر يهودى وأول عبرى» ، وفق تلك الصيحة التي أطلقها المفكر الصهيونى آحد هاعام .

وتدل التوجيهات الرسمية التى تقدمها «يد فاشيم» للمدرسين أحيانا بالاشتراك مع وزارة التربية والتعليم على وجود حيرة عامة تعكسها عادة ابراز أحداث النازية وتفصيلاتها المروعة ابرازا شبه مرضى ، وهو ما ساعد على ابراز استجابة الرفض بدلا من الارتباط العاطفى من جانب

الأطفال المولودين فى اسرائيل، ونتيجة لذلك ففى السنوات الأخيرة أضيفت إلى هذه التوجيهات نصيحة بإبراز قصص البطولة فى «الجيتو» ، وقصص عن مقاومة اليهود للنازية بالعنف ، وكانت الأهداف المعلنة لهذه التوجيهات ، هى منع الاضطرابات النفسية التى قد تدفع بالصغار للانقباض والتراخي والقدرية . وإزاء خشية أن تؤدى أوصاف أحداث النازية اليهود إلى التحفظ من الضحايا بسبب مشاعر الخزى حول الذين ماتوا ميتة مخزية ، صدرت التعليمات إلى المدرسين بأن يغفلوا ما يتردد من أن اليهود «سيقوا كالأغنام للذبح» ، وطلب من المدرسين أن يبرزوا القوة الضخمة للرايخ الثالث الذى نجح بضعة أشهر في احتلال كل أوروبا تقريبا ، وكذلك ابراز أن ملايين الأهالي من غير اليهود قد أبيدوا بصورة مماثلة بما فى ذلك مئات الآلاف من أسرى الحرب السوفييت من الشبان الذين كانوا فى عنفوان صحتهم ، ومدربون أحسن تدريبهم كجنود مقاتلين (٩٥) .

وبالرغم من كل هذه الجهود فإن نظرة الشباب الاسرائيلى من «الصباريم» إلي نكبة اليهود والشتات اليهودى مازالت تنطوى على كثير من الاحتقار والرفض بسبب استسلامهم للذبح على يد النازية دون مقاومة ، وأصبحت علاقة «الصباريم» يهود الشتات علاقة بالغة التعقيد والغرابة .

إن الاسرائيليين الشبان يتنقلون بين الذكرى والرفض ، وممزقون بين الغضب والخزى حول هذا الموضوع ، وطرق تهربهم من هذه المشكلة المعقدة لا تقل عن محاولاتهم مواجهتها .

وهذا أيضا هو الحكم بالنسبة لكبار السن . إن بعض كبار السن يطحنهم الشعور بالذنب الذى كثيرا ما نراه بين الأشخاص الذين ظلوا على قيد الحياة بعد هذه الأحداث الفظيعة والكوارث ، ويطلق عليها السيكولوجيون الشعور بالذنب لتفضيل الوجود . وهى تمثل تيارا خفيا من الشعور بالذنب لمجرد أنهم ظلو على قيد الحياة على حين مات نصب أعينهم الكثيرون من الأقارب ، بينما نجوا هم عفويا أو بالقوة البدنية ، وأحيانا بفضل تجاهل الآخرين من البشر فى عالم يخضع تماما للروابط (٩٦) .

وتترك التجربة أثرها كذلك على بعض القدامى من المستوطنين اليهود فى إسرائيل ، ومن المشاهير فى الحياة العامة ، والذين قضوا سني الحرب فى فلسطين ، وذلك لإحساسهم بأنهم لم يفعلوا ما فيه الكفاية لتخفيف المأساة ولو بقدر ضئيل . وقد أثر هذا الشك تأثيرا عميقا على قادة إسرائيل ، وترك أثره على تفكيرهم حتى اليوم . إن الصفوة السياسية تتألف كلها تقريبا من المهاجرين الجدد ، أو أبناء

المهاجرين ممن كان موطنهم الأصلى شرق أوروبا ، وفقد الكثيرون من أفراد هذه الصفوة السياسية جميع أسرهم ، أو جزءا منها في نكبة اليهود . ومنذ ذلك الحين حتى اليوم مازالت هذه المسألة تطارد الساسة الإسرائيليين وتنغصهم بأبعادها الأخلاقية . وأدت اثارة المسألة فى قضية تشهير كبرى فى عام ١٩٥٣ إلى سقوط الحكومات الاسرائيلية (٩٧) .

وقد كان هناك نوع معين من التغير الواضح كل الوضوح بين الأطفال «أطفال المعسكرات» كما يسمون . لقد نجوا من معسكرات الاعتقال النازية لكى يجدوا أنفسهم فى معسكرات للأشخاص المرحلين ، ثم فى معسكرات الاحتجاز البريطانية فى قبرص أو فى فلسطين ذاتها . إن هؤلاء الأطفال الذين قضوا أعوام طفولتهم الحيوية فى معسكرات الموت النازية قد عرفوا أن البديل الوحيد لتجنب المصير الذى حل بآبائهم وأسرهم هو النضال «من أجل الحياة» بالأسنان والأظافر إذ لزم الأمر . لقد تلاشى الخطر الذى كان النازيون مصدره ، لكن الأطفال لم يكن بوسعهم التكيف مع التغير الذى حدث ، فكل شخص غير معروف لهم يبدو فى نظرهم عدوا ، وكل وضع جديد كان يبدو فى نظرهم تهديدا لأرواحهم ، وكان الحفاظ على أرواحهم هو دافعهم الوحيد .

وما أن وصل هؤلاء الصغار إلى فلسطين حتى كانوا قد بلغوا سن الرشد ، وفي داخلهم شعور حاد محدد بالهدف ، قوامه أن ما حدث لهم لا يجب أن يحدث أبدا لأطفالهم . وبمعنى آخر ، إنهم وآباؤهم ، بعد عام ١٩٤٥، استخدموا ذكرى أحداث النازية لاضفاء صفة اضافية من صفات الهيبة على الدولة الجديدة التى كانت لاتزال بحاجة إلى تبرير مشروعيتها .

ونظراً لأن اليهود الاسرائيلين قد ألقوا باللوم الأساسى عن أحداث النازية على الألمان ، كما ألقوا لوما ثانوياً على الدول الأوربية الأخرى ، فإن هذا الجانب من جوانب الأحداث النازية قد ترك أثراً على العقلية الاسرائيلية ، وهو الاقتناع الساخر أو المرير أو المستسلم بأن الاسرائيليين لا يمكنهم بعد الآن ، فى مواجهة أى تهديد جديد ، توقع مساعدة أو مساندة من هذه الدول أكبر من مساندة السياسيين. وقد ذكر باحث إسرائيلى : «إذا كانوا لم يساندونا فى الوقت الذى كنا فيه فى أمس الحاجة إلى هذه المساندة ، فإننا سوف نكون ساذجين إذا ما توقعنا منهم أن يساندونا فى الأزمات الأقل خطورة» (٩٨) .

ولا يحاول الاسرائيلى اظهار مدى إرتياحه لمساعدة القدر له فى النجاة من النكبة . وبشكل جماعى أكثر ، كانت

الصدمة الأوروبية ، ولاتزال حافزاً متغلغلا فى الوعى السياسى لاسرائيل ، وهو حافز مسئول ، إلى حد كبير عن استجابة الإسرائيليين للرؤية المميزة تجاه مسائل الأمن التى يطرحها استمرار الصراع العربى ـ الإسرائيلى.

إن الشعور بخطر التعرض لفظائع أخرى لايزال شعوراً حاداً . ووفقاً لاستطلاع ، قام به فى عام ١٩٧٧ قسم علم الاجتماع فى جامعة تل أبيب ، ذكر ٧٠٪ من الاسرائيليين أن مثل هذا الخطر موجود . وإن كان مما يدهش العقلية الغربية أن حوالى نصفهم يعتقدون أنه من الأرجح أن يحدث فى الخارج . ولايؤدى السن أو التعليم أو البلد الأصلى إلى إيجاد اختلاف كبير فى هذه المشاعر . فحتى آخر السبعينيات ، كانت العقلية الاسرائيلية غير مستعدة للنظر إلى أحداث النازية نظرة تأمل لأحداث وقعت فى الماضى ، ولن تنظر إليها أبداً «نظرة تحديد للأهمية النسبية» ، كما لا يزال يتصور بعض المسيحيين الأوروبيين المؤيدين لإسرائيل والمعادين لها ، على حد السواء أنه لا يزال هذا الكابوس المزمن مزمنا مسئولاً عن الجانب الأكبر من التشدد الإسرائيلى ، والروح العدوانية لدى الشخصية اليهودية الاسرائيلية (٩٩) .

ولم يقف تأثير أحداث النازية عند هذا الحد على الشخصية اليهودية الإسرائيلية ، حيث أنها أثرت على ما هو

أكثر من مجرد نظرة الأفراد إلى الأمور . فجنبا إلى جنب مع الهجرة الجماعية ، من مائة مصدر غير صهيونية التكوين فى أغلبها ، تحدت ذكريات فظائع النازية صلاحية الأسس الايديولوجية التى ترجع إلى القرن التاسع عشر .

لقد طورت الصهيونية أسطورة الأمة اليهودية لكى تخلق الدولة اليهودية . لكن الدولة أصبحت فور قيامها الأداة الرئيسة لخلق أمة جديدة ، الأمة الاسرائيلية . وقد أدرك ذلك دافيد بن جوريون ، أو رئيس وزراء لإسرائيل ، ولذلك بذل جهوداً شاقة من أجل وضع التراث اليهودى القديم فى مركز الوعى كمصدر للإلهام ، وكأداة حيوية للتوحيد القومى . لقد قام بقفزة كبرى إلى الوراء ، إلى ألفى سنة خلت ، وحفز ملايين من اليهود على القيام بنفس هذه القفزة .

لقد وصل اليهود الأوائل إلى فلسطين (أرض كنعان) بالقليل من الممتلكات المحسوسة، لكنهم وصلوا ومعهم تنوع هائل من الشحنات الثقافية والاجتماعية والتربوية . وكان هنالك سبيل واحد فقط لتحقيق مزيج صالح للحياة باعطاء كل هؤلاء المهاجرين نقطة مرجعية واحدة ولغة مشتركة . أما النقطة المرجعية فكانت الماضى البعيد ، وأما اللغة فكانت اللغة العبرية . وبهذه الطريقة أنتجت ايديولوجية جديدة

لتجاوز الخلفيات الجغرافية والتاريخية المختلفة للمستوطنين ، وكانت أحداث النازية هى الإسمنت الذى وطد الامتزاج .

وقد ساعدت الأرض نفسها على عملية خلق القومية الجديدة ، لأن منها انبثق الأنبياء التوراتيون والمكابيون . وكان لعملية خلق القومية أثران مهمان . لقد ساعدت الغالبية غير المتمسكة بالعقيدة على إيجاد جذور مشتركة ، وميزت الاسرائيليين عن غالبية اليهود غير المتمسكين بالعقيدة خارج اسرائيل .

وكانت قوة الاستقلال السياسى التى دعمتها أحداث النازية، هى المصدر الأكثر إلهاماً وتوحيداً للحياة القومية ، بالنسبة للجيل الأقدم على الأقل . لقد كانت أقوى من الصهيونية أو الديانة على حد سواء . لقد كانت هنالك متناقضات مهمة بين المهاجرين الشرقيين والمهاجرين الغربيين . فبالنسبة للعديد من اليهود الشرقيين كانت حياتهم الجديدة فى اسرائيل تمثل انجازاً لتراثهم اليهودى ، لكنها بالنسبة لمعظم اليهود الغربيين تمثل نبذاً لماضيهم اليهودى . وهذا هو السبب فى أن الاستقلال السياسى القومى كان مثل هذه الخمر التى تدير الرؤوس . إن رموز السيادة والدولة ، العلم ، والرئاسة والحكومة والبرلمان والجيش بصفة خاصة . أصبحت بؤرة التحدد القومى القوى فى كل اسرائيل وبين يهود الشتات

. لقد تم خلق كل مصادر القوة التى كانت مفتقدة خلال فترة أحداث النازية.

وكان من الضرورى بالنسبة للجيل الأصغر تطوير بعد يهودى إيجابى للحياة القومية ، وكان نظام المدرسة هو المؤسسة الرئيسة لتنظيم الطبيعة المتأججة للوعى القومى ، لإعطاء اتساق ، واتجاه ، واستمرارية للزمالة الجماعية .

وقد جرى إنشاء خطة أصبحت فيما بعد الأساس الكلى للاستمرار السياسى . وتتعتبر الطريقة التى وضعت بها هذه الخطة طريقة جديدة للانتباه كتوضيح لنوعية البراجماتية والحلول الوسط فى الشخصية اليهودية الإسرائيلية .

إن دراسات العهد القديم – التى لا يجب الخلط بينها وبين الدراسات الدينية – قد أصبحت جزءاً بارزاً من أجزاء البرنامج الدراسى فى المدارس العلمانية وذلك لتعزيز الميل إلى الارتباط بالتاريخ القديم على أرض فلسطين . إن التوراة تدرس بوصفها مادة جغرافية وأدبية ، بوصفها مادة تاريخ قومى . وقد أدى ذلك إلى إضعاف الصلات مع اليهود فى الخارج ، حيث تنتمى التوراة إلى التعليم الدينى بالنسبة للمتمسكين بالعقيدة ولغير المتمسكين بها على حد سواء . وقد طرح أحد مفتشى المدارس فى منتصف الخمسينات مسألة

الوعى اليهودى الخاص كمشكلة بالنسبة للمدارس العلمانية ، وبعد نقاش طويل جرى إدخال «الوعى اليهودى» فى البرنامج الدراسى كشرط معلن . لكن هذا «الوعى اليهودى» أنتج «وعياً إسرائيلياً بدلا من أن ينتج «وعيا يهوديا» ، وذلك بسبب أن الممارسات الدينية كانت تقدم كشرائع غريبة جدا اعتاد الناس ممارستها ، ولكنها لم تعد الآن ملائمة بعد أحداث النازية.

ويعتبر هذا الوعى الحديث ، إلى حد بعيد ، نتيجة من نتائج أحداث النازية التى لا تكف عن الظهور كشبح فى أذهان الإسرائيليين .

وهذا الوعى الجديد عبر عنه يجآل آلون ، الذى كان نائبا لرئيس الوزراء ووزيراً للتعليم والثقافة . فى ٢٩ ابريل ١٩٧٣ حينما قال :

«الويل لروح الأمة التى تفتقد القوة المادية للدفاع عن حياتها وإيمانها وحريتها . لقد أقسمنا فى تلك الأيام المريعة أن نصبح أقوياء ، وبفضل هذا القسم نوجد هنا الآن .. » .

٤ - تمجيد القسوة الإسبرطية كمثل أعلي:

لقد كانت إحدى النتائج التى ترتبت على تقاليد الروح

العدوانية فى الفكر الصهيونى وتواصل الحروب ، أن تم تثبيت عبادة القسوة بين الشباب الإسرائيليين . ويقول الكاتب الإسرائيلى عاموس ايلون موضحاً الكيفية التى تتم بها عملية زرع روح عبادة القوة والقسوة :

«لقد نما نوع من القسوة الإسبرطية على مر السنين ، وأصبحت تميز الآن أقساما كبيرة من الإسرائيليين الراشدين . وهذه القسوة الإسبرطية الوحشية تبدأ منذ سنوات مبكرة فى حياة الفتى الإسرائيلى من خلال اختبارات قاسية لقوة الاحتمال فى مناخ وظروف وأرض قاسية جداً أثناء تدريبات «الجدناع» (كتائب الشباب) . إن التلاميذ يساقون فى رحلات طويلة فى الصحراء مع مراعاة الانضباط التام فى مسألة المياه ، ويصابون بضربة الشمس ، وأحياناً يموتون أو يسقطون فى أثناء التدريبات التى تجعلهم أصلب عوداً ، والتى تعودهم على قمع رغباتهم والقضاء على الخوف وكثيرون من مدربى الشباب فى اسرائيل لايزالون يرون رسالتهم الكبرى فى تدريب تقوية الفتية والفتيات من سن الثانية عشرة والثالثة عشرة ليكونوا أفراد كوماندوز ومظليين صالحين ، فيرسل الغلمان إلى العراء فى ليالى الشتاء الباردة ، ويجبرون على السير حفاة على الشاطىء المبلل ، وتجبر الفتيات فى سن الرابعة عشرة على دخول مقابر المسلمين فى

الليالى المظلمة ، واستجماع الشجاعة والرقاد على القبور» (١٠٠) .

وهكذا فإن البحث عن الخوارق الشخصية أصبح بمثابة مرض يعانى منه الاسرائيليون إلى درجة كبيرة ، تصل إلى حد يمكن أن نطلق عليه الاحساس بالتضاؤل .

وفى ثنايا هذا الجو المشبع بروح العدوانية والإرهاب أصبح المثل الأعلى لدى الشباب الاسرائيلى هو ذلك النمط الذى تتجسد فيه ملامح القسوة الإسبرطية المتوحشة المتعطشة دوما إلى الدماء والعنف والقسوة . والنموذج الحى على هذا هو شخصية «مائير هرتسيون» التى أصبحت اسطورة فى حياته ، والتى حظيت بتقدير واحترام رجال الجيش والشباب وقسم من الصحافة الشعبية ، والتى أصبحت فى الجيش - رغما عنه - موضوع عبادة الأبطال ، ورمزاً لحياة اليهودى الجديد الهادىء المزاج ، والمقاتل الذى حصن ضميره بالدروع .

وهرتسيون هو رجل المظلات المشهور فى إسرائيل ، والذى اكتسب شهرته فى منتصف الخمسينات ، وظل اسمه لامعاً لمدة طويلة بعد عودته للحياة المدنية بسبب اصابة شديدة فى العمليات ، وقد قال عنه موشى ديان :

«إن هرتسيون كان فى قدرته القتالية وشجاعته رمزاً ونموذجاً لكل الجيش الإسرائيلى» وبالرغم من أن هرتسيون كان أكثر اقتراباً من غيره للمواقف التى تثير المخاوف فإن حياة الحب وعشرات السنوات من القتال قد تجعل من الإنسان حيواناً مفترساً .

وكانت طفولته مضطربة لأسباب عديدة فقد كان عمره ثلاث سنوات عندما نشبت أحداث ١٩٣٦ - ١٩٣٩ ، وكان منزل الأسرة يقع فى نقطة فى أطراف هرتسليا مكشوفة لجميع الأخطار ، وعندما بلغ الثالثة عشرة انفصل أبواه ، فانتقلت أمه وأختاه لكبوتس (مستعمرة إشتراكية) «بيت الفا» فى وادى مرج بن عامر (وادى يزرعئيل) ، وانتقل هو مع أبيه إلى «عين حارود» «القريبة» . وكان هرتسيون طفلاً لا يعرف الراحة ، ولديه طاقة زائدة ودوافع ليثبت شجاعته ولياقته البدنية ، وكثيرا ما كان ينغمس فى مغامرات خطيرة ، وكان يخرج وحده وهو لا يزال غلاما فى رحلات منهكة وخطرة فى النقب ، ومناطق الحدود المحظورة ، وفى سن الخامسة عشرة شعر برغبة قوية لرؤية نهر الأردن فى اندفاعه جنوباً إلى بحيرة طبرية ، وكانت هذه المنطقة انذاك منطقة أردنية ، وقد صحب معه أخته البالغة من العمر ثلاثة عشر عاما ، وعبر الحدود بالقرب من بيسان ، وأخذ الطفلان

يتسلقان ويعبران عدة أسوار من الأسلاك الشائكة ، واجتازا بنجاح حقل ألغام ، وسارا فى هدوء بأيد متشابكة ، ومرا أمام مخفر شرطة أردنى ، وعلى شاطىء النهر على مسافة تسعة عشر كيلو متراً من المخفر جلسا يتناولان طعامهما على مرأى من القرويين والجنود العرب . ونجح الطفلان فى العودة سالمين من هذه الرحلة الخطرة . وفى المرة التالية لم يبتسم لهما الحظ ، إذ سار الأثنان فى رحلة على طول نهر الأردن من شمال طبرية ، وكانت منطقة محظورة ، لم يطأها إلا القليقين من اليهود ، الذين تسللوا إليها فى العقد السابق ، ولم يعد بعضهم منها حيا . وقد اعتقل السوريون هرتسيون وأخته على الفور ، وزجوا بهما فى سجن بدمشق وبعد مدة أعيدوا إلى البلاد ، بتدخل من الصليب الأحمر الدولى .

ولم تروع هذه المغامرة السورية الفتى والفتاة (الأخوين) ، واستمرا فى رحلاتهما الخاصة ، ولم تكن الرغبة والسعى وراء الأخطار والترحال للمناطق الخاضعة لحكم العرب فى ذلك الحين ظاهرة نادرة ، إذ كان هناك جنون فى تلك الأيام بين الشباب للترحال ، إلى ما وراء الحدود للمناطق العربية ، وكان البعض يعود سالما وبعضهم تناله طلقات الرصاص ، وقد كتبت الأديبة الإسرائيلية ناعومى فرانكل سيرة حياة شائقة وقصيرة عن هرتسيون .

كان هرتسيون فى التاسعة عشرة ، عندما جند للجيش فى عام ١٩٥٣ ، وجمع إلى لياقته البدنية وشجاعته اللتين أثبتا وجودهما فى رحلاته الخاصة فى طفولته ، جمع إليهما الآن وحشية وقسوة ، وسرعان ما تركتا فيه طابعهما ، وأعدتاه للالتحاق بوحدة خاصة من رجال الكوماندوز، وكانت هذه وحدة جديدة ، وكان هو أحد جنودها الأوائل ، ولم يعد لهذه الوحدة وجود الآن . وقد خصصت الوحدة رقم (١٠١) فى ذلك الوقت بالذات لعمليات ردع ضد القرى العربية بعمليات انتقامية ، وقام رئيس الأركان العامة آنذاك (موشى ديان) لشرح المبدأ الجديد للحروب الانتقامية ضد الأهداف المدنية وراء الحدود . وكان هرتسيون مناسبا لهذه المهمة الجديدة كما لو كان قد ولد لها وسرعان ما ترقى ، ومنح قوة طبيعية على الرئاسة والصمود ، وكانت شجاعته تلازمه فى الخطر الذى يفوق البشر أو كما يقولون - خطر الحيوانات المفترسة - وكرجل كوماندوز كان يشترك كل ليلة تقريبا فى عمليات انتقامية صعبة ، ولم يعرف الراحة ، ودون أن يترفق بنفسه وبالآخرين كان يعاقب خصومه بوحشية ودون تمييز ، وأخذ يحقق فكرة إسرائيلية بتكوين مقاتل مثل المقاتل الهندى الأحمر ، فى غرب أمريكا البدائى ، وكان يقتل الجنود والفلاحين ورجال المدن والعرب فى غضب ، ودون كراهية ،

وفى برود ، وفى بساطة ، وعلى أحسن وجه ، مرتين أو ثلاث مرات أسبوعياً خلال أشهر متوالية . ثم أبعد عن العمليات فى النهاية بعد أن أصيب باصابة خطيرة فى غارة على مخفر شرطة أردنى ، وتم انقاذ حياته بعملية سريعة فى ميدان المعركة أجريت بمدية ، وأصيبت يداه وصوته بإصابات لا شفاء منها .

وفى مساء غطت سماءه السحب فى ابريل (نيسان) عام ١٩٥٦ ، كان هرتسيون فى إجازة قصيرة ، وبلغ به السأم من الفراغ مداه ، فقام بدورية استطلاع خاصة فى المنطقة ، وكان يتفادى الألغام المبثوثة على طول الحدود الإسرائيلية الأردنية ، بانتقاله من صخرة إلى أخرى . وقد شرح فيما بعد أنه فى عملية استطلاعه هذه أراد أن يلقى نظرة على أريحا ، والأديرة المحفورة فى صخور وادى كلت ، وفى طريق عودته فى الطريق الرئيسى أطلق النار على جندى عربى وقتله ، ولم يسىء هذا العمل إلى شهرته الأسطورية . وبعد ذلك بمدة قتل البدو أخته فى إحدى رحلاتها الخاصة فى مناطق البدو ، فجعل هرتسيون من نفسه قاضيا ، وتولى ثأره بنفسه ، وقتل اثنين من البدو اعتبرهما مسئولين عن مقتل أخته . وقد تم اعتقاله فى هذه المرة ، وكانت ستوجه إليه تهمة القتل ، ولكن تم إطلاق سراحه دون محاكمة بتدخل من بن جوريون رئيس

الوزراء شخصياً .. وأقفل المحضر ولكنه لم ينس ، وتوج الحادث أسطورته بأكليل جديد من الغار بقصة رومانسية أخرى . ومائير هرتسيون اليوم من مشوهى الحرب ، وهو متزوج وأب لأربعة أطفال ، ويعيش فى مستعمرة منعزلة على رأس جبل تتحته الرياح وتشرف على وادى الأردن جنوب بحيرة طبرية .

وفى عام ١٩٦٩ نشر هرتسيون مذكراته الخاصة التى كتبها أيام صباه اليافع .وهذه المذكرات تلقى ضوءاً شائقاً وأحياناً مروعاً عن العالم الروحى للشباب الذى تربى فى ظل هذا الجو ، وتركت انطباعاً فى وعى جيل بأكلمه ، وقد كتب العميد أرئيل شارون (أريك) قائد المظلات الإسرائيلية السابق ، وقائد الجبهة الجنوبية فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، ووزير الدفاع فى وزارة مناحم بيجن ورئيس وزراء إسرائيل الحالى (٢٠٠٢)، مقدمة حماسية لهذه اليوميات قال فيها :

«إن هرتسيون كان رمزاً للقتال ، ليس لجنود المظلات فحسب ، بل لجيش الدفاع الإسرائيلى كله» (١٠٢) .

ومرة أخرى أعلن موشى ديان بعد حرب ١٩٦٧ ، «أنه ليس ثمة من يفوق مائير هرتسيون شجاعة فى إسرائيل منذ أيام بركوخبا فى القرن الأول بعد الميلاد » . وابتكر موشى

ديان لقب (الهرصهيونية) لوصف نمط الروح والمعنويات التى يعتقد أنها تخللت قوات الدفاع الإسرائيلية عقب حرب ١٩٦٧، والتى يمكن اطلاقها على وصف جانب مهم من التفكير الإسرائيلى وهو التصميم على الانتصار . (١٠٣) .

ومن الشخصيات التى أصبحت موضع عبادة متطرفة من الشباب الاسرائيليين ، ارئيل شارون . وقد كان الجنرال شارون نفسه ، ومازال موضوع عبادة متطرفة بسبب سجل العمليات الإرهابية الناجحة التى قام بها منذ عام ١٩٤٨ حتى عام ٢٠٠٢: (عملية قيبية فى أكتوبر ١٩٥٣ التى أسفرت عن سقوط حوالى مائة وخمسين ضحية من المدنيين ، وعمليات طرد البدو من رفح لتأمين قطاع غزة فى عام ١٩٧٢ ، وقيادة عملية الدفرسوار أو «الثغرة» أثناء حرب اكتوبر ١٩٧٣ ، وقيادة حرب لبنان الدموية التى أطلقوا عليه «حرب سلام الجليل» فى يونيو ١٩٨٢ ، والتى ارتكبت خلالها أفظع المذابح اللا انسانية ضد الفلسطينيين فى معسكرى صبراً وشاتيلا وفى معتقل «أنصار»، وعمليات القتل والإبادة والطرد والحصار والتجويع وحرق المزروعات وتدمير المنازل والإغتيالات التى مارسها ضد الفلسطينيين فى الضفة الغربية وقطاع غزة منذ مارس ٢٠٠١ وحتى الآن) .

ويحظى شارون بتأييد عارم من الطبقات المنحطة

اجتماعيا والتى ينتمى إلى اليهود الشرقيين ، لأن مثل هذه الطبقات يكون لديها ميل طبيعى للارتباط بالزعامة ، والتمسك «المسيحانى» على نحو ما بأمثال هؤلاء الزعماء . إنهم يسيرون معه فى النار وفى الماء ، ويطلقون عليه «ملك إسرائيل» . وفى هذه الحالة فإن أمثال هذه النماذج من الزعماء الكارزميين تكون لديهم القدرة على اشعال الحماس ، وإثارة الغرائز ، وقيادتها إلى الحرب . وقد عبر ارئيل شارون عن هذا النموذج ، بالنسبة للشخصية الاسرائيلية بصورة استثنائية فى حرب اكتوبر ١٩٧٣ . لقد اطلقوا عليه آنذاك فى الجبهة وبين الجماهير ، وكذلك فى أجهزة الإعلام ، «ملك اسرائيل» . حيث رأوا فيه مخلصاً ومنفذاً لشعب اسرائيل ، وبطلاً عبر القناة ، وفاجأ المصريين ، وأصبح بطلا وملكا لاسرائيل بعد حرب لبنان ١٩٨٢ . لقد ضرب منظمة التحرير الفلسطينية ، وأعطى السوريين علقة ساخنة ، وقام بتحدى أمريكا ، الدولة العظمى. وهكذا تعلق به الكثيرون ، وأصبح فى نظرهم بطلاً وزعيماً كاريزمياً ، يلبى مطالبهم ويشبع غرائزهم . (١٠٥) .

وهكذا تزدهر مثل هذه الأساطير فى كل مكان فى إسرائيل حتى يضطر الناس أن يعيشوا بها ومعها حتى ولو كانوا لا يحبون هذا . وعندئذ تصبح الأساطير الشعبية هى

المفتاح لفهم الشفرة السرية للإنسان فى أى مكان ، وعندما تفك رموزها نكون قد وضعنا اليد ، وثبتنا عند حدود الإدراك والفهم مدى استغلال الطبائع الدنيا فى الإنسان ، حيث تصبح الحدود بين الوحشية الشرعية المزعومة وغير المزعومة غير واضحة تماماً ، وحيث تقوم الحرب بخلطهما معا .

٥ - عسكرة المجتمع الإسرائيلى :

بعد وقوع مذبحة كيشنيف ضد اليهود فى روسيا عام ١٩٠٣ ، وحدوث ردود الفعل العنيفة بعدها من جانب اليهود بسبب عجز اليهود عن الوقوف فى وجه اعمال العنف التى تحدث ضدهم فى شتى الأماكن (١٠٦) ، سعت حركة «عمال صهيون» (بوعلى تسيون) فى روسيا وبعض بلدان شرق أوروبا إلى تنظيم وحدات يهودية للدفاع عن أحياء «الجيتو» فى المدن ضد أعمال الاضطهاد ، وسميت هذه الوحدات باسم «جماعات الدفاع الذاتى» .

وقد كان أسحق بن تسفى (الرئيس الثانى لإسرائيل ١٨٨٤ - ١٩٦٣) أحد أصحاب هذه الفكرة ومنفذيها فى روسيا ، وحملها معه عندما هاجر إلى فلسطين عام ١٩٠٧ ، حيث التقى مع دافيد بن جوريون (١٨٨٦ - ١٩٧٣) فى مستعمرة «بيتح تكفا». وهكذا التحمت أفكارهما ، فراح

الإثنان يضعان الخطوط الأولى لتحقيق الشطر الثانى من مبدأ «العمل والدفاع» ، (شعار حزبى : «هابو عيل هتسعير» (العامل الشاب) ، و«بوعلى تسيون (عمال صهيون) ، ويحملان الدعوة لانشاء الحرس الصهيونى المسلح على نمط «جماعات الدفاع الذاتى» من يهود فلسطين ، وخلق مجتمع «العمل والدفاع الذاتى ، بتحويل عمال المستعمرات .. وسكانها إلى عسكريين مسلحين» (١٠٧) .

وفى أبريل ١٩٠٩ شكلت منظمة «هاشومير» (الحارس) على نمط «جماعات الدفاع الذاتى» فى روسيا ، ولم يكن شعارها «الحراسة والدفاع»، بل كان شعارها الذى نادى به «النبى المسلح» دافيد بن جوريون هو :

«بالدم والنار سقطت يهودا ، وبالدم والنار ستقوم يهودا» . وقد برزت ملامح أيديولوجية «هاشومير» فى الاقتراحات التى أعلنتها عام ١٩١٢ كأسلوب لحماية «اليشوف» (الاستيطان اليهودى القديم) على أساس النقاط التالية :

١ - ألا يقتصر دور «هاشومير» على توفير الحماية المادية للمستعمرات اليهودية ، بل عليها أن تغرس فى السكان الإحساس بواجبهم فى الدفاع عن أنفسهم .

٢ - أن توفر النواة العسكرية القادرة على توسيع نطاق

الوظائف الدفاعية فى المجتمع اليهودى .

٣ - أن تحتكر «هاشومير» حق الإشراف على الدفاع عن المجتمع اليهودى فى فلسطين .

٤ - لذلك يجب أن تعمل «هاشومير» كقوة مسلحة محترفة ومتخصصة فى الدفاع عن «اليشوف» (الإستيطان اليهودى فى فلسطين)(١٠٨) .

وقد وضع هذا البرنامج حجر الأساس لنشأة العسكرية الصهيونية بهذه الخطوط الأربعة الرئيسية التى تهدف واقعيا إلى :

١ - خلق المجتمع اليهودى العسكرى .

٢ - توسيع نطاق الوظائف العسكرية ، وإعطائها مركزاً متميزاً فى المجتمع اليهودى .

٣ - السيطرة عسكريا على مقدرات «اليشوف» من خلال الادعاء بحق الدفاع عن الشعب اليهودى .

٤ - إنشاء قوة عسكرية مسلحة محترفة (١٠٩) .

وبعد صدور وعد بلفور فى عام ١٩١٧ ، بدأت مرحلة أساسية من مراحل التغلغل الصهيونى فى فلسطين ، حيث حققت الصهيونية خلال هذه المرحلة الحاسمة وجودها

الرسمي المعترف به دوليا في فلسطين ، كما أنشأت قوة مسلحة فعالة كانت أداتها في فرض أطماعها عن طريق العنف ، معتمدة في ذلك على جيل من الإرهابيين والمغامرين يسلب الأرض ويحيطها بالأسوار كي يحول بينها وبين أصحابها ، ويرفع الأبراج لمنعهم من الاقتراب منها . ولهذا كان شعار هذا الجيل هو «السور والبرج» (١١٠) .

ومع نهاية الحرب العالمية الأولى برز في الفكر الصهيوني رأيان مختلفان تماما ، عن نمط وطبيعة الدور الذي يمكن أن تؤديه القوة العسكرية الصهيونية في تحقيق الأهداف المخططة لاستعمار فلسطين والاستيلاء عليها .

كان النمط الأول ، هو نمط «القوة العسكرية المتخصصة ، أي المحترفة الذي يتبلور كما تصوره جابوتنسكي ، في تكوين جيش وطني محترف غير منحاز لأي عقيدة أو حزب سياسي ، يخدم كحليف لدولة الانتداب ، ويسهم في قيادة المجتمع اليهودي في فلسطين (اليشوف) (١١١) .

أما النمط الثاني فهو نمط «القوة العسكرية الطليعية» ، ويعتمد على النظريات التي أطلقها ونادى بها يوسف ترومبلدور (١٨٨٠ - ١٩٢٠) ، كما فسرتها ومارستها «فرق العمال» ، وكان يرى أن «الدفاع» وهو تأكيد على بقاء نمو

المجموعات الصهيونية فى فلسطين ، وأن حياة الجندى الطليعى الرائد هى الطريق الوحيد لتحقيق استعادة «الوطن» ، و «الشخصية اليهودية» (١١٢) وتصور ترومبلدور ، على عكس جابوتنسكى ، ضرورة وجود مشاركة سياسية عسكرية تسيطر فيها القيادة السياسية ، بعد أن يتشرب الإطار العسكرى بأيديولجية الصفوة السياسية ويعمل كسلاحها التنظيمى .

وهكذا فإنه بين عامى ١٩١٨ - ١٩٢٠ كان هناك ثلاث منظمات تعمل على مسرح العسكرية الصهيونية فى فلسطين وهى : منظمة «هاشومير» (الحارس) ، ومنظمة جابوتنسكى أو «هاجانا هعتسميت» (قوات الدفاع الذاتى) ، ومنظمة ترومبلدور أو «جيدود هعفودا» (كتيبة العمل) .

وفى يونيو ١٩٢١ وافقت اللجنة العامة للهستدروت (اتحاد العمال العبريين الذى تأسس فى ديسمبر ١٩٢٠) على مقترحات الياهو جولومب (١٨٩٣ - ١٩٤٥) ، وهو من أوائل مبلورى القوة العسكرية الصهيونية ، والقائد غير المتوج للجيش الإسرائيلى للدولة القادمة فى الطريق ، بإنشاء أول منظمة صهيونية سرية فى فلسطين ، وهى «الهاجانا»، التى أطلق عليها أيضا اسم «هاإرجون» (المنظمة) و «هشورا» (الصف) (١١٣) .

وعندما حدث الخلاف داخل صفوف الحركة الصهيونية ، وانتهى بانفصال جابوتنسكى عنها وتكوين المنظمة الصهيونية الجديدة عام ١٩٣٥ ، انعكس هذا الأمر على المنظمة العسكرية «الهاجانا» وتبلور فى ظهور جناحين متعارضين داخلها .

يمثل الجناح الأول ، وايزمان وبن جوريون ، ويؤيدهما معظم زعماء يهود فلسطين ، وينادى هذا الجناح بسياسة «ضبط النفس» أو كما يسمى بالعبرية «ههفلاجا» .

أما الجناح اليمينى المعارض فقد ظهر فى صفوف الجيل الأصغر من الشبان المتعصبين الذين إعتبروا أن هذا التحفظ نوعا من التسليم لكل من البريطانيين والعرب ، وتزعموا استراتيجية المقاومة والثورة أو «مهفيخا» ، وهم جميعا ممن ينتمون إلى حركة شباب جابوتنسكى «بيتار» الذين حاولوا أن يفرضوا آراءهم وسيطرتهم على منظمة «الهاجانا» غير أنهم فشلوا فى ذلك .

وهكذا انشقت جماعة التصحيحيين بزعامة جابوتنسكى عن الهاجانا فى أبريل ١٩٣٧ ، وكونت مع منظمة «هاجانا ب»، منظمة عسكرية جديدة تحت اسم «إرجون تسفائى لئومى» (المنظمة العسكرية الوطنية) (١١٤) وتسمى

إختصارا «ايتسل» (١١٥) ، وهي المنظمة التي استعارت شعار «هاشومير» الذي تخلت عنه «الهاجانا» ، وهو «بالدم والنار سقطت يهودا وبالدم والنار ستقوم يهودا» .

ويعتبر عام ١٩٣٧ نقطة تحول مهمة في الفكر العسكري الإسرائيلي ، وبداية الانطلاق نحو التحرر من الجمود الفكري والعسكري ، والانفتاح على مفاهيم جديدة تتميز بالمرونة والحركة والعمل الايجابي . ويعود الفضل في هذا التحول إلى أفكار وأعمال كل من إسحق سادية ولورد وينجيت . لقد دفعت الثورة العربية التي نشبت عام ١٩٣٦ ، إسحق ساديه إلى البحث عن وسائل عسكرية متطورة ، فتبنى عقيدة العمل العسكري المتحرك ، ونادى بنبذ فكرة الدفاع الثابت عن المستعمرات ، والبقاء في انتظار المهاجم ، وطالب بالخروج لمهاجمة القرى والمراكز العربية . وهكذا اشتهر اسحق ساديه بين اليهود في فلسطين باعتباره منظم «بلوجوت ساديه» أي «سرايا ساديه» واعتباره «أبا لعقيدة القتال اليهودية الحديثة ، ومعلما لمعظم صغار الضباط الإسرائيليين» (١١٦) .

وبتطور أحداث الحرب العالمية الثانية كان من الواضح بعد العام الأول منها أن منطقة الشرق الأوسط أصبحت مهددة بالقوات الألمانية ، خاصة قوات روميل التي كانت تطرق أبواب مصر . وأدركت الصهيونية أن الأراضي الفلسطينية قد

تتعرض هى الأخرى لهذا الغزو . وكان هذا الادراك نقطة تحول مهمة فى تاريخ المنظمة العسكرية ، إذ برزت جماعة من العسكريين على رأسها أسحق ساديه تطالب بضرورة إنشاء قوة نظامية فعالة مستقلة ودائمة ، تتيح بناء جيش مستديم فى المستقبل . وهكذا برزت إلى الوجود فكرة إنشاء «قوة ضاربة» للهاجانا أطلق عليها «البالماح» (بلوجوت هاماحص) ، أو «سرايا الصاعقة» التى صدقت المنظمة الصهيونية على قيامها فى مايو ١٩٤١ (١١٧) .

وكانت «البالماح» أول وحدة عسكرية متفرعة «للهاجانا»، وبرزت أهميتها كقاعدة تنظيمية وثقافية أمدت الجيش الإسرائيلى فيما بعد بكادرات القيادة (١١٨) .

وهكذا كانت «البالماح» «النظامية» أول جيش يهودى معبأ تعبئة كاملة، ويخضع تماما للسلطة السياسية اليهودية المستقلة منذ عصر «بركوخبا» الذى مضى عليه ثمانية عشر قرنا (بعد أن قضى عليه الرومان فى عام ١٣٥ م) . إن البالماح لم تكن مجرد تشكيل عسكرى ، بل أصبحت الأداة المتاحة فى يد القادة السياسيين الصهيونيين لتحقيق الأهداف القومية» (١١٩) .

وقد حرص بن جوريون على إحياء اللغة العبرية ، وأن

تكون هى اللغة المستخدمة فى الجيش الصهيونى الجديد . ولما كانت هذه اللغة خالية من الاصطلاحات العسكرية ، أمر بن جوريون بجمع الكلمات العبرية التى يمكن أن تستخدم كاصطلاحات عسكرية بما فى ذلك الرتب العسكرية . وقد تم تحت إشرافه جمع ٣٠٠٠ كلمة عبرية تصلح للمجال العسكرى ، كونت أول قاموس عبرى عسكرى (١٢٠) .

وما أن تم إعلان الدولة فى ١٤ مايو ١٩٤٨ حتى كانت أولى المشاكل التى واجهت بن جوريون هى مشكلة «القيادة والسيطرة» على المنظمات المسلحة .

إن اليهود لم يعتادو على الولاء والطاعة لدولة من قبل ، كما أن العادات التى ترسبت خلال عشرات السنين من العمل السرى ، عودتهم على العمل فى غفلة من سلطة الدولة ، وتحت ظروف العمل الإرهابى الذى مارسته ضد القوى العربية باستمرار ، وضد قوى الانتداب أحيانا ضمن مجتمع مفكك ومنقسم وغير متجانس . وقد ترك ذلك آثارا واضحة على الجيش الجديد ، كما خلف أمراضا خطيرة ، كان أبرزها وجود قيادات ذات ميول سياسية ، واتجاهات أيديولوجية مختلفة وتطلعات ذاتية تنتمى إلى منظمات عديدة ، وتتصارع على الانفراد بالقيادة .

وقد رأى بن جوريون أن يبدأ العمل على مراحل فبدأ أولاً بمنظمة «الأرجون» باعتبارها أخطر المنظمات على المخططات الصهيونية ، وكانت عصابة «شتيرن» (بزعامة ابراهام شتيرن الذى توفى عام ١٩٤٢) قد حلت نفسها بعد إعلان الدولة ، وانتظم افرادها فى سلك الجيش الإسرائيلى دون أى شروط»(١٢١) .

وفى يونيو ١٩٤٨ اضطر قائد «الإرجون» مناحم بيجن إلى توقيع بيان بحل المنظمة ، وانضمام أعضائها إلى «جيش الدفاع الإسرائيلى» (صهل أو تسهال) ، وتسليمه الأسلحة والمعدات ، وأن تتوقف قيادة الإرجون عن العمل ، وتنتهى كتشكيل عسكرى فى إسرائيل والمناطق الخاضعة لحكومتها ، كما تتوقف جميع عمليات شراء الأسلحة والمعدات وتحول إلى «تسهال» لصالح المجهود الحربى (١٢٢) .

وفى نوفمبر ١٩٤٨ أصدر بن جوريون تعليماته عن طريق رئاسة الأركان العامة ، بعد كثير من المداولات والمراسلات مع رئاسة «البالماح» ، بحل رئاسة أركان «البالماح» ودمجها فى قوات الدفاع الإسرائيلية .

وكان لهذا العمل الذى قام به بن جوريون أثناء الجولة الأولى عام ١٩٤٨ – ١٩٤٩ ، مستغلاً ظروف الحرب ، أثره

المباشر فى دعم المؤسسة العسكرية الإسرائيلية ، بعد «تأميم» العناصر العسكرية المتنافرة وتشكيل «جيش الدفاع الاسرائيلى» الذى جمع بين «الاحتراف العسكرى» فى شكل الجيش النظامى العامل ، و «الإلتزام السياسى» فى شكل المجتمع العسكرى والجيش الاحتياطى اللذان يضمان جميع فئات الشعب ، ورأى بن جوريون - الذى كان يعارض مبدأ الإحتراف قبل قيام الدولة - أن هذا الاحتراف هو الشكل الضرورى للواجهة العسكرية الشرعية لإسرائيل . ولما كانت المواءمة بين قدرات هذا الجيش المحترف ، وأهداف الصهيونية ومراميها المستقبلية ، أمراً يستحيل تحقيقه فى ظل إمكانات بشرية محدودة تعجز عن تشكيل جيش محترف كبير يحقق هذا التوائم ، لذلك كان من الضرورى الاعتماد على جيش يضم المجتمع كله ، يمكن تعبئته عند الضرورة لتوفير الحجم المناسب من القدرة العسكرية لفترات مؤقتة محددة ، وهى الفترات التى يتم خلالها انجاز المهام المصيرية والأهداف القومية الكبرى بالعمل العسكرى المباشر .

«ومن هنا أصبح ضرورياً معالجة هذا الأمر على المستوى القومى ، حتى يمكن تحويل المجتمع إلى مجتمع عسكرى ، وكان السبيل إلى ذلك هو الاعتماد على الإلتزام السياسى والعمل على تنمية الدافع القومى» . وقد أدى هذا الاتجاه

الأيديولوجى ، إلى تغلغل المفاهيم العسكرية فى المجتمع الإسرائيلى ، وسيطرة الايديولوجية العسكرية المتطرفة ، وبروز أصحابها ومفكريها كمؤسسة لها دورها القومى الكبير، ولها آراؤها واتجاهاتها التى تفرض وجودها على أنشطة الدولة ، وعلى صياغة الوجدان العام للمجتمع والفرد الإسرائيلى (١٢٣) .

وتعتبر الطبقة العسكرية فى إسرائيل بمثابة نخبة من الطبقة المثقفة والمشبعة بالمفاهيم الصهيونية التى تستمد جذورها من المفاهيم الدينية والتاريخية للقيم اليهودية ، وخاصة تلك التى تسمى فى المعتقد الشخصى للفرد سمو الجنس ، والقدرة ، والذكاء ، والعنف ، والبطولة ، وسفك الدماء ، والغزو ، والروح القتالية ... إلخ .

ويقول جون لافين فى دراسته عن العقلية الإسرائيلية :

«لقد كان من جراء حربى ١٩٥٦ - ١٩٦٧ ، وحرب الاستنزاف على طول قناة السويس فى الفترة من ١٩٦٩ حتى ١٩٧١ ، علاوة على الحاجة المتواصلة لمنع الغارات ، أو الرغبة فى الانتقام بعد وقوعها ، أن أصبحت القوات المسلحة هى الأساس الذى تقوم عليه إسرائيل . وتعتبر نوعية الجيش فى غالبية دول التحالف الغربى أمرا مهما ولكنه ليس حيويا .

ونوعية الجيش تعنى حيازة جيش النفوذ السياسى ، والمكانة ، والكلمة المسموعة فى مؤتمرات حلف شمال الأطلنطى ، ولكن الوجود القومى لا يتوقف على وجود جيش . أما بالنسبة لإسرائيل فإن القوات المسلحة تعنى الفارق بين الحياة والموت لكل إسرائيلى . وهكذا أصبحت الخدمة العسكرية تشكل تجسيدا لوجود إسرائيل ذاته. وبناء على ذلك نجد أن المكانة الخاصة والمنزلة الاجتماعية الرفيعة لا تتوفر لأولئك الذى يتمون فترة التجنيد الإلزامى (ثلاث سنوات) ، بل لأولئك الذين يؤثرون البقاء فى الجيش لفترة أخرى (١٢٤) .

وفى ظل هذا الجو المشحون بالعنف والقسوة والاستعداد الدائم للحرب كان من الطبيعى أن يكون «لجيش الدفاع الإسرائيلى» مكانة خاصة داخل نسيج المجتمع الإسرائيلى . وقد كان لإسرائيل ظروف مثالية لتوفير تفوق الجيش على جميع الهيئات المدنية . ويحق للجنود أن يكونوا أعضاء فى الأحزاب . وبالرغم من أن مستوى الانضباط فى ظروف القتال عال جدا فإنه فى الظروف الأخرى أقل من ذلك حيث يكثر الجدل بين القادة والجنود ، وينادى الأفراد ضباطهم بأسمائهم الأولى ، وينادون كبار القادة قائلين : «أيها القائد (مفاكيد) . وجرت العادة فى الجيش الإسرائيلى على استبدال الضباط . فمعظم الضباط يسرحون بعد أن يبلغون الأربعين

أو الخامسة والأربعين ، وهو الأمر الذى حال دون تكوين طبقة عسكرية . ويجب على ضباط الجيش أن يتكيفوا من جديد مع السلوك المدنى لكى يعيشوا فى مهنة يختارونها ، بعد تقاعدهم من الخدمة . وهناك قرار غير مكتوب . بأن الجيش ملزم بأن يعرف حدوده . وبالرغم من أن قادة الجيش الإسرائيلى يتمتعون بمكانة لا يحظى بها إلا القلة من السادة المدنيين ، إلا أنهم مع هذا يفضلون أن يحكمهم عجائز خائر والقوة فى الستينات أو السبعينات من أعمارهم (بن جوريون - اشكول - جولدا مائير - مناحم بيجين آريئيل شارون) ، ويفضل الإسرائيليون مثل هذا الحكم عن آلهة الحرب اللامعين .

وبالرغم من أن بن جوريون كان يحرص على وضع حدود واضحة بين الاختصاصات السياسية والاختصاصات العسكرية ، وهو الأمر الذى كان يرضى العسكريين الذين ظلوا وراء الكواليس ، فقد توقف الفصل بين ما هو عسكرى وما هو سياسي بعد حرب ١٩٦٧ ، حيث وضع الجنرالات المنتصرون في مكان الصدارة على المسرح ، وأصبحوا محل تملق مستمر من جانب الأحزاب التى كانت تتوق إلى أن تضم فى صفوفها هؤلاء الضباط المكللين بالغار . واكتشف العسكريون فجأة أن النجاح فى ميدان المعركة يمثل رصيدا ثمينا له قيمته فى المجال السياسى ، فعمدوا إلى استغلال

هذا الرصيد ، ونجح كثيرون منهم فى تولى مناصب سياسية حساسة ومن بينهم على سبيل المثال : موشيه ديان - يجال آلون - عزرا وايزمان - حييم بارليف - ارئيل شارون - موشيه كارمل - إسحق رابين وغيرهم) .

وتحت عنوان «الجيش والسيادة فى إسرائيل» كتب الكاتب الإسرائيلى بنكو آدار فى ملحق صحيفة «على همشمار» يقول : «إن الظروف التى سادت الشرق الأوسط منذ نهاية «حرب التحرير (١٢٥) عام ١٩٤٨ حتى الآن فرضت على مواطنى اسرائيل العيش والعمل فى جو عسكرى عنيف دائم . وفى هذا الواقع الذى كان قيام الدولة فيه متوقفا على قدرة الجيش الإسرائيلى كان من الطبيعى أن تخلق حوله هالة من القدسية القومية . فالنصر فى حرب سيناء ١٩٥٦ ، وبعدها فى حرب ١٩٦٧ زاد إجلال الجيش لدرجة أن انتشر بين الجمهور- بكل فئاته السياسية تقريبا - الميل إلى ايديولوجية ترفع الجيش الإسرائيلى كشعار أساسى لدولة اسرائيل المتجددة .. وفى مفهوم معين ، انقلبت النخبة العسكرية فى الدولة إلى بؤرة جذب لكثير من الشبان الاسرائيليين القادرين الذين وجدوا أن القدامى سدوا فى وجوههم الطريق إلى العمل السياسى الجماهيرى . وقد مجدت هذه النخبة مفاهيم النصر والفتوة والشجاعة على نقيض فوضى الجيل السابق ، ووجدت صدى

فى قلوب الكثير من الإسرائيليين ، على الرغم من إغراقها فى المبالغة » (١٢٦) .

وفى مقال آخر عن نفس الموضوع حدد بنكو آدار مدى تأثير الجيش الإسرائيلى على الحياة فى إسرائيل :

«يؤثر الجيش ، ولو كان الهدف منه أولا وقبل كل شيء ، الدفاع عن الدولة ضد أعدائها والتغلب عليهم ، فى حياة الأمة كلها ، ولو إلى حد معين ، خصوصاً فى دولة تعيش فى جو عسكرى عنيف ودائم ، وأكثرية مواطنيها أيضا رجال جيش فى عطلة طويلة . ويؤثر الجيش فى شخصية الشبان ، وفى شخصية المواطن ، وتتعلق به إلى درجة كبيرة حريتنا السياسية والإجتماعية» (١٢٧) .

والأمر الذى لا شك فيه أن جيش الدفاع الإسرائيلى يقوم بوظيفة خطيرة فى المجتمع العبرى لا تقتصر على حد صنع السياسة أو صنع القرار السياسى ، بل تتعدى ذلك إلى خلق مفهوم التكامل القومى ، صورة أخرى من صور التغير السياسى . وهنا علينا أن نلحظ كيف أن المجتمع الإسرائيلى ليس مجتمعا عسكريا ، وأنه على العكس من ذلك أمة محاربة. والفارق واضح ، فالمجتمع العسكرى يعنى أن الأداة العسكرية ذات المهنة العسكرية هى التى تتحكم فى مساراته

، أما الأمة المحاربة فيعنى أنه فى حالة المواجهة أو القتال يصير جميع أفراد المجتمع السياسى مقاتلين قد اتخذ كل منهم موقعه فى دفع العجلة القتالية (١٢٨) .

وهكذا، فإن العسكريين فى إسرائيل يحاولون إضفاء صفة «الطليعة المسلحة التى تقود الشعب» على هذا الجيش . ولأن كل إسرائيلى يعتبر نفسه عضوا دائما وعاملا فى الجيش الاسرائيلى ، فإن هذا الجيش يستمد سلطته من هذا الإحساس من ناحية ، كما أن هذا يحول بينه وبين القيام بانقلاب ، أو اغتصاب عسكرى للسلطة بالمعنى المفهوم من ناحية أخرى ، لأنه إذا فعل هذا فسيكون كالكلب الذى يحاول أن يعض ذيله .

وتوجد لجيش الدفاع الإسرائيلى أهمية أخرى ، فبالإضافة إلى استيعاب الطاقة النفسية والجنسية للشباب الإسرائيلى - وذلك خلال الفترة المهمة ما بين مرحلة النضج وإقامة الأسرة - فإن يستخدم بمثابة نموذج إيجابى لكفاءة ومقدرة «الصبار» . إن الجيش الإسرائيلى ، كما هو معروف ، عبارة عن مملكة «صبارية» يتم تشغيل كل أجهزتها بواسطة «الصباريم» . ومن هنا ، فإن الجيش الإسرائيلى يعكس ، إلى حد كبير ، عيوب ومميزات الشخصية اليهودية الإسرائيلية .

ومن الظواهر المهمة التي تتصل بدور جيش الدفاع الإسرائيلي في بناء شخصية «الصبار» ، هو أنه كجهاز ضخم ، مرتبط إلى حد كبير بالتعاون ، ويأخذ الآخرين في الأعتبار . ومن هنا فإن جيش الدفاع الإسرائيلي مرتبط بكل تلك الصفات الاجتماعية التي تتميز بعدم وجودها في المناخ الصباري خارج اطار جيش الدفاع الإسرائيلي . فبالرغم من أن الصفات اللا اجتماعية لدى الصبار، هي صفات مزمنة وحادة ، إلا أن هذه الصفات تختفي داخل إطار جيش الدفاع الإسرائيلي . فكيف نفسر هذا التناقض ؟ لماذا يعمل «الصبار» في الجيش الإسرائيلي بصورة مختلفة عن تلك التي تميز علاقاته الأخرى بالمجتمع؟.

إن البروفسور هانز كرايتلر ، استاذ علم النفس في جامعة تل أبيب يعتقد ، أن السبب الرئيسي لذلك هو أن عمل «الصبار» في جيش الدفاع الإسرائيلي يحدث في إطار صغير ، يمكنه الاعتماد عليه . إن «الصبار» يتعامل مع إطار محدد ومعروف ، وهو يعرف – أنه في لحظة الضائقة ، وفي لحظة القتال – أن الجماعة الصغيرة العسكرية «التي ينتمي اليها» لن تتخلى عنه . ومن هنا فإن مصير «الصبار» هنا يختلف عن مصيره في اللقاء مع المجتمع والسلطة : إنه عادة ما يكون داخل المجتمع مجهولا ، ومفتقدا للإطار الذي يتحرك

فى داخله ، ويشعر بالإهمال من السلطة .

ويرى أمنون روينشتين أنه يمكن إضافة ملاحظتين أخريين إلى هذا التفسير :

أولا : إن العمل فى إطار الوحدة الصغيرة يتناسب مع المؤسسة (الصبارية) الخاصة بالحياة مع الجماعة : الدبابة ، السرية ، والبطارية ، وسرب الطائرات ، وقوارب الصواريخ ، التى تصبح بديلا مناسبا للجماعة الاجتماعية . إن هذه الأطر تجعل «الصبار» يشعر وكأنه داخل البيئة التى اعتاد الحركة فى داخلها - الجماعة الصغيرة الوطيدة .

ثانيا : إن المساس بالإطار الاجتماعى فى الجيش له نتائج ملموسة . ومن هنا فإن التعاون يتم ، من خلال دافع الحفاظ على الحياة . إن وظيفة جيش الدفاع الإسرائيلى هى الدفاع عن حياة الإسرائيليين ، ومن هنا يصبح التعاون ضرورة أكثر وضوحا وملموسة اكثر مما هى عليه فى أى نشاط اجتماعى (١٢٩) .

وبالإضافة إلى هذه التفسيرات يوجد تفسير آخر أعمق، وهو أن الصبار يستطيع داخل جيش الدفاع الإسرائيلى أن يجد مكانا ، وأن يكيف سلوكه مع النموذج المثالى الذى خلق من أجله ، دون أن يؤدى إلى صدام مع المجتمع الإسرائيلى .

ففى الجيش الإسرائيلى يستطيع «الصبار» أن يكون رجوليا ، وعنيداً ، و«مقاتلا» وصلبا ، مع الإخلاص والتفانى من أجل المجموع . إن الجيش ، بهذه الطريقة يستطيع أن يستنزف وأن يرعى الصفات الأساسية للصبار ، الكامنة فى الروح العدوانية ، فيسمح لها بالتعبير عن نفسها ويشجعها . إن العدوانية توجه إلى العدو المجهول ، وتوجه الصداقة والحب إلى الجماعة ، التى تتجسد فى صورة الوحدة العسكرية . ومن هنا فإن الضغط الاجتماعي – الملموس للغاية لدى أبناء «الكيبوتسات» والمزارع ، والموجود فى كل فئات المجتمع – يجد هو الآخر مجالا شرعيا فى جيش الدفاع الإسرائيلى ومهامه العدوانية العسكرية تجاه العدو العربى . وعلى هذا الأساس فإن جيش الدفاع الإسرائيلى يحول أبعاد السلوك الصبارى العدوانية إلى أبعاد توجه إلى العدو العربى ، فيصبح الجيش هو الجماعة الصبارية الاجتماعية ، ويصبح العدو العربى هو ذلك العدو المجهول الذى يفرغ فيه شحنته العدوانية .

وفى الحقيقة، فإن هذا الدور الذى يقوم به جيش الدفاع الإسرائيلى يجعلنا أمام سؤال على غرار سؤال البيضة والدجاجة ، حيث يصعب تحديد أيهما أسبق من الأخرى أو بمعنى آخر ، هل كانت ظروف المجتمع الإسرائيلى ، كمجتمع

يعيش فى حالة حصار دائم ، هى التى خلقت شخصية «الصبار» العدوانية النموذجية ، أم أن «الصبار» هو الذى أوجد فى الجيش المناخ الذى يتلاءم مع بنائه النفسى . وبرغم عدم أهمية السؤال ، إلا أن المهم فى هذه المسألة هو أن غريزة الوجود فى المجتمع الإسرائيلى قد تداخلت مع السمات الأساسية للشخصية الصبارية ، ومن خلال هذا التداخل ، أصبحت تجسد نظرية القوة والروح العدوانية التى بنيت على أساسها شخصية «الصبار» .

٦ - الرفض العربى للوجود الإسرائيلى :

لا يمكن التحدث عن الروح العدوانية عند الشخصية اليهودية الإسرائيلية بما استتبع ذلك من تحول ظاهرة الخوف من عدوان الآخرين (نظرية الأمن الإسرائيلية) إلى ظاهرة من ظواهر الحياة فى المجتمع الإسرائيلى ، وإلى محور وجودى يحدد سلوك هذا الإنسان ، دون ربط هذا الأمر بما يطلق عليه اسم «عقدة ديموقليس» التى تلعب دوراً رئيسيا بالنسبة للأفراد والمجتمعات ، فى اتجاه الإحساس بالهدف المشترك والتضامن فى مواجهة الخطر المرتقب .

إن تاريخ ديموقليس معروف . فهذا المداهن الذى تسلق دنيس أمير سيراقوصة، كان فى الوقت نفسه معجبا بسيده

لدرجة دفعت بسيده إلى أن يمنحه مكانه لعدة أيام . وهكذا وجد ديموقليس نفسه يتصدر حفلة ضخمة حافلة بكل مظاهر الابهة يحيط به خلالها كل رجال القصر ، وهم ينفذون أوامره ، ولكنه لاحظ فجأة فوق رأسه سيفا ثقيلا مربوطا بحبل رفيع جاهز للسقوط عليه فى كل لحظة وتوجيه طعنة نافذة إليه .

وهكذا تلخص هذه الحكاية التى أصبحت مثلا من الأمثلة التى تضرب فى الأخلاق كل مظاهر الخوف وعدم الطمأنينة.

ويمثل ديموقليس فى أصل هذا المثل الأخلاقى عدم الأمن فى فترة الرخاء . ويرمز إلى عدم وفاء الثروة لصاحبها ، وعدم ثبات أكثر الأوضاع استقرارا ، وعدم اليقين فى العالم القديم بعدم استقرار السلم ، واحتمال وقوع الحرب .

بيد أن التهديد يحدث آثارا أخرى أيضا : فهو يثير الغضب والروح العدوانية . ويحاول المرء المهدد بالخطر التفتيش عن المسئول عن تهديده : من الذى علق السيف فوق رأسه ؟ والخوف هو سبب معظم انفعالات العنف ، وهو أيضا من أسباب أعمال الشجاعة النادرة أحيانا . ولكن الفزع أيضا يولد أشرس أعمال العنف . وغالبا ما لوحظ أن الخوف من مصيبة من المصائب يولد انعكاسات عدوانية أخطر بكثير من المصيبة ذاتها . فالتهديد بالمجاعة مثلا ، عندما يستغله

المحرضون بذكاء يثير اضطرابات أكثر بكثير من المجاعة الحقيقية ، لأن المجاعة الحقيقية تولد الوهن أكثر مما تولد الاضطرابات .

وبوسعنا أن نحصل على كل شئ من أمة أو جماعة باقناعهما بأنهما مهددتان .

ويتضمن كل فن «أسياد الحرب» الفطنين تحريف أعمالهم العدوانية وإلباسها صفة الشرعية . وقد دافع الحكماء من أمثال مكيافلى ومونتسكيو عن الحرب الوقائية أو صوابها : فهى أحد مظاهر الخوف .

وهكذا نرى أن عقدة ديموقليس ليست عقدة فردية فقط : فهى أكثر فاعلية أيضا عندما تطبق على المجتمعات . وعندئذ يغدو عملها عدوانيا : إذ يصبح المضُطهد مضَطهِدا . ويتيح التاريخ لأمة من الأمم «كما تتيح حياتها السياسيِة» مجموعة من التظلمات القديمة ، والأحقاد والأعداء الورثة الداخليين والخارجيين . وليس هناك إلا الخيار ، كما قال بول فاليرى «فإثارة سخط البعض ضد البعض الآخر هى الخطوة الرئيسة للسياسيين» . ولكن أفضل حل لإيصال هذا السخط إلى ذروته هو اتهام الخصم بأنه يضمر نوايا سيئة . ويستقطب خوف كل المجموعة مجتمعة حول غرض موحد : ويتزايد الحقد ، وتصبح الأرض جاهزة ، ويتأثر السلم ويصبح مريضا .

إن مظاهر هذه العقدة التى تبرز بصورة أسرع ، وبصورة جلية ومفهومة هى مظاهر فردية . إنها النموذج المثالى النفسى للروح العدوانية لدى كل الرجال ، إذا أخذ كل منهم بصورة منعزلة . ومع هذا تقدم الجماعات البشرية أيضا ردود فعل مماثلة . فبأى سياق تنتقل هذه العقد والانعكاسات الناجمة عنها من المواقف والسلوكيات الفردية إلى مواقف وسلوكيات جماعية للجماعة التي ينتمون إليها ؟ إن الأفعال الفردية هى مركبات الأفعال الجماعية ، لأنها متكررة ويجمع بعضها إلى بعض . ويسمح تكرارها باحصائها وتصنيفها . ومن هنا ، تصبح مادة للاحصاءات ، وتتيح المجال بالتالى لحساب الاحتمالات ، ولوضع الفرضيات المتعلقة بانتظامها وبصفتها الدورية المفترضة . فهل نستطيع القول بأن السلوك الجماعى هو محصلة سلوك الأفراد ؟ وأن الروح العدوانية الهجومية هى مجموعة الأرواح العدوانية الفردية ؟ هنا لابد من وجود فروق وتباينات ، حيث أن للعقد العدوانية خاصية مشتركة وهى أنها تحتاج إلى أحداث خارجية ، ونقاط ارتكاز لكى تثير حدتها . وتقدم عقدة ديموقليس ، من بين كل العقد الأخرى ، أهمية اجتماعية ، وتاريخية وسياسية خاصة ، بسبب الانفعالات العدوانية التى تثيرها وتشملها (١٣٠) . فالخوف المشترك هو الرباط الذى يشد المجتمعات بعضها إلى

بعض . وعندئذ يعمل التهديد بالحرب على استقطاب أفراد المجتمع ، وتعزيز الخوف من العدو ، كما يقوى التحام الدولة وتماسكها ، وبصورة أفضل من كل الالزامات الاجتماعية ، ويقوى الوئام فى صفوف الشعب ، والانضباط ، والحماسة ، والولاء للحكم .

وعند هذا الحد يمكننا القول ، وعلى ضوء ما سبق ايضاحه من أبعاد لتلك العقدة المسماة «عقدة ديموقليس» ، : إن الإنسان الإسرائيلى الذى أصطبغ بالروح العدوانية النابعة من عدم احساسه بالأمان ، والذى يصرخ دوما من أنه مهدد بالإبادة على يد جيرانه من العرب ، إنما تتحكم فيه تلك العقدة العدوانية «عقدة ديموقليس» ، وهى التى تجعله لا يستسلم بسهولة لسلم أبدى أو طويل المدى ، ذلك لأن الحرب هى التى تخلق بينه وبين سائر أفراد جماعته روح التماسك والتلاحم ، وهى التى تذيب التناقضات الداخلية والتى بسببها يتم تجاوز كل الخلافات السياسية والدينية والاجتماعية إذا كانت الروح العدوانية هى جوهر لسلوك معين من جانب الفرد أو الجماعة فى تعاملها مع الآخرين ، وإذا كان من الممكن وجود الروح العدوانية لدى الجماعة دون حدوث حرب . فإن ما حدث بالنسبة للشخصية اليهودية الإسرائيلية هى أنها وجدت متنفسا دائما على امتداد مراحل الصراع العربى

الاسـرائيلى ، فى أشكال الصـدام المخـتلفـة التى وقـعت بين المسـتوطنين والفلسطينيين فى مراحل الاسـتيطان الأولى ، ثم بعـد ذلك فى سلسلة الحـروب المتـواصلة التى نشـبت بين اسرائيل ودول المواجـهة التى تحملت النصيب الأكبر فى هذا الصراع منذ عام ١٩٤٨ حتى الآن .

وبغض النظر عن مـدى شـرعـيـة الأهداف التى تسـعى إسرائيل لتحقيقها من وراء شن هذه الحروب ، لأنها من وجهة النظر العـربيـة هى أهـداف غـيـر مـشـروعـة تتم على حسـاب الشـعب الفلسطينى ، فلابد من إثبـات أن العنف كـان كمـبدأ ثابت فى البنيـة العـامـة للايديولوچية الصـهيـونيـة (مـفـاهيم جـابوتنسكى) هو الوسـيلة الفـعـالة ، التى تبنتـهـا الحـركـة الصـهـيونيـة من أجل تحـقيق أهدافـهـا فـيـمـا يسـمـى «أرض الميعاد» . وكان رد الفعل المباشر لهذا الأسلوب الصـهيونى فى تحقيق الأطمـاع الصـهـيونية على الأرض العربيـة هو حدوث ثورة عـام ١٩٣٦ ، ثم نشـوب حـرب عـام ١٩٤٨ ، التى كـانت من الجانب العـربى بمثـابة مـحـاولة لمنع تغـيير فى طريقه إلى الواقع ليس فى صـالحـهـا . ولكن الامـبرياليـة الإسـرائيليـة أدركت بـعـد ذلك ، ومن خـلال مـفـهـوم مـا يسـمـى «الأمـن القـومى الإسـرائيلى» ، أن الحـروب ، ضـد دول المواجـهـة العـربيـة ، أمـر ضـرورى ، من أجـل تـأمين أمـن إسـرائيل

الإقليمى من ناحية ، وللحيلولة دون أى محاولة من الجانب العربى لإحداث أى تغيير فى الوضع القائم من ناحية أخرى . ومن هنا كانت حروب أعوام ١٩٥٦ ، و١٩٦٧ ، و١٩٨٢ ، التى شنتها إسرائيل وفق تصورات استراتيجية معينة مثل «الحرب الوقائية» و«الضربة الاجهاضية» و«الحرب الرادعة» .... إلخ .

وفى إطار هذه النظرة يكاد يكون هناك اجماع بين باحثى الفكر الصهيونى وتطوره على أن القوتين الرئيسيتين اللتين تحددان مصير إسرائيل هما : الرفض العربى للوجود الإسرائيلى ، وتأثير «أحداث النازية» على بقاياها داخل الدولة اليهودية وخارجها .

لقد حملت «الأحداث» النازية الصهيونية على تأكيد أهمية الدولة اليهودية ذات السيادة ، وقيمتها من أجل حماية اليهود ، وإيجاد ملجأ أمن لهم . وآثار هذه «الأحداث» مازالت تلقى بظلها على قادة الحركة الصهيونية ، وزعماء إسرائيل فى إطار أن «شخصية عبرية» جديدة قد حلت محل تلك التى استسلمت للمذابح والتى مثلها «اليهودى الجيتوى» . وإذا كانت «أحداث» النازية قد خلقت نموذجا جديدا لليهودى الذى استطاع أن يستخدم العنف وسيلة لتحقيق أهدافه ، ويمثل دور المعتدى ويتوحد فيه ، فإن الرفض العربى للوجود

الصهيونى على الأرض العربية ظل ، منذ أن بدأت الحركة الصهيونية تشعر به وبجديته وأهميته منذ بدايات الصراع بين الوجود الصهيونى، بمثابة حجر عثرة فى سبيل تحقيق الصهيونية لأهدافها الرئيسية ، (إذا استثنينا تلك الانتصارات العسكرية التى تحققها إسرائيل فى المنطقة لأنها تمث إطارا اصطناعيا معاديا للتاريخ) .

ويؤكد امنون روبنشيتن هذا المعنى بقوله :

«ربما يمكن القول ، بأنه لولا العداء العربى ، لكان قد قام شعب عبرى على النمط الكنعانى . ولكن هذا العداء – سواء كان هو ذاته جزءا من المصير اليهودى أم لا – هو الذى حدد الحقائق . وهذه الحقائق لا يمكن تجاهلها وهى تطرح للمناقشة مسألة يهودية إسرائيل» (١٣١) .

وقد كان إيمان هرتسل بقدرة التحقيق الخاصة بالفكرة الصهيونية رهنا بشرطين لم يتحققا ، هما : عدم وجود عداء عربى ، ووجود وقت كاف كبير لتحقيق المشروع الصهيونى .

إذن فالرفض العربى بهذا المفهوم هو العنصر الرئيسى فى الحيلولة دون تحقيق الصهيونية لواحد من أهم أهدافها وهو «الملجأ الآمن» لليهود ، وهو الذى يدفعها إلى الادعاء بأنها دولة معزولة فى الشرق الأوسط يحيط بها الأعداء من كل جانب ، ولابد لها «لكى تدافع عن نفسها ، وتنتقم من

الاعتداء عليها» من أن تحتفظ بقوة عسكرية متنوعة، وإن تورطها في القتال ، إنما مرده أن لا توجد رغبة مماثلة في السلام لدى الجانب العربى .

وتحت عنوان «لو كان هرتسل قد عرف ، لكان تخلى عن الصهيونية»، نجد تحليلا مركزا لأزمة الصهيونية في مواجهة «الرفض العربى» ، يكشف عن أبعاد الفشل الذى تواجهه الصهيونية فى تحقيق أهدافها وخاصة بعد أن توهمت أنها أقامت دولة كملجأ آمن لليهود (١٣٢) . «لقد أرادت الصهيونية أن تحصل للشعب اليهودى المضطهد على وطن يستطيع أن يعيش فيه بأمان . ولم يتصور آباء الصهيونية أن الدولة اليهودية ستقوم عن طريق حرب مع كل الدول المجاورة ، وأن هذه الحروب لن تتوقف فقط ، بل ستتحول إلى طابع دائم لحياة الدولة . إن رفض العالم العربى (بما فى ذلك الفلسطينيين) التسليم بوجود الدولة ، وازدياد القوة الاقتصادية والسياسية للعرب في العالم بفضل قوة البترول ، وتحول المنطقة إلى أحد المخازن الكبرى في العالم للأسلحة الفتاكة الحديثة الموجهة في معظمها تقريبا ضد الدولة اليهودية ، كل هذا قلل جدا من قوة جذب إسرائيل كبلد يستطيع اليهود أن يأملوا فى الحياة فيه بأمان .

لقد حذر الصهيونيون اليهود دائما من أن حياتهم فى

«المنفى» ليست آمنة. واليوم ليس من السهل اقناع اليهود فى الشتات بأن حياتهم فى إسرائيل ستكون أكثر أمنا . إن الموقف الأمنى المهتز فى إسرائيل هو بلاشك أحد العوامل المهمة التى بسببها نجد أن معظم يهود الاتحاد السوفيتى الذين ينجحون فى الهجرة ، وكذلك معظم يهود إيران الذين هاجروا ، لا يهاجرون إلى إسرائيل» (١٣٣) .

وإذا كانت الصهيونية فى مراحلها الأولى قد سعت إلى تحويل الاستيطان الصهيونى إلى كيان عضوى من منطقة الشرق العربى ، فإن الرفض العربى قد حال دون هذا ، ووضع الكيان الصهيونى فى مأزق لم تحسب الصهيونية حسابه ، وهو تحويله إلى جزيرة معزولة داخل المنطقة محاطة بمشاعر العداء والكراهية من الشعوب العربية عامة ، ومن الشعب الفلسطينى بصفة خاصة ، مما سحب من تحت أقدامها إمكانية الخروج من مأزق اليهودية التاريخى الذى يتجلى فى رفض المجتمعات لليهود . لقد رفضهم المجتمع المسيحى فى الغرب كأفراد ، ورفضهم العالم العربى كدولة ، مما كثف فى الوجدان الإسرائيلى الإحساس بمشاعر العداء ذات الجذور التاريخية من الأغيار تجاهه ، وهو ما يسبب لهم تمزقا نفسيا عميقا .

ويعبر امنون روبنشتين عن هذه الظاهرة بقوله :

ها نحن نرى كيف أن إسرائيل ، بعد نجاح الثورة الصهيونية ، تقوم ، إلى حد معين ، بالدور الكلاسيكى الذى قام به اليهود بين المجتمعات المسيحية . إن إسرائيل ، مثل اليهود، ترفض أن تبتلع وأن تندمج فى بيئتها المعادية ، لقد تمسكت ، مثل اليهودى العنيد ، بطابع حياتها ورفضت أن تستوعب داخل السكان الغرباء ، أو أن تستوعبهم فى داخلها، ومثل اليهود فى المنفى ، ومثل الهيكل الثانى فى أيام الرومان ، ومثل الأسباط العبريين فى كنعان ، ومثل بنى إسرائيل فى مصر ، تشكل دولة إسرائيل عنصرا مهيجا، ومانعا للهدوء ، ومثل «اليهودى الجالوتى» (١٣٤) ، تستخدم إسرائيل مركزا للكراهية والاحترام ، للغيرة والشك . ومثل آبائنا نحن أيضا كذلك : إن فينا خليطا من الفزع العميق والثقة بالنفس ، وبهدفنا وبقوتنا» .

وليس هناك ما يدعو للدهشة ، إذن ، أن تكون لدى إسرائيل اليهودية علاقة مزدوجة القيمة تجاه العالم الذى يحيط بها . فحينما زادت عزلتها بعد حرب يونيو ١٩٦٧، زاد وزن العنصر اليهودى الكلاسيكى ، ووجهة النظر التقليدية الخاصة بطائفة محاطة بعالم معاد ، تضرب جذورا تتغذى من طبقة اللاوعى القديمة» (١٣٥) .

وهذا الإحساس التاريخي لدى اليهودى فى علاقته بالعالم المحيط به ، والذى تجسده إسرائيل باعتبارها صورة متطورة للجيتو اليهودى التاريخى ، يجعل إسرائيل ، مثلها مثل اليهودى أيضا ، فى حالة دائمة من الافتقاد للحوار بينها وبين الآخرين ، ويجعلها تعيش فى حالة مستمرة من الحوار مع الذات ، وهو بعد آخر من أخطر الأبعاد التى تؤثر على وعى الإنسان اليهودى عامة ، والإسرائيلى خاصة ، مما يجعله يشعر بأنه فى حالة دائمة من العزلة والحصار . وقد عبر الأديب الإسرائيلى أهارون ميجد ، الذى ينتمى إلى المعسكر المعتدل ، والذى يعبر فى كتاباته عن المشاعر الإسرائيلية تجاه العرب ، عن هذا البعد ، حينما عقد مقارنة بين فشل انصهار اليهود فى ألمانيا ، وبين الفشل الإسرائيلى فى الحوار مع العرب : «كم هو محطم أن نفكر ، فى أن نفس الأشياء ذاتها (يقصد الحوار مع الألمان) ، يمكن أن تقال حرفيا على «الحوار» الذى نقيمه مع العرب ، فمنذ ستين عاما ، أو سبعين عاما ، ونحن نطالب ونتوسل وأيضا نتذلل ، وأيضا نتصلب بمرارة ، ويكل لهجات مشاعر الاحترام وعدم الاحترام ، آملين أن يتحول صدى نداءاتنا فجأة إلى صوت الآخرين ، وحينما نعتقد أننا نتحدث إلى العرب ، يتضح أننا لا نتحدث إلا إلى أنفسنا .. إن هذه ظاهرة مثيرة للشفقة . ظاهرة تثير الشفقة

والرحمة معا ، سواء في مظهرها الألماني أو في مظهرها الفلسطيني (١٣٦) .

٧ - الطابع الإمبريالي لإسرائيل :

لقد كان اليهود عبر تاريخهم شديدي الحساسية لتغيرات السلطة المرتقبة . فبعد أن خدموا الفراعنة مائتي سنة تحولوا إلى الأسكندر الأكبر في الوقت المناسب لينالوا تقديره . وبعد أن خدموا البطالسة زهاء ثلاثة قرون تحولوا إلى يوليوس قيصر في الوقت المناسب أيضا ، وكسبوا امتيازات خاصة من الرومان .

وعندما ظهرت الصهيونية على مسرح الأحداث في بداية القرن العشرين كان الخط الواضح والمميز لسياستها الخارجية هو الإرتباط بالقوة الكبرى التي يمكن أن تساعدها في تحقيق أمانيها بإقامة دولة يهودية في فلسطين .

وقد صرح ماكس نورداو مساعد الزعيم الصهيوني تيودور هرتزل حول هذه المسألة بقوله : «إن أمانينا تتجه نحو فلسطين ، كما تتجه البوصلة نحو الشمال . لذا ينبغي أن نوجه أنفسنا صوب تلك القوى (ألمانيا وتركيا) التي يتصادف أن تكون فلسطين في دائرة نفوذها» .

وهكذا فإن الصهيونية السياسية في أولى مراحل وجودها

(فى الفـتـرة من عـام ١٨٩٧ إلى عـام ١٩١٤) توددت إلى السلطان التركى والقيصر الألمانى ، فى محاولة لاكتساب موافقتهما على المخططات الصهيونية . وإبان الحرب العالمية الأولى تحولت بؤرة الحملة عندما اتضح أن بريطانيا ستكون هى التى سترث الحكم فى فلسطين .

وقد تحقق الهدف الأساسى للسياسة الخارجية الصهيونية يوم ٢ نوفمبر عام ١٩١٧ ، عندما أعلنت الحكومة البريطانية وعد بلفور معترفة بحق الصهيونيين فى إقامة وطن قومى يهودى فى فلسطين ، وقاطعة وعدا مبهما بالتأييد .

ومن الواضح ، حتى فى هذه المرحلة المبكرة أن وجهة السياسة الخارجية الصهيونية الموالية للاستعمار كانت ملازمة لأهدافها ، لأن الصهيونية لم يكن لها أن تشرع فى تنفيذ مخططاتها ، ما لم يصدق عليها من له السيطرة على فلسطين . وهذا المنطق الداخلى هو الذى ساق الصهيونية إلى المعسكر الإمبريالى .

وما أن تم إقرار شرعية المخطط الصهيونى حتى اتخذت الخطوة التالية ، وهى وضع ذلك المخطط موضع التنفيذ مما استلزم أمرين إثنين : هجرة يهودية جماعية إلى فلسطين ، واستيلاء اليهود على الأرض العربية بالجملة .

وحين استيقظ العرب الفلسطينيون وبلغوا مرتبة الوعى

السياسى فى ظل الحرب العالمية الأولى ، حين ألمحت لهم بريطانيا أثناء الحرب بالاستقلال (لكى تكسب تعاونهم ضد الأتراك) ، فإنهم عملوا من فورهم على معارضة المخطط الصهيونى ، لأنهم لم تكن لديهم الرغبة في أن يتحولوا إلى أقليج فى بلادهم ، كما لم تكن لديهم الرغبة كذلك ليكونوا مواطنين فى دولة يهودية . ويضاف إلى ذلك أنهم كانوا يتوقون لإنشاء دولتهم ، ومن ثم وجدوا أن مصالحهم السياسية تتعارض مع مصالح البريطانيين تعارضا مباشرا ، ومن ناحية أخرى ، أدرك الصهيونيون أنه إذا ما حصل العرب فى فلسطين على استقلالهم قبل أن يشكل اليهود أغلبية ، فإن ذلك يعنى هزيمة الهدف الصهيونى الأساسى . وهكذا ، فإن الصهيونيين حاولوا مساندة الحكم البريطانى لمدة تكفى لزيادة عددهم ، ولشراء مزيد من الأرض .

وفى السنوات الثلاثين بين عام ١٩١٨ وعام ١٩٤٨ زاد سكان فلسطين من اليهود من ٥٠,٠٠٠ إلى٦٥٠ ألف نسمة، وكان أغلب هذه الزيادة ناتجا عن الهجرة الصهيونية .

وعند هذه النقطة كانت مرحلة الاغتصاب والعدوان قد وصلت إلى مرحلة التبلور وقطف الثمار ، تبلور العقيدة الصهيونية كعقيدة عدوانية واغتصابية ، وقطف ثمار هذا

الاغتصاب الاستعمارى ، بإقامة دولة يهودية على أرض الوطن العربى الفلسطينى المغتصب .

ففى عام ١٩٤٨ ، كان اليهود يشكلون قرابة ٣٣٪ من سكان فلسطين ، ويمتلكون ٦٪ من الأرض . ومع هذا اختصت الأمم المتحدة فى قرار التقسيم فى ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ وبإيعاز من روسيا والولايات المتحدة «الدولة اليهودية» بحوالى ٥٤٪ منها ، أى أن ٤٩٪ من أرض فلسطين تحول بجرة قلم فى نيويورك من عرب فلسطين لليهود .

وفى القتال الذى دار بعد ذلك خلال حرب ١٩٤٨ استولت إسرائيل على ٢٥٪ من الأرض ، فكان ناتج ذلك أن استحوذ ٣٣٪ من اليهود على ما يقرب من ٨٠٪ من فلسطين . ومما يدعو للسخرية أن المنطقة التى تركت للفلسطينيين هى تلك التى كانت تحتلها إسرائيل أيام العهد القديم ، وهى منطقة الجليل والضفة الغربية .

وبعد هذه الجهود الاغتصابية العدوانية كان الواجب الرئيسى للسياسة الإسرائيلية الخارجية هو كسب اعتراف الرأى العام العالمى بشرعية ما استولت عليه . وقد قدمت الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وفرنسا هذا الاعتراف فى القرار الثلاثى الصادر فى عام ١٩٥٠ حيث وافقت هذه الدول الثلاث على خطوط هدنة عام ١٩٤٩ .

وهكذا يمكن القول بأن الزعماء الصهاينة من هرتسل حتى حييم وايزمان (أول رئيس لدولة إسرائيل) قد قدروا الأهمية الكاملة التى من الممكن أن تكون للمساعدة الأدبية والسياسية من جانب القوى العالمية الإمبريالية ، من أجل تحقيق هدفهم . وكانت وجهة نظرهم أن الاعتماد على قوة إمبريالية كبرى من شأنه أن يحسم أمورا ثلاثة على درجة من الأهمية بالنسبة للمخطط الصهيونى :

١ - منح شرعية للصهيونية .

٢ - الدفاع عن الدولة اليهودية وتشجيع نموها وتطورها الإقتصادى .

٣ - أن يدرك العرب أن المقاومة ، من أى نوع كانت ، وبصفة خاصة المقاومة المسلحة للصهيونية ، لا معنى لها .

ونظرا لإدراك هذا الأمر ، فقد سعى وايزمان والآخرون ، إلى أن يقوا ، خلال سنوات إنشاء الدولة اليهودية ، وسنوات الانتداب البريطانى فى فلسطين ، «العلاقة البريطانية» معهم .

وقد كانت النية الواضحة هى تحويل الصهيونية إلى حليف لبريطانيا ، عن طريق ربط مصير الحركة الصهيونية بمصير الامبراطورية البريطانية . وخلال هذه السنوات بذل الصهيونيون جهدا هائلا من أجل تذكير الموظفين البريطانيين فى لندن بالالتزام الأصلى الخاص بوعد بلفور ، ومن أجل

التوصل إلى احترام هذا الالتزام عن طريق إعطاء تأييد أكبر للمشروع الصهيوني .

وحتى حينما حاولت بريطانيا أن تتنكر للصهيونية وأن تنفض يدها منها ، فإن وايزمان مهندس الاستراتيجية الأنجلو صهيونية الخاصة بمبدأ «القوة الواحدة الكبيرة» واصل الطريق مثابرا . وبالرغم من أنه عرف ، أن مغزى «الكتاب الأبيض» الذى كان على وشك أن ينشر هو تجميد الوطن القومي اليهودي وتخلي بريطانيا عنه ، فإنه كان مازال يستطيع أن يقول فى عام ١٩٣٩ : «بالنسبة لنا ، نحن اليهود، يعتبر الإخلاص لبريطانيا العظمى موضوعا ليس مشروطا على الاطلاق تقريبا ، بأى موقف ، أيا كان» .

وقد تعرض وايزمان للاستنكار من جانب نقاده داخل الحركة الصهيونية بسبب تمسكه هذا بالسياسة المؤيدة لبريطانيا . وبالإضافة إلى هذا ، هناك حقيقة تاريخية معروفة، وهى أنه فى الفترة ما بين الحربين العالميتين لم يكن هناك مرشح واحد لدور «القوة الكبيرة الواحدة» - لا فرنسا ولا روسيا ولا ألمانيا الهتلرية ولا الولايات المتحدة الأمريكية التى كان يسودها فى تلك الفترة اتجاه الانعزالية . حتى زئيف جابوتنسكى ، الذى عارض سياسة وايزمان التدريجية، مال هو الآخر بالفعل لقطع شوط أبعد مدى منه فى حماسه

تجاه بريطانيا حينما قال : «لتكن هذه بركة ، لكل دولة أيا كانت أن تتحول إلى شريك فى رابطة الشعوب البريطانية للشعوب الحرة» (١٣٧) .

وقد اتضح فى نهاية الأمر ، خطأ هذا الأمر ، لأن «العلاقة البريطانية - الصهيونية تقوضت تماما خلال السنوات ١٩٤٥ - ١٩٤٧ حين تحول الأمر إلى صراع مسلح بين البريطانيين واليهود فى فلسطين .

وبالرغم من هذا ، فإنه من خلال الإخلاص لنظرية «القوة الإمبريالية» وجهت القيادة الصهيونية اهتمامها بالكامل نحو الولايات المتحدة الأمريكية كبديل لبريطانيا ، دعما لنظرية أن الصهيونية لكى تنجح فى تنفيذ مخططها وحمايته فلابد لها من تأييد خارجى .

ويقول يائير عفرون أن «وجهة النظر الصهيونية التقليدية تجاه دعم الدول العظمى كانت مزدوجة المغزى . لقد كان الاتجاه الأساسى هو طلب الدعم من الدول العظمى . ولم يتغير هذا الاتجاه من حيث المبدأ مع قيام دولة اسرائيل . وقد قام بن جوريون بالفعل فى عام ١٩٥١ بعمل اتصالات مكثفة من أجل إقامة حلف ثنائى مع بريطانيا . وبمحاذاة هذا الاتجاه ، سواء فى فترة ما قبل الدولة أو ما بعد قيامها ، كان هناك اتجاه «الاعتماد على الذات» الذى عارض الدعم الشامل

الخـارجى ، ورفض الاعـتـمـاد الزائد عن الحـد على الدول العظمى» (١٣٨) .

ولكن سرعان ما أهمل إتجاه الإعتماد على الذات ، إزاء الرغبة فى تعزيز أمن إسرائيل ، وبسبب الهجوم الديبلوماسى السوفيتى المؤيد للعرب ، والذى تجلى فى صفقة الأسلحة عام ١٩٥٥ ، وإزاء عدم القدرة على الاعـتـمـاد على بريطانيا أو فرنسا كمصادر بديلة للولايات المتحدة الأمريكية .

وحينما اتضح هذا الموقف لخلفاء وايزمان (بن جوريون وليفى اشكول وجولدا مائير وإسحق رابين) عاد هؤلاء الورثة إلى عجلة الارتباط بالقوة الإمبريالية الكبرى ، وبرزت هذه السياسة بصفة خاصة فى الجهود الإسرائيلية التى وجهت إلى الولايات المتحدة الأمريكية منذ عام ١٩٦٧ .

والأمر ليس مقصورا على توجهات إسرائيل فحسب ، بل إن الدعم الذى تقدمه الولايات المتحدة الأمريكية لإسرائيل ، هو دعم يحقق لها مصالح حيوية على درجة كبيرة من الأهمية بالنسبة لهذه المصالح فى منطقة الشرق الأوسط .

ويؤكد برنارد رايخ هذا الاتجاه بقوله :

«إن اسرائيل تحتل مكانة خاصة فى سياسة الولايات المتحدة الأمريكية فى الشرق الأوسط بشكل لا مثيل له ، وهى المكانة التى يجسدها دور إسرائيل فى الصراع العربى

الإسرائيلى . إن وجود إسرائيل وأمنها هما خطوط رئيسية فى سياسة الولايات المتحدة الأمريكية منذ وجود اسرائيل ، حيث تدعمها منذ ذلك الحين وحتى اليوم . وقد توثقت العلاقات الخاصة بينهما بمرور السنين ووصلت إلى مستويات جيدة ذات مغزى فى مجال التعاون والتنسيق فى المجالات السياسية والاقتصادية والعسكرية خلال الفترة ما بين حرب ١٩٦٧ وحرب أكتوبر ١٩٧٣ ، بالرغم من وجود تراجعات هنا أو هناك أو بعض البرود» (١٣٩) .

وتعتمد مساندة أمريكا للوجود الإسرائيلى فى المنطقة العربية إلى عدة عوامل أيديولوجية واقتصادية واستراتيجية ودينية نذكر منها :

١ - معارضة أمريكا لمفهوم القومية العربية لما يمكن أن تحظى به من نفوذ يتنافى مع مصالحها فى الشرق الأوسط .

٢ - امكان استخدام إسرائيل كبديل استراتيجى لتحقيق المصالح الأمريكية فى المنطقة .

٣ - تأثير قوى الضغط الصهيونية فى الولايات المتحدة الأمريكية .

٤ - إيمان فريق غير قليل من الأمريكيين بأن إسرائيل هى تحقيق للنبوءة التوراتية التى يعود اليهود بموجبها إلى ما

يسمى «أرض الميعاد» ، وتعزز هذا الاتجاه بعد النكبة النازية وما عاناه اليهود ، مما خلق شعورا بالذنب لدى هذا القطاع ، رأى بموجبه ضرورة مساعدة اليهود على الحصول على وطن قومى لهم فى فلسطين .

٥ - التصور الزائف لدى قطاع من الأمريكيين بأن مساعدة إسرائيل إنما هى مسألة أخلاقية يقفون بموجبها إلى جانب «الضعيف» ، (داود) فى مواجهة القوى «جالوت» الذى تمثله الدول العربية العدوانية والتى تريد حسب الزعم المتردد القاءهم فى البحر .

٦ - أن وجود إسرائيل فى المنطقة العربية هو أمر حيوى لإزدهار الايديولوجية الرأسمالية التى تمثلها أمريكا باعتبارها دولة غربية ديمقراطية فى بحر من الدول الإقطاعية الدكتاتورية المتخلفة .

٧ - أن إسرائيل أثبتت قدرتها العسكرية المتفوقة كممثلة لقوة التسلح الغربية فى مواجهة السلاح السوفييتى الذى يحارب به أعداؤها من العرب ، وبذلك فإن إسرائيل كانت تقف ممثلة لأمريكا فى مواجهة التدخل السوفيتى في الصراع العربى الإسرائيلى ، وفى مواجهة محاولة السوفييت (سابقا) السيطرة على مصادر الثروة فى المنطقة العربية ومنطقة الخليج .

٨ – أن إسـرائيل تحـول دون ظهـور قـوى راديكاليـة فى المنطقة العربية تهز من تأثير النفوذ الأمريكى الإسرائيلى فى المنطقة العربية .

٩ – أن تدهور أو سقوط إسرائيل يهز من نفوذ وصورة أمـريكا فى المنطقـة ، ويعـمل على زيادة النفـوذ الأوروبى أو الروسى، ويضعف من الدول العربيـة المعتدلة المرتبطة بأمريكا ومصالحها ، ومن هنا فإن إسرائيل القوية هى أفضل ضمان للاستقرار والأمن فى المنطقة .

١٠– خشـية فريق من الأمريكيين من تحول يهود إسرائيل إلى أمريكا فى حالة عدم استقرارهم داخل دولة إسرائيل .

وقد صرح حون بادو ، السفير الأمريكى سابقا فى مصر مـحـددا مكانة إسـرائيل فى سلم الأولويات بالنسـبة للولايات المتحدة الأمريكية بقوله :

«إن إسرائيل هى المصلحة المباشرة الأقدم بالنسبة لنا فى المنطقة ضمانا قبل نظرية ترومان – بالفعل ، ومن قبل قيام دولة إسـرائيل – أعـرب الكونجـرس عن مـوقفـه الإيجـابى من الخطة التى وردت فى وعـد بلفـور ... وليس هنـاك شك فى أن وجود إسرائيل كدولة مستقلة يعد من الالتزامات الأساسية للسياسة الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية» (١٤٠) .

وهكذا فكما أخذت بريطانيا على عاتقها مسئولية أمن «الاستيطان الصهيونى» قبل قيام الدولة فإن الولايات المتحدة الأمريكية هى الأخرى ساهمت فى أمن إسرائيل بصورة مزدوجة : ضمان القدرة العسكرية الرادعة للجيش الإسرائيلى ، وضمان وجودها الاقتصادى ، إذ أنه من الواضح أن المساعدة الاقتصادية الأمريكية لإسرائيل ليس لها بديل من أجل وجود إسرائيل ككيان حى ، طالما أن إسرائيل تقوم بتأدية خدمات محددة لاستراتيجية الامبريالية الأمريكية فى الشرق الأوسط . «وفى طليعة هذه الخدمات ، فصل الأسواق العربية عن بعضها البعض ، والحيلولة دون قيام وحدة عربية ، بل تجزئه حركة القومية العربية ، والحركات الشعبية الأخرى ، وإكراه الدول العربية على استثمار أموالها فى التسلح والنفقات بدلا من استثمارها فى تنمية اقتصادها » (١٤١) .

وقد لا يتسع المجال هنا لسرد قائمة المساعدات الاقتصادية والعسكرية التى منحتها أمريكا لإسرائيل لانقاذها من الهزيمة كما حدث فى حرب اكتوبر عام ١٩٧٣ من خلال الجسر الجوى ، الذى كان له أهمية حاسمة فى الحيلولة دون هزيمة إسرائيل ، أو الدعم العسكرى الذى حصلت عليه بعد هذه الحرب لتوازن التطور العسكرى الذى

حدث فى الدول العربية ، أو لانقاذها من الانهيار الاقتصادى كما حدث فى مرات عديدة آخرها ذلك الاتفاق الخاص بالتعاون الاستراتيجى بين الولايات المتحدة الامريكية وإسرائيل عام (١٩٨٤) ، والذى يؤدى إلى مسئوليتها عن تطوير الصناعة الحربية الإسرائيلية ، وتطوير كفاءتها ، وتنمية الصناعة المدنية الإسرائيلية ، وإقامة منطقة خاصة بالتجارة الحرة بين البلدين ، أو لمساندتها فى المحافل الدولية، وخاصة فى مجلس الأمن والأمم المتحدة ، والتصويت ضد كافة القرارات التى تدين احتلالها للأراضى بالقوة (١٩٦٧) ، أو التى تدين الصهيونية (أكتوبر ١٩٧٧) ، أو ضد إقامة المستوطنات الإسرائيلية فى أراضى الضفة الغربية (١٩٨٣) ، أو التى تدين ممارسات العنف أثناء حرب لبنان (١٩٨٥) أو التى تدين الممارسات الإسرائيلية ضد الفلسطينيين على امتداد الفترة من مارس ٢٠٠١ وحتى نهاية ٢٠٠٢م.

وإسرائيل بارتباطها الامبريالى بالولايات المتحدة ، كمصدر للدعم العسكرى والاقتصادى والأمنى ، تحقق عدة ميزات على المستوى السياسى نذكر منها :

١ - الحيلولة دون إمكانية أن تعمل القوى العظمى الأخرى ضدها، مثلما حدث فى عام ١٩٥٧ حينما هددت أمريكا والاتحاد السوفييتى بالعمل ضد اسرائيل (١) ، أو كما يمكن أن يحدث عن طريق فرض تسوية على إسرائيل .

٢ - السهولة من الناحية السيكولوجية والبيروقراطية في الحركة في اتجاه الاعتماد على حليف امبريالى بدلا من المخاطرات التى تنطوى عليها عملية المناورة بين القوى العظمى.

وإسرائيل تعتمد على هذه المساندة الامبريالية في تحقيق المخطط الصهيونى، الذى هو في الواقع وعلى وجه التحديد مشروع استعمارى استيطانى يؤكد على أن إسرائيل تكونت عند نقطة اللقاء بين الظاهرتين التاريختين : الظاهرة الامبريالية والظاهرة الصهيونية .

ويمكننا أن نستخلص مما تقدم أن استمرار الوجود الإسرائيلى في المنطقة العربية ، واستمرار الروح العدوانية التوسعية لهذه الدولة تجاه الدول العربية المحيطة بها بشكل عام ، وتجاه الفلسطينين بشكل خاص ، يعتمد كليا على قيام إسرائيل بدور امبريالى بالنيابة عن الولايات المتحدة الامريكية. إنها تتلقى من الولايات المتحدة الامريكية ، بوجه خاص ، المساعدات الاقتصادية لموازنة اقتصادها وانمائه ، كما تتلقى كميات هائلة من الأسلحة ، وينعم سكانها بمستوى

(١) قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم ١١٢٣ في الدورة الحادية عشرة بتاريخ ١٩٥٧/١/١١ وقرار رقم ١١٢٤ في الدورة نفسها بتاريخ ١٩٥٧/٢/٢ .

عال من المعيشة لاغراء أكبر عدد من يهود العالم بالهجرة إليها . كل ذلك تتلقاه مقابل الحرب التى تشنها إزاء أى بادرة عربية لا تتسق مع المخطط الصهيونى التوسعى التسلطى من ناحية ، ومع المصالح الامبريالية فى المنطقة العربية ، من ناحية أخرى .

ولكن شن هذه الحرب هو كذلك سبب بقائها معزولة وسط محيط معادلها ، كما هو سبب بقائها معتمدة اقتصاديا على الدول الغربية . وهكذا نجد إسرائيل نفسها تدور فى حلقة مفرغة شريرة سداها ولحمتها عنصران متناقضان هما التبعية والإمبريالية فى آن معاً .

إن استمرار اسرائيل «كدولة صهيونية» يعتمد على توازن مهزوز يستند بدوره إلى الشروط التالية :

١ - الحفاظ على الوحدة الوطنية الداخلية فى المجتمع الإسرائيلى وهو أمر يتطلب قيام مستوى معيشة مرتفع . أى اقتصاد قومى ، كما يتطلب وجود المناداة بتهديد خارجى دائم من الدول العربية المتاخمة يبرر لها شن الحروب الاجهاضية (حربا ١٩٥٦ و ١٩٦٧) ، والضربات الانتقامية (ضرب المفاعل النووى العراقى (١٩٨١) والحروب التصفوية تحت شعار أمن الحدود (حرب لبنان ١٩٨٢ لتصفية حركة

المقاومة الفلسطينية عسكريا وشل فاعلية أجهزتها) ، وتصفية المقاومة الفلسطينية (٢٠٠١).

٢ – الحفاظ على رغبة يهود العالم فى «العودة» ، أو على الأقل رغبتهم فى استمرار وجود دولة يهودية لتكون عند الضرورة ملجأ لهم يهربون إليه من اللاسامية ، أو تجميع البقية الباقية من يهود آسيا وأفريقيا كما حدث فى حالة يهود الفالاشا (١٩٨٥) لاستخدامهم فى إقامة المستوطنات الدفاعية وفى الحروب المتواصلة .

٣ – مساندة غير مشروطة تقدمها الولايات المتحدة ، وبقية الدول الغربية إلى إسرائيل ، وهى مساندة تشمل تغطية معظم العجز الاقتصادى الذى تعانى منه إسرائيل . فإذا فقدت إسرائيل أيا من هذه الشروط فمن المحتمل أن تعجز عن الاستمرار فى البقاء كدولة يهودية على النحو الذى رسم بموجب المخطط الصهيونى . إذ تفقد حينذاك إحدى الركائز الأساسية التى تحتاج إليها للاستمرار فى الوجود .

وإذا كان اندماج اليهود بشعوب الأقطار التى يعيشون فيها خارج إسرائيل هو الخطر الرئيس الذى يهدد الشروط الثلاثة سابقة الذكر . فإن هناك خطرا رئيسا آخر لا يقل أثره عن خطر عنصر الاندماج، ألا وهو خطر قيام السلام فى

الشرق الأوسط . فمن أين يمكن أن يأتى هذا السلام الخطر؟ والجواب أنه يحتمل أن يأتى من حاجة الولايات المتحدة إلى أحداث تغيير فى استراتيجيتها الامبريالية فى الشرق الأوسط قد يستدعى قيام تحالف «اميركى - عربى» و «أوروبى - عربى» يترتب على وجود مصالح امريكية محتملة فى المنطقة العربية لدى الأطراف العربية .

والواقع أن هذا هو بالضبط ما يحدث منذ حرب ١٩٧٣ . فالامبرياليون لم يعد يكفيهم أن يتحدثوا عن الرغبة فى السلام ، بل هم يحاولون تحقيق هذا السلام بالفعل . ومن الواضح أن العقبة الوحيدة فى وجه هذا السلام الامريكى ، إنما هى حركة المقاومة الفلسطينية ، الأمر الذى يفسر سبب محاولة الامبرياليين الآن تصفية هذه الحركة ، أو اخضاعها لظروف التحولات الجديدة التى تتفق وخط الأنظمة العربية المرتبطة بمصالح الولايات المتحدة فى المنطقة .

٨ - الإحساس بحتمية الحروب للوجود الإسرائيلى :

إن من يدرس الايديولوجية الصهيونية ، وتاريخ الاستيطان الصهيونى فى فلسطين ، ومراحل الصراع العربى الإسرائيلى حتى اليوم ، يمكنه أن يدرك للوهلة الأولى أن الحروب ، هى بمثابة اسطورة مغلقة تدخل فى إطار البنية

العامة للعقيدة الصهيونية ، شأنها في ذلك شأن سائر الأساطير المغلقة التى يتعامل معها الفكر الصهيونى الغيبى، مثل أسطورة أرض الميعاد ، والحق التاريخى فى فلسطين، والشعب المختار ، التى هى بمثابة أكاذيب مثل أسطورة شعب بلا أرض لأرض بلا شعب .

وبالرغم من أن الإسرائيليين ، فى نهاية الأمر هم بشر ، يمارسون احساسهم بأنفسهم ، ولهم ادراكهم المباشر للواقع، وهو ادراك يتخطى أحيانا حدود العقيدة الوهمية المفروضة عليهم ، ويتخطى الواقع الوهمى الممول امبرياليا ، إلا أنهم يعيشون تناقضا حادا بين فرضيات العقيدة الصهيونية ، وبين افرازات المجتمع الإسرائيلى فى صراعه مع الواقع العربى الرافض لوجوده ، وهذا التناقض الحاد الذى يعيشه الإسرائيليون ، وهو تناقض لا يملكون له حسما ، هو الذى يفسر سقوطهم فى هوة الجبرية .

وهكذا أصبحت الحروب بمثابة تجسيد ومتنفس حتمى وضرورى للروح العدوانية لدى الشخصية اليهودية الإسرائيلية، مهما حاولت العقيدة الصهيونية أو الامبريالية الإسرائيلية أن تلبسها من أردية الشرعية المختلفة .

وتعبر عالمة النفس الإسرائيلية عاميا ليبليخ عن هذا

الظاهرة التى لازمت الوجود الصهيونى على الأرض العربية بقولها :

«إن التعايش مع الحرب - أو حسب أقوال الشاعر الإسرائيلى ناتان الترمان «الحياة على خط النهاية» - كان ومازال جزءاً رئيسا من حياتنا ، منذ إقامة الدولة وكذلك فى الفترة السابقة عليها . ولكن ، الخوف من الهزيمة - الذى معناه موت الأعزاء علينا وربما كذلك مات هو أفظع من ذلك - قد زاد بعد حرب يوم الغفران » (١٤٢) .

ويمكننا أن نجد فى ذلك العرض الذى قدمته عاميا ليبليخ لدراستها عن الاتجاهات السيكولوجية التى عمت الشخصية الإسرائيلية فى أعقاب حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ ، تأكيدا على تأصل ظاهرة الحياة فى ظل الحروب بالنسبة للشخصية اليهودية الإسرائيلية ، واحتياجها الدائم لمثل هذه الحروب كرد فعل للخوف من الدمار والهزيمة التى لا تعنى سوى شىء واحد هو الموت ، مما جعل هذه الشخصية تتعايش مع أحاسيس الروح العدوانية كسلوك جماعى . تقول عاميا ليبليخ:

«لقد كانت حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ هى الحرب السادسة التى خبرتها عبر حياتى فى البلاد . وقد تركت تلك الحروب الستة آثارها على ، كما أثرت على سكان إسرائيل . ذكريات

مشوشة ، وصور وحيدة ، وأقوال ، بقيت في داخلنا صفا فوق صف .

لست أذكر كثيرا عن الحرب العالمية الثانية . فأنا أبدو في ألبوم الصور عبر الصور الصفراء طفلة صغيرة ، وسط طبيعة قروية ، وهي تضع كفها في فم كلب يكبرها حجما بكثير . وقد هرب والدي من تل أبيب إلي قرية صغيرة خوفا من خطر عمليات القصف على المدينة . إنني اتذكر محادثات هامة بين الآباء عن أحداث النازية، التي قضت على يهود أوروبا . لقد كانوا يبحثون عن أقارب للأسرة فقدوا .

إن أحداث النازية التي اجتاحت يهود أوروبا قد ألقت ظلا على حياتنا ، ليس بأقل من ذلك الظل الذي فرضه عليهم خطر الحرب . ومع نهاية الحرب العالمية الثانية سافر أبي باعتباره عضوا في وفد الانقاذ . وظلت أمي بمفردها في المنزل ، مع ثلاث فتيات صغيرات ، منتظرة عودة أبي . وكانت حرب الاستقلال (تقصد حرب ١٩٤٨) ، بالنسبة لي ، عبارة عن ملجأ تم حفره في الحديقة الخلفية للمنزل ، سدت أكياس الرمل المدخل ، ومارسنا الحياة في الظلام الرطب المخيف . إن أذكر الملجأ ، وصفارات الانذار المتوالية ، والترقب القلق لصفارة الأمان . وكنا عبر النهار نبحث ، على جبل يافا ، عن عبوات الرصاص . وقد قتلت طفلة صغيرة ، كانت رفيقتي في

الدراسة ، نتيجة غارة على تل أبيب . ومرة أخرى انتظرت عودة أبى : لقد ذهب إلى القدس .

وكانت حرب سيناء ١٩٥٦ مفاجأة . خبر مفاجىء فى الراديو . وصفارة انذار غير متوقعة . كنت فى المنزل ، مع أختى . وكان أبى وأمى على ظهر الباخرة ، فى طريق العودة من أوروبا . وأسرعت إلينا عمة طيبة وأخذتنا معها إلى ملجئها .

أما حرب ١٩٦٧ فقد كانت متوقعة - بعد فترة انتظار متواصلة . وكنت هذه المرة فى القدس . الملجأ الثالث ، الذى أتذكره جيدا ، وكان قبوا ضخما فى مبنى كبير ، تزاحم فيه حوالى خمسين أما وطفلا . وقد جعلت طلقات القذائف النوم يهرب من عيوننا . إنهم يحتلون القدس ؟ نحن ؟ وحينئذ سمعنا فى الراديو ذلك الإعلان المشهور : «جبل المكبر فى أيدينا» . وفى الليل خرجنا إلى الخارج وصعدنا على التل المجاور . لقد انتصرنا وسألنى ابنى : متى نعود لننام فى المنزل ؟ ثم حرب الاستنزاف . الحزب المتواصلة والقلقة للغاية . فى كل يوم اشتباكات ، وقتلى . وتربى أطفال بيت شأن فى الملاجىء . ليلة بعد ليلة . والإرهاب العربى يزداد فى المدن .

وكان الصمت يسود القدس بالفعل صباح يوم الغفران ١٩٧٣ . وفى ساعات الظهر كنت أستريح مع ابنتى فى المنزل. وكان زوجى وابنى فى المعبد . وفجأة مرت السيارات العسكرية ، وجعلتنى صفارات الإنذار المفاجئة أقفز إلى غرفة الأطفال . ليس هذا محتملا .

إن الراديو يذيع الاشارات الشفرية الخاصة بالوحدات . وارتدى أحد الجيران خوذته وأسرع إلى سيارته وتحرك . أن اليقظة لا تكاد تصدق وترفض كل شيء . وكان فى الملجأ ثلاث نساء وخمسة أطفال . رائحة طحلب . إنها محنة معروفة(١٤٣) .

وبالرغم من أن إسرائيل انتصرت فى معظم الحروب ، إلا أن هذه الانتصارات لم تحل مشكلة الوضع الإسرائيلى الحرج . وقد أورد يعقوب تلمون (١٤٤) قول الفليسوف هيجل المأثور عن «عجز النصر» كوصف ملائم لمأزق اسرائيل ، ورسم صورة غير جذابة لمستقبل إسرائيل إذا استمر الوضع الراهن . وتنبأ بأن المزيد من الانتصارات سوف يجعل الإسرائليين يواجهون بعد كل انتصار مشاكل اكثر تعقيداً»(١٤٥) .

وقد يكون قول هيجل المذكور ، هو أبلغ تلخيص لتاريخ الاستيطان الصهيونى . فالدولة الصهيونية تقوم أساسا على

انتصار تجسد في نقل السكان الفلسطينيين ، وهو الانتصار الذى كلفهم عدم راحة البال ، والشعور بالذنب لدى قطاع من نوى الحساسية الإنسانية ، والانتصار الثانى عام ١٩٥٦ ، أدى إلى تورط المصريين ، وهم القطاع الأكبر من الدول العربية فى الصراع ضد الصهيونية . أما انتصار ١٩٦٧ ، وهو أكبر انتصاراتها فقد تركهم يعانون من مشكلة السكان العرب التى كانوا قد ظنوا أنهم حلوها عام ١٩٤٨ .

وهناك إجماع على أن حرب لبنان ١٩٨٢ ، كانت أسوأ خطوة تحمل فى طياتها العديد من الكوارث على مستقبل إسرائيل ، قامت بها العسكرية الإسرائيلية ، أو على حد قول الأديب الإسرائيلى أ . ب . يهو شواع : «لقد هدم بيجن الدولة الفلسطينية الصغيرة فى لبنان لكى يقيمها فى الضفة» ، وهو هدف لم يكن ليسعى إليه بيجن من وراء تلك الحرب الوحشية التى أدانها العالم كله ، ولكنها ستقود إلي نتيجة تزيد من مأزق الحروب الإسرائيلية ، مأزق الحلقة المفرغة التى حكم بها على التاريخ الإسرائيلى المعاصر» (١٤٦) .

وهكذا فإن الحقيقة الثابتة والدائمة التى لازمت الاستيطان الصهيونى فى فلسطين منذ أن وطئت أقدام أول مهاجر صهيونى هذه البلاد ، وحتى اليوم ، أى منذ حوالى مائة عام ، هى أن هذا المجتمع يعيش فى حالة حرب دائمة ، مع العالم

العربى الذى يحيط به . وبالرغم من أن هذه الحروب كانت تقطعها من حين لآخر فترات من التوقف ، أو الهدنات ، أو وقف اطلاق النار ، أو الاتفاقيات المؤقتة، أو حتى اتفاقيات السلام، سواء مع مصر أو الأردن، إلا أن هذا لم يؤد على الإطلاق إلى جعل المجتمع الإسرائيلى يعيش فى حالة من السلام ، ولو سلام مؤقت ، وحتى لو لم يكن هناك تهديد جدى لأمن إسرائيل ، لأن الشعار الذى رفعته الصهيونية كان هو : «من يتقدم لقتلك إسبق أنت واقتله » ، ولذلك فإنها بين حرب وأخرى ، تستعد لخوض حرب جديدة .

وقد أصبحت الحرب ، نتيجة لذلك بمثابة المحور الزمنى الذى تتحرك إسرائيل وفقاً له فى كل مجالات حياتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية . إن التاريخ الأدبى والاقتصادى والاجتماعى يتم تقسيمه وفقاً للحروب وتواريخ نشوبها . وهذه الحروب هى الخطوط الحمراء القوية التى ينتهى عندها جيل ويبدأ بها جيل جديد . ففى إسرائيل تتدفق الاصطلاحات والتعبيرات المرتبطة بهذه الحرب أو تلك كعلامة مميزة لكل شىء . فهناك جيل أدباء حرب ١٩٤٨ (أو حرب التحرير كما يسمونها)، وهناك أدب حرب ١٩٦٧ ، وأدب حرب يوم الغفران، وأدب الانتفاضة الفلسطينية، وهناك الاقتصاد الإسرائيلى بين حرب سيناء ١٩٥٦ وحرب يونيو ١٩٦٧ ، المسرح الإسرائيلى بين الحربين الاخيرتين ... إلخ .

حـرب يوم الغـفـران، وأدب الانتـفـاضـة الفلسطينية، وهـناك الاقتـصـاد الإسـرائيلي بين حرب سـيناء ١٩٥٦ وحـرب يونـيو ١٩٦٧ ، المسرح الإسرائيلي بين الحربين الاخيرتين ... إلخ .

لقد أصبحت الحرب هي الوسيلة الواضحة جدا من أجل التـصنيف ووضـع الفـواصل . وقـد انـعكست هـذه الظاهرة الملازمـة على نفسـيـة «الإنسـان الإسـرائيلي ، بحـيث أن من يتأمل مناخه النفسي يصطدم على الفور بمساحة معترف بها هي : الحرب ، التي لازمت الجيل الصـبارى منذ ولادته حتى الآن ، وستظل تلازمه باعتبارها المأزق الرئيسي الذى وضعته فيـه الحـركة الصـهـيونيـة واسرائيل وسط المحيط العـربى الرافض لمقومات هذا الوجود .

إن هذه الحـرب ، بانتـصـاراتهـا ، وإخـفـاقـاتهـا ، بذراها وأعمـاقـهـا السـحـيقـة ، هى واقع دائم يعـيش فـيـه الإنسـان الإسرائيلى «المعاصر ، إنـهـا موجودة فى وعيه حتى لو كانت الحـدود هادئة بشكل مـؤقت ، وهـى مـخـتـبـئـة فى داخله كالبركان الذى على وشك الانفجار بين لحظة وأخرى ليجتاح نظام حـياته اليومية ، أو كالذكريات المختبئة فى المغارات المظلمـة . إنهـا أرض مـر عليـهـا كل عليـهـا إسرائيلى ولم يعد كثيرون منها .

إن أحد المشاهد الأولى التى يذكرها الطفل الإسرائيلى، هو مشهد أبيه الذاهب إلى الحرب . إن الحرب ترافقه حتى حينما لا تكون في الأخبار : ففي سن صغيرة نسبياً يفكر الفتى الإسرائيلى فى الدور العسكرى الذى سيقوم به ، الخدمة العسكرية التي سيؤديها لمدة ثلاث سنوات على الأقل من شبابه . والخدمة العسكرية للفتيات التى تطول لأكثر من ذلك ، والتى تلقى عليهن بنير اللقاء الاجتماعى مع رجال غير معروفين وأداء أدوار مسئولة . وحتى بعد الانتهاء من الخدمة العسكرية ، يظل كل من الجيش والحرب سواء فى الوعى كاحتمال قريب ، لأن الخدمة فى الاحتياطى أمر واقع يذكره بالارتباط بالواقع الثابت ، المتمثل فى عسكرة المجتمع الإسرائيلى .

وتؤكد عالمة النفس الإسرائيلية عاميا ليبليخ، على هذا الواقع بقولها : «إن الحرب فى إسرائيل جزء من الماضى، ومن الحاضر ، ومن المستقبل ، إنهم يأملون فى السلام ، ولكن لابد من الاستعداد للحرب القادمة . إن الأسئلة المعتادة في حياتنا هى : ما هو الوقت الباقى حتى الحرب القادمة ؟ هل يمكن تأجيلها قليلا ؟ ويسأل الرجل نفسه قائلا : «هل يسعدنى الحظ أيضا فى الحرب القادمة وأنجو كما نجوت فى الحروب السابقة ؟ .. والآباء يسألون قائلين : «هل سيضطر

أولادنا كـذلك للخـدمـة كـجنود مـقـاتلين فى جـيش الدفـا ع الإسرائيلى؟» ، كل هذه هى الأسئلة الرئيسية ، ذات المغزى اللاذع ، الاسئلة اليومية ، وليست الاسئلة التى ترجع أصولها إلى عالم من الكوارث الوهمية» (١٤٧) .

ويقول المفكر الإسرائيلى امنون روبنشين فى تفسيره لهذه الظاهرة : «لقد نما فى دولة اليهود جيل أصبحت الحرب جزءاً من حياته . لقد آمن جيل عام ١٩٤٨ ، أن حربه هى الأخيرة : إن حييم حيفر فى قصيدته «كانت أيام» (هايوياميم) يرى أن الحرية هى جزء من ماض انتهى ، لأنه «بدلا من اليافطة توجد الأن مدينة» . والأديب الإسرائيلى سامخ يزهار ينهى روايته «أيام صقلاج» (ييمى صقلاج)(١٩٥٨)، متسائلاً «هل أنهينا كل شىء ؟» . ويكون هناك شك فى مكان ما ، ولكن الكتاب ينتهى بعلامة الهدوء والسكينة . والأبطال «الصباريم» «يتمددون دون خوف كباراً ، ولا يركعون تحت الخوف» . ولكن أبناء أبطال يزهارينمون باحساس الفزع من الحروب التى لا نهاية لها . وكان الاحساس التراجيدى لأبناء هذه الأجيال هو أن الحروب قد فرضت عليهم دون أن يعطى لهم خيار أو سيعطى لهم» . (١٤٨)

ومما يستخلص من هذا هو أن الحروب أصبحت بالنسبة للوجدان الإسرائيلى ، حقيقة وجودية ، أو كابوساً وجودياً لا

مفر منه ، ومن هنا فإن المجتمع الإسرائيلى قد تحول بفعل هذا الإدراك إلى ثكنة عسكرية تعطى فيه للقيم العسكرية ، وعلى رأسها النزعة العدوانية ، المقام الأول وفى جو يكون فيه العربى هو العدو اللدود .

وفى دراسة قام بها الدكتور سمحا لنداو رئيس قسم الجريمة فى الجامعة العبرية بالقدس مع زميله بنيامين بيت هلحمى من جامعة حيفا ، حول ظاهرة العنف فى المجتمع الاسرائيلى ، وجد أنه قد حدث ارتفاع هائل فى معدل العنف بأشكاله المختلفة خلال العقد الأخير (١٩٧٣ - ١٩٨٣) ، وأن التعرية والتآكل قد بدأ منذ انتهاء حرب يونيو عام ١٩٦٧ . ومن بين العوامل الأربعة التى أرجعا إليها عوامل العنف فى إسرائيل نجد أن العاملين الأولين يرتبطان بظروف الحالة الأمنية التى تمر بها إسرائيل ، والخدمة فى الاحتياطى حتى سن الخامسة والخمسين ، بينما كان العاملان الأخيران : عاملين اقتصاديين متصلين بالازمات الاقتصادية والتضخم المتزايد فى الاقتصاد الإسرائيلى . (١٤٩)

لقد أصبحت صورة الحياة الروتينية الطبيعية هى صورة الحياة فى خطر سواء فى الحرب ، أو فى الفترات الطويلة من التوتر الذى لا نهاية لها ، فهذه هى الأمور الطبيعية والدائمة ، وهذا تقريبا هو قانون الوجود فى إسرائيل . إن مواليد البلاد

لم يعرفوا واقعاً آخر طوال حياتهم . فالفرد منهم يظل جندياً سواء كان ببزة عسكرية أو بدونها . إنه يبدأ تدريباته العسكرية في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة (في معسكرات شباب الطليعة المحارب «الناحال») ، وبعد ذلك يبدأ تجنيده فى السابعة عشرة أو الثامنة عشرة (فى جيش الدفاع الإسرائيلى أو «الصاهال») ، ثم يخضع بعد ذلك لنظام الاحتياطى (فترة من ثلاثة أسابيع إلى ثمانية أسابيع سنوياً) . ومعنى هذا أن الإنسان الإسرائيلى الذى يبلغ من العمر خمسين عاماً قد اشترك بكل تأكيد فى حراسة المستعمرات اليهودية ، أو فى إحدى حركات المقاومة السرية ، وتعود الحياة فى المستعمرات الحصينة ، وشارك فى الأحداث الدامية فى يافا وحيفا وتل أبيب ، ثم فى أربع حروب هى ١٩٤٨ ، ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ ، ١٩٧٣ ، ويمكن أن يشترك أيضا فى حروب أخرى إذا ما استمر على قيد الحياة ، لأن خدمة الاحتياطى فى إسرائيل تمتد حتى سن الخامسة والخمسين . هذا إذا كان من مواليد فلسطين ، أما إذا كان من المهاجرين الذين وصلوا إلى فلسطين بعد سنوات الحرب العالمية الثانية فإنه يكون قد وصل من أوروبا التى انهكتها الحرب ، ورافقه الدمار والموت خلال سنوات حياته الأولى (١٥٠) .

ويؤكد على هذا الموقف أحد الأدباء الإسرائيليين ممن

ولدوا في فلسطين وهو موشيه شامير ، الذى كتب فى عام ١٩٦٨ يقول :

«لقد دعى ابنى على اسم أخى الذى استشهد فى حرب ١٩٤٨ ، وكان هذا منذ عشرين سنة تماما ، عندما أخذت أشجار اللوز تزدهر . وقد سميت أنا باسم عمى الذى استشهد فى خدمة الجيش الأحمر على أبواب وارسو، وكان هذا فى عام ١٩٢٠ ، وسمى أبى باسم عمه الذى قتله الفلاحون الهائجون فى أوكرانيا ، وكان هذا عام ١٨٩١ . هل مازلنا فى بداية الطريق ؟ أم فى منتصفه ؟ أم فى نهايته ؟ إننى أعرف شيئا واحداً فحسب وهو أنه طوال نصف القرن الذى عشته لم يفارق الخوف من الموت منزلنا» (١٥١) .

وفى سخرية مشبعة بالمرارة يؤكد الصحفى الصهيونى يعقوب تيمرمان على هذا الإحساس بقوله :

«إن الاسرائيليين يدركون ذلك ، فقد كنت أتنزه منذ بضعة أيام فى إحدى الحدائق مع حفيدى ، حينما قابلنى صديق وسألنى كم يبلغ عمر حفيدك ، فأجبته «عامان» ، فابتسم فى مرارة قائلا : «إن دوره فى التجنيد سيأتى فى الحرب التى ستنشب عام ١٩٩٩ (١٥٢) .

إن الوجدان الإسرائيلى يرى حالة الحرب كما لو كانت

حالة نهائية ودائرة مغلقة لا فكاك منها . ومنذ بضع سنوات لاحظ الشاعر الإسرائيلي حييم جوري بمرارة أن «هذا التراب» (تراب اسرائيل) لا يرتوي ، «فهو يطالب دائما بالمزيد من المدافن وصناديق الموتى» وكما لو كانت أرض إسرائيل آلهة ثأر بذيئة ، وليس مجرد قطعة أرض أو إقليم .

لقد خرج الشباب الإسرائيليون للحرب خمس مرات خلال خمس وثلاثين عاما ، وكانت كل حرب تتطلب جهوداً فائقة ، وكانوا في كل مرة يحاربون بعقيدة أنها ستجلب السلام أو على الأقل ستقربه قليلاً ، ولكن واحدة من هذه الحروب لم تجلب السلام ، بل على العكس مرت سنة بعد أخرى ، وحرب بعد حرب ، وظل الوضع على ما هو عليه ، ولم يتغير شيء ، وعاش الآلاف حياتهم تطاردهم المناظر المروعة والأصوات والروائح النتنة ، والأفكار والمناظر المتكررة من طفولتهم ورجولتهم ، والاناث والجرحى المشرفون على الموت بين أذرعهم ، وصرخات الذعر تدوي أكثر من قصف القنابل ، ومنظر الجثث المشوهة منتشرة على الرمال المترامية الأطراف ، واللاجئون الأذلاء الذي يجرون أقدامهم إلى مسافات وأماكن غير معروفة ، والمركبات الحربية تشتعل كأنها شعلة ضخمة تنير سماء الصحراء المظلمة ، وتفوح

رائحة كريهة من الوقود والمطاط المحترفين مختلطة برائحة اللحم البشرى الذى تشويه النيران .

ولهذا فليس من المستغرب أن أصبح القول الشائع عن المجتمع الإسرائيلى إنه «جنود فى اجازة» ، أو أن اسرائيل عبارة عن «جيش له دولة» أو «سلاح طيران يملك دولة» .. إلى آخر تلك التعبيرات التى تعكس طبيعة المجتمع العسكرى ، الذى تسيطر على بشكل دائم صفة الاستعداد بين حرب وأخرى .

وقد عبر الشاعر الإسرائيلى يعقوب باسار عن هذا المعنى فى قصيدته التى تحمل عنوان «الحرب المقبلة» (هملحاما هاباء) التى كتبها عام ١٩٦٨ بقوله :

الحرب المقبلة .. ننشئها .. نربيها

ما بين حجرات النوم ... وحجرات الأولاد (١٥٣)

ونذكر بهذه المناسبة تلك الأغنية الإسرائيلية التى شاعت خلال حرب الاستنزاف (١٩٦٩ - ١٩٧٠) والتى تعكس احساس الشباب الإسرائيليين بأنهم يعيشون فى حالة حرب دائمة أو فى انتظار حرب أخرى ، والتى كتبها الشاعر الإسرائيلى حانوخ لفين ، وتقول كلماتها :

حين نتنزه نكون ثلاثة

أنا وأنت والحرب القادمة ،

وحينما ننام نكون ثلاثة ،

أنا وأنت والحرب القادمة (١٥٤)

ويظهر هذا الاستسلام لحتمية الحرب التى تشدد قبضتها على الاسرائيليين فى كلمات موشيه ديان القائد العسكرى الإسرائيلى فى جنارة صديقه روى روتبرج ، «علينا ألا ندير رؤوسنا حتى لا ترتعش أيدينا . إنه قدر جيلنا ، إنه خيار جيلنا ، أن نكون مستعدين ومسلحين ، أن نكون أقوياء وقساة، حتى لا يقع السيف من قبضتنا وتنتهى الحياة» . (١٥٥)

وإذا كان الإحساس بحتيمة الحرب هو سياج لم يعد يجد الإنسان الإسرائيلى منه مفراً ، فإن الوجه الآخر للعملة ، وهو السلام ، أصبح يشكل هو الآخر كابوساً مخيفاً لا يستطيع تصور وجوده لأن ماقر فى الوجدان الإسرائيلى هو أن الحرب هى الحياة ، وأن السلام هو الطريق إلى الزوال . ومن هنا ذلك الفزع الذى يعيشه الإسرائيلى مع فكرة السلام . ففى مقال تذكارى لأليعازر وارتمان ينعى فيه ابنه الجندى نجد تعبيراً عن حالة الصراع النفسى التى تشتبد بالإنسان الإسرائيلى ، وتجعله يتأرجح بين الأحساس بحتمية الحرب والرغبة فى السلام :

«كيف يتسنى للمرء للتعبير عن الصراع الداخلى الذى يمزق أطفالنا إرباً مثلما يحدث فى أمتنا ؟

كيف السبيل إلى تفهم العالم للانقسام الذى يكشف عن مأساة ، ويرغم أطفالنا على نمط من الحياة لا يرغبون فيه : إن أولادنا يمقتون الحرب ويتلهفون على حياة ذات مغزى طابعها المرح . إن هذا الجيل حتى فى زمن الحرب يشدو للسلام ولا يتغنى بالانتصار ، كيف يتسنى للمرء التعبير عن الحقيقة التى يتعذر إدراكها فى حقيقة أنه بعد ٢٧ عاما من اراقة الدماء ، لم نعلم هذا الجيل أبداً أن يضمر لاعدائه الكراهية . إنه يمقت الحرب ويكره القتل حتى لو اضطر إلى القتل رغم أنفه (١٥٦) .

إن إسرائيل تعتبر من الدول التى تجمع فى طياتها أكبر قدر من التناقضات . إنها تبدو كإنسان يخطو إلى الإمام ، وعيناه متجهتان إلى الخلف ، ومثبتة على المنظر الذى أخذ يختفى من بعيد . وكما كانت الذكرى مبرراً أساسياً للصهيونية ، فإنها ظلت كذلك أحد المصادر العاطفية الرئيسة لإسرائيل . إن إسرائيل تتطلع حالياً إلى المستقبل . ومع هذا فليس فيها انسجام موسيقى كما يجب ، فهى تعزف فى وقت واحد قطعة حسيدية عتيقة ، ومارشا لفاجنر، وسيمفونية لشفبرج ، وفى وسط هذه الدوامة من الأصوات المتصارعة ،

يحاول قادة الموسيقى المختلفون ادخال قدر من الهارمونى بينما هو أنفسهم قد أخذوا بسحر بعض القطع الموسيقية . فإحدى اليدين تقود كمانات منتفخة والأخرى تدق طبول الحرب .

ولكن فى ظل هذا التضارب والتناقض يشيع بين الإسرائيليين جميعا إحساس أساسى شبه قبلى من التماسك. لقد أثارت كارثة النازى من ناحية ، وحالة الرفض الدائم من الدول العربية للوجود العدوانى الإسرائيلى ، واستمرار حالة الحرب ، من ناحية أخرى ، الإحساس بالهدف الاجتماعى المشترك ، والوحدة ، والتماسك . وهكذا نجد أن العدو يستطيع أحيانا أن يقدم لمجتمع ما خدمات لا يستطيعها أصدق الأصدقاء . وتبرز أهمية هذه الخدمة التى تقدمها مقاومة العرب للوجود الصهيونى فى فلسطين والمتجسد فى دولة إسرائيل ، إذا أدركنا صعوبة تشكيل جمهور كبير لا شكل له فى اطار شعب واحد ، فما بالنا بأشخاص يتحدثون سبعين لغة ، ولديهم خلفيات حضارية مختلفة تماما تحولوا إلى جهاز اجتماعى يقوم بأداء دوره الجماعى .

وقد قال فرويد : «من السهل ربط الناس بصلات محبة طالما أن هناك اشخاصاً آخرين ، نستطيع أن نصب عليهم

مشاعرنا العدوانية» . والحرب دائما تعمل على تجميع كلمة الأمة ، وليس هناك قوة أكبر منها تعمل على الوحدة . ومعظم الأمم لم تنصح بالسلام ، بل بالحرب ، وهذه هى الحقيقة المريرة . ولم يتوقع الصهيونيون الأوائل ذلك ، ولكن فى نهاية الأمر لم يفت الاسرائيليين ذلك . ولذلك فقد صرح بن جوريون مرة «بأن أسوأ مقلب يمكن أن يفاجئنا به العرب هو أن يوافقوا على عقد صلح» . (١٩٧٠/٣/٢) .

وقد استثمرت الصهيونية الكلاسيكية من قبل ، هذا العنصر ، عنصر العداء والكراهية من الشعوب تجاه اليهود من أجل انجاح المشروع الصهيونى . واعتبروا المعادين للسامية طبيعيين ، وقوة ايجابية فى نضالهم من أجل تحرير يهود الشتات من عبوديتهم المدعاة .

وقد كانت وجهة نطر أحد المستوطنين الصهاينة قبل عام ١٩٤٨ ، أن معاداة السامية «ايجابية» ، إلى درجة دفعته للاعتقاد بأنها مستوحاة من «عقيدة إلهية» إلى حد ما . وقد كان فى هذا يردد - دون أن يشعر - نفس آراء هرتسل الذى ادعى أن معاداة السامية ربما تحتوى على إرادة الرب الالهية ، لأنها تجبرنا على توحيد صفوفنا .

وفى مناظرة أقيمت فى الجامعة العبرية بفلسطين بين هذا

المستوطن وبين حزقيال كويفمان المفكر اليهودى ، وصف المستوطن نفسه بأنه «صهيونى معاد للسامية» ، وأضاف «أنه لم يستطع أن يرى كيف يمكن لأى صهيونى أن يتجنب اتخاذ نفس الموقف» . وحتى كويفمان اتفق معه فى الرأى بأن «الكثيرين من الصهاينة على اقتناع عام بأنه لكى يصبحوا «صهاينة طيبين» فلابد من أن «يكرهوا أنفسهم» . وهذا الانكار الصهيونى للذات هو فى جوهره شكل من أشكال الانعزال والاستسلام للقهر ، وضرورة البحث عن عدو يوجهون تجاهه مشاعر العداء والعدوانية التى تخلق حالة التكاتف والخوف المشترك ، التى ميزت الظاهرة التاريخية اليهودية .

ويحدد الأديب الإسرائيلى أهارون ميجد أهمية الحرب بالنسبة لوحدة نسيج المجتمع الإسرائيلى فيقول : «لقد انقذت الحرب الشخصية الرئيسية فى القصة من الانتحار فتخلى عن فرديته وأصبح جزءاً من الناس ، وبالتالى بدأ يشعر بأنه أصبح قادراً على أن يشاركهم فى انجازاتهم بحماس الصديق . لقد كان فى عزلة عن أسرته وعن المجتمع ، وقد وضعت الحرب نهاية لشعوره بالوحدة ، وهذا ما حدث للأمة حينما قامت الحرب . لقد وجدنا أنفسنا فجأة فى غاية الكياسة والبهجة . وهذا هو التناقض المزعج لوجودنا فى

الحياة . وهو على ما أعتقد الذى جعلنى أتسلل إلى تاريخنا الحديث ، قد جلبت الحرب إلى هذه الأمة كل ما هو عظيم . لقد نقلنا الحرب إلى دولة فى حالة انجذاب مثل انجذاب الصوفية ، وعندما تنتهى سنسقط فى حالة انهيار . ولسوء الحظ أن الذى يجعل هذه الدولة أشد التصاقاً هى اللحظات التى تتقارب فيها من أجل هدف واضح للدفاع عن وجودنا (١٥٧) .

ويؤكد الأديب الاسرائيلى أ.ب . يهو شواع نفس المعنى بقوله : «إن النزاع المتواصل قد خلق فى اسرائيل مجتمعا متقاربا ومتضامناً . هاتان هما القمتان الموثوق فيهما جداً اللتان نتجتا بسب النزاع المتواصل . إن صراع الأقلية ضد الأغلبية قد أجبر الاسرائيليين عن أن يخلقوا فيما بينهم تضامناً غير مشروط ، على صورة أن كل واحد متداخل مع الآخر ومرتبط به . (١٥٨) .

إن الأخطار التى يمكن أن تهدد استقرار إسرائيل كثيرة هى ، ما بين سياسية واجتماعية وثقافية ودينية (التوتر بين «السفارديم» و«الاشكنازيم» ، والصراع بين الدينيين والعلمانيين حول الفصل بين الدين والدولة ، وتعريف «من هو اليهودى؟» والمنازعات الاقتصادية ، وصراع الأجيال (أصحاب الايديولوجية من المؤسسين ، و«البراجماتيين» من

جيل «الصباريم») ، والانقسام حول تعريف مفهوم «الأمن» الإسرائيلي ، والرغبة في السلام الخ) ، ولكن ضغط العداء العربي والفلسطيني والتوتر العسكري يساعدان إلى حد كبير على تقليل أثر هذه الأخطار إلى أقل حد ممكن .

وهكذا فإن المجتمع الإسرائيلي بسبب وجوده في حالة نزاع وحرب مستمرة ، منذ أن قامت إسرائيل حتى الآن ، أصبح في حالة من التعود على حقيقة أن الحرب ، وإن كانت تنطوي على العديد من المخاطر إلا أنها تنطوي في الوقت نفسه على مصدر طاقة بالنسبة لأمور كثيرة . ووجهة النظر هذه تتفق مع وجهة النظر الفاشستية الكلاسيكية ، التي ترى أن الحرب والصراع هما مصادر مهمة للطاقة التي تشغل الإنسان في مجالات كثيرة .

وعند هذا الحد يبرز صغر مساحة إسرائيل كدولة وكشعب ، كمفتاح جديد بالنسبة لمستقبلها ، إن إسرائيل عبارة عن شريط ضيق من الأرض ، والمسافات قصيرة ، وجزء كبير من أراضيها ، مازال صحراوياً ، مثل صحراء النقب ، أو غير مأهول بالسكان ، مثل منطقة الجليل ولذلك فهي أصغر بكثير مما تبدو في معظم الخرائط التي تظهر فيها كبقعة صغيرة . إن المسافة من تل أبيب إلى القدس يمكن اجتيازها في أقل من ساعة بالسيارة ، كما يمكن رؤية

مشارف القدس من فوق أحد أسطح منازل تل أبيب . ويتطلب اجتياز البلاد من أولها لآخرها فى أطول محاورها من ايلات إلى الحدود اللبنانية ثماني ساعات بالسيارة وخمساً وأربعين دقيقة بالطائرة . وفى الثلث الصغير الواقع بين تل أبيب وحيفا وهو سط الدولة يتكدس ٨٠فى المائة من السكان بالرغم من أن المسافة بينها وبين النقب ، أو الجليل بمعايير المسافات الأوروبية والأمريكية لا تكاد تذكر . إن معظم الإسرائيليين يسكنون فى ازدحام مكثف داخل الدولة . وفى مساكن صغيرة دون حياة خاصة تقريبا . وكما فى دول أخرى من دول البحر المتوسط يتسم حل المآسى ، والمهازل المتصلة بالحياة اليومية خارج المنزل وأمام الجميع . إن السكان يخرجون سبعة أو ثمانية أشهر فى السنة من المساكن الخانقة ليأكلوا ويتسللوا إلى الشرفات . ومعظم الإسرائيليين يعيشون فى مساكن مشتركة ، وهذه الطريقة تولد علاقات جوار وثيقة إلى أكبر حد، وتفوق فى ذلك المجتمعات الحضارية الأخرى .

ومؤسسة الإسكان الإسرائيلية هى مؤسسة إسرائيلية نموذجية ، إنها وليدة الهجرة الجماعية والأسلوب البيروقراطي ، وسيظل طابعها المميز سائداً بين أجهزة الإسكان الإسرائيلية خلال جيل واحد على الأقل ، وتبنى المساكن أحياناً من أجل أشخاص يعرف الواحد منهم الآخر

جيداً : لجماعات عنصرية خاصة ، أو لأصحاب مهنة معينة ، أو حى لأعضاء حزب واحد ، فنجد أن هذه المساكن تزيد علاقات الجوار القائمة فى البيت المشترك .

وهناك قسم كبير من السكان الإسرائيليين مازال يعيش بصورة قبلية تقريبا ، فى إطار جماعة عنصرية أو جماعية تتحدث بلغة معينة ، ولما كانت اسرائيل صغيرة ، وغير مقيدة بالرسميات، فإنه من السهل معرفة الجميع من رئيس الوزراء حتى بطل كرة القدم . وقد صرح الممثل حاييم توفيل فى سنة ١٩٦٩ لمراسل مجلة أمريكية بأنه يعرف كل أبناء جيله فى اسرائيل . وقد تولت المراسل الأمريكى دهشة كبرى(★) .

وينطبق هذا أساساً على أعضاء «الكبوتسيم» (المستعمرات الاشتراكية) من الكبار والصغار ، والذين يتحملون القسم الأكبر من الخسائر فى الحروب ، بشكل لا يتناسب مع عبء الأمن ولا مع نسبتهم العددية، ففى «الكبوتسيم» يعيش ٤٪ من سكان إسرائيل يعيش من ٧٥٪ ـ ٨٠٪ من سكان إسرائيل فى المدن الكبرى، ولكن ٢٥٪ من

★ تشير معطيات الإحصاء الأخير لسكان إسرائيل عام ٢٠٠٢ ، إلي أن ٤١ ٪ من السكان يعيشون في منطقة تل أبيب مقابل ٥٠ ٪ لدي قيام الدولة ، و١٣ ٪ فيمنطذقةحيفا مقابل ٢١ ٪ لدي قيام الدولة .

ضحايا حرب ١٩٦٧ كانوا من أعضائه . وفي هذه الظروف لا تقتصر الكوارث على المجال المحدود للأسرة . ولكن كثيرا ما يكون ذلك أيضا في المدن ، فتنتشر الأخبار بسرعة ، وتشتد الفكرة «الكبوتسية» بسبب قرب الأماكن والأشخاص ، وبسبب التشكيل الخاص للمجتمع حيث تبرز ظاهرة التكاتف ، والرغبة في الاحتماء كل بالآخر . فإذا وقعت حادثة ، على سبيل المثال ، فإنه فى نفس اليوم ، وفى الساعة الواحدة بعد الظهر وخلال فترة وجيزة يعرف سكان المسكن الجديد ، أو الاشخاص الذين فى الشارع أن الشاب الأشقر هو من المسكن رقم ٥ ، وأن عمره لا يزيد عن تسع عشرة سنة ، وأن أمه هى التى تنفض السجادة من الشرفة كل صباح ، وأن أباه يعمل محصل ضرائب فى البلدية ، وأنه قتل هذا الصباح بلغم ، أو من جراء قصف مدفعية فى الجبهة .

ويعبر يعقوب تيمرمان الصحفى اليهودى عن هذه الخاصية التى تميز المجتمع الإسرائيلى ، فيقول فى معرض حديثه عن حرب لبنان ١٩٨٢ .

«حيث أن إسرائيل دولة صغيرة ومجتمع مغلق ضئيل التعداد ، فإننا نعلم بسرعة ما يحدث للآخرين ، كما أن الأخبار تنتشر بسرعة هائلة ، وحين بدأ الجنود فى العودة إلى أسرهم فى اجازة خاطفة لمدة ٢٤ ساعة ، فإنهم كانوا

مصدراً ثميناً للأخبار الحقيقية بخلاف ما تذيعه وسائل الإعلام ليل نهار .. وبدأت هذه القصص تتناقلها الألسن فى الجلسات العائلية ، وفى حفلات الاستقبال ، وفى طوابير البنوك ، أو بين الأمهات الجالسات فى انتظار خروج أطفالهن من دور الحضانة والمدارس» (٥٩) .

وقد جرت العادة على أن تذاع أسماء القتلى فى الإذاعة والتليفزيون، وتنشر صورهم بشكل بارز فى الصحف ، وهذا عرف شائع فى الصحف الإقليمية فى معظم الدول ، ولكن فى إسرائيل تبالغ الصحف فى عرض المآسى . ونجد أن كل رابع أو خامس خطبة يلقيها وزير الدفاع ، أو رئيس الأركان تكون فى تأبين قتلى معارك فى جنازة . وقد شاع فى هذه الأيام الموت فى الحرب وأصبح أمراً عادياً مثل حوادث الطرق . ومع هذا فإن كل مصيبة تحدث فى إسرائيل تكهربها ، كما لو كانت تحدث للمرة الأولى . وكل خسارة تقرب الناس أكثر فيما بينهم ، وفى هذه اللحظات تشيع فى إسرائيل حاسة تماسك قوية ، حتى لتبدو إسرائيل كقرية كبيرة (٦٠) .

وكما أن الحرب ، هى المركز الرئيسى لكل عناصر الصراع داخل المجتمع الاسرائيلى، فإن المركزية السكانية أصبحت هى الأخرى سمة رئيسية لهذا المجتمع تعكس الرغبة فى الاحتماء كل بالآخر ، والرغبة فى الاحساس بالتقارب ، ووحدة المصير .

وعلى هذا الأساس ، فإن الإحساس السائد فى إسرائيل، بين دوائر كثيرة ، هو أن ظروف الضغط والطوارىء قد خلقت في المجتمع الإسرائيلى مصادر للطاقة غير معروفة وغير ممكنة فى ظروف السلام . ويستشهد أنصار هذا الاتجاه بمواقف كثيرة تعرضت لها إسرائيل لحالات من الضغط ، وأدت فى النهاية إلى اقتحام مجالات كثيرة لم يكونوا يفكرون في اقتحامها لولا حالات النزاع والضغط . والمثل الأكثر الذى يسوقونه على ذلك ، هو العداء العربى ، وظروف الحصار التى تعيشها إسرائيل ، التى كانت السبب الأكبر وراء معظم الانتصارات العسكرية والاقتصادية والعلمية التى حققتها إسرائيل .

ومن هنا فإن النغمة التى تتردد على ألسنة هؤلاء تقول : « كم هو طيب أن العرب لم يقبلوا فى حينهم مشروع التقسيم عام ١٩٤٧ ، وفرضوا علينا حرب ١٩٤٨ . إننا بسبب هذه الحرب وصلنا إلى إنجازات كبيرة ، إقليمية وتكنولوچية وغيرها . إن محاولة تخيل تاريخ إسرائيل خلال الثلاثين سنة الماضية دون وجود النزاع العربى الإسرائيلى ربما كان يضع أمامنا صورة لدولة ، ذات إنجازات أقل بكثير من إنجازات دولة إسرائيل التى فرض عليها النزاع والعداء والحروب» .

وهذا الاتجاه داخل إسرائيل يحاول بطبيعة الحال ، أن

يستخلص ماهو إيجابى ، من ظاهرة الحروب المتواصلة التى تخوضها إسرائيل ضد العرب ، وضد الشعب الفلسطينى . وقد أدى هذا الاتجاه إلى خلق حالة خوف من السلام فى داخل إسرائيل ، وصلت إلى حد إضفاء نوع من القدسية الإلهية على السلام المأمول بين إسرائيل والعالم العربى ، تكاد تتشابه مع انتظار اليهودى المؤمن لقدوم المسيح المخلص والخلاص الأخير ، لكى يؤجل الخطوة العملية للعودة إلى فلسطين . لقد جعلت حالة الحرب مبدأ الانسجام والتوافق هو المبدأ السائد فى الأمور العامة ، وهو الأمر الذى سهل كتم الكثير من المشاكل حتى فى ظروف السلام والهدوء . وهنا تجب الإشارة إلى أن الفئة الحاكمة فى إسرائيل تلجأ إلى شن الحرب إذا ما شعرت بضغط متزايد أو تفجير لبعض هذه المشاكل ، كما حدث فى حرب يونيو ١٩٦٧ ، إذ كانت المشاكل الاقتصادية فى إسرائيل قد وصلت إلى ذروتها ، وكانت الحرب هى المخرج والحل لكل هذه المشاكل.

وعند هذه النقطة يردد كثيرون من الإسرائيليين لغز شمشون « من المر يخرج الحلو» ، ويرون فيه بعض السلوى .

وتكمل الكتابات الإسرائيلية هذه النتائج بعمق حيث نجد أن الحرب هى الموضوع الرئيسى لأدب الجيل الشاب،

والتجربة المركزية فى حياته . إنه لا تكاد تكون هناك قصة أو رواية أو قصيدة أو مسرحية لا تتناول ، ولو حتى بصورة غير مباشرة، تجربة الحرب أو المغامرات البطولية فى القتال .

وبعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ حدث تحول جزئى فى هذه النظرة ، إذ أدرك الاسرائيليون بفعل فداحة الثمن الذى دفعوه فى هذه الحرب من الضحايا ، والآثار التى ترتبت على هذه الحرب بالنسبة للكثير من قضايا الوجود الاسرائيلى ، إن الحرب بقدر ماهى مفيدة للوجود الاسرائيلى من نواح كثيرة ، فإنها أيضا سبب من أسباب الدمار فى نواح كثيرة ومهمة ، وتكشف القناع عن الكثير من الوجوه القبيحة والقاسية فى واقع النزاع العربى الاسرائيلى .

وبالرغم من بروز قوى كثيرة من داخل المجتمع الاسرائيلى تنادى بالسلام مثل حركة «السلام الآن» (شالوم عكشاف) وغيرها ، إلا أن هذه القوى التى تعكس حالة الإرهاق التى أصابت المجتمع الاسرائيلى بسبب الحروب المتواصلة ، مازالت غير مؤثرة على توجيه القرار السياسى فى إسرائيل لصالح السلام ، وحل القضية الفلسطينية حاليا ، ومازالت القوى العدوانية والرافضة للسلام «اليمين الإسرائيلى المتطرف - جماعات التطرف الدينى مثل «جوش ايمونيم» - جماعة كهانا وجماعات المستوطنين وغيرها) هى التى لها

اليد الطولى فى توجيه القرار السياسى فى إسرائيل .

ويعبر أمنون روبنشتين عن هذا التضارب بين التأرجح فى الرغبة فى السلام والخوف منه بقوله : « إن لدينا جيلا كاملا كبر مع الحروب وفى وسطها ، وبالرغم من هذا فإنه لم يفقد رغبته فى حياة السلام . وهذا التوازن بين هاتين القوتين المتناقضتين – ضرورة المحاربة والرغبة فى الفرار من الموقف العسكرى تمثل نموذجا إسرائيليا مثاليا ، الحالم المحارب » (١٦١) .

ولكن الحقيقة الثابتة التى تحكم المجتمع الاسرائيلى وستظل تحكمه ، هى أن الخوف من السلام سيظل مسيطرا على الإنسان الاسرائيلى ، وقد عبر عن هذه الحقيقة ، فردريك درينمات ، الكاتب المسرحى والأديب ، وعضو شرف جامعة بن جوريون فى بئر السبع ، فى حوار نشر فى صحيفة (عل همشمار) الاسرائيلية ، تعليقا على حرب لبنان فى يونيو ١٩٨٢ ، وردود فعلها قائلا :

« لقد تظاهر فى إسرائيل ضد حكومة بيجين أربعمائة ألف شخص ، وقد كان هذا مذهلا ، ولكن فى تقديرى ، أنه سيفوز فى الانتخابات بالرغم من هذا .. إن إسرائيل هى قطار بلا فرامل » (١٦٢) .

والمعنى الحقيقى لهذا التفسير ، هو أن الشخصية اليهودية الاسرائيلية بالرغم من نزوعها أحيانا للسلام ، كرد فعل لفظائع الحرب ، ورغبة فى الحياة الهادئة ، بلا تهديد ، مهما كان الثمن الذى سيدفع فى مقابل هذا (دولة فلسطينية ، وتنازل عن الأراضى المحتلة ، وإزالة المستوطنات .. وحتى عودة اللاجئين الفلسطينيين ... الخ) ، إلا أن هذه الشخصية تظل بشكل مستمر فى حاجة إلى الشخصية القوية التى تختزن فى داخلها كل مقومات العدوانية والقسوة ، لأنها هى الدرع الوحيدة التى يثقون فى قدرتها على الدفاع عن وجودهم ، ومن هنا كان هذا التنازع الرهيب فى الشخصية الاسرائيلية بين الرغبة فى السلام والخوف منه .

وفى هذا الإطار يبرز تقويمان يقودان إلى نتيجة واحدة بالنسبة لاتجاهات إسرائيل بالنسبة للاحساس بحتمية الحرب:

١ – يرى الاتجاه الأول، أن قادة إسرائيل المعاصرين قد تعرضوا لتجربة الحكم النازى ، ولازال هذا الجيل يفكر من زاوية الفلسفة العنصرية ، ومن ثم فهو يتسم بالتطرف. لكن الجيل الجديد ، ليس مصطبغا بصبغة الماضى ، وسوف يكون أقل تطرفا حين يتولى السلطة ، ومن ثم فإن كل شىء سوف يتغير فى اتجاه مطرد نحو السعى إلى السلام مع العرب .

٢ – يرى الاتجاه الثانى أن الجيل الجديد هو جيل أشد تطرفا من الجيل القديم ، الذى كان يتسم بالتسامح لأنهم اجتازوا تجربة العيش مع العرب والشعوب الأخرى ، ولكن الجيل الجديد يلقن تلقينا مضطردا ، ومن هنا فسوف يظهر نمط جديد من اليهود . أشد تطرفا ، وأشد نزوعا للعنصرية ، ومن ثم فإن الموقف حيال إسرائيل سوف يزداد سوءا بمرور الوقت .

مراجع وهوامش
الفصل الخامس

١ – بليخمان . ب . م :

نقلا عن : حفني . قدرى (دكتور) : الاسرائيليون ؟ من هم؟ (دراسات نفسية) ، القاهرة ١٩٨٤ ، الفصل الثالث ، «السابرا» شباب عجوز ، ص ٤٤٠ وما بعدها .

٢ – حفني . قدرى : م . س . ذ، ص ٤٣٨ .

٣ – نفس المرجع .

٤ – نفس المرجع ، ص ٤٤٢ .

٥ – نفس المرجع ، ص ٤٤١ .

٦ – غيث ، محمد عاطف : قاموس علم الاجتماع ، «النمط الثانى» .

٧ – ربيع . حامد : مقدمة في العلوم السلوكية ، ص ١٦٤.

٨ – سفر التكوين ٢ – ١٥ .

٩ – سفر التكوين ١٤ : ٥ – ٧ .

١٠ – هذه المرة الأولى التى يرد فيها اسم «ابرام» مقرونا بصفة العبرى فى العهد القديم .

١١ – سفر التكوين ١٤ : ١٣ – ١٤ .

١٢ – سفر الخروج ٧ : ٤ .

١٣ – سفر التثنية ٤ : ٢٨ .

١٤ – سفر التثنية ٧ : ١٥ .

١٥ – سفر التثنية ٧ : ٢١ .

١٦ – سفر الخروج : ١٣ – ٢٩ .

١٧ – سفر التثنية ٩ : ٣ .
١٨ – سفر الخروج ١٥ : ٣ .
١٩ – سفر الخروج ١٣ : ١٨ .
٢٠ – الربى الدكتور ش . فيدربوش : « نبوءة التوراة وصهيون» (حازون هاتوراه فيتسيون) مقالات عن تاريخ الصهيونية الدينية ، ص ٢٤ .
٢١ – سفر العدد ١٣ : ١ .
٢٢ – سفر العدد ١٣ : ١٧ – ٢٠ .
٢٣ – سفر العدد ٣ : ١٧ .
٢٤ – سفر العدد ٣٣ : ٥٢ .
٢٥ – سفر التثنية ٣٠ : ١٠ – ١٦ .
٢٦ – سفر العدد ، إصحاح ١٤ .
٢٧ – سفر يشوع ١ : ١ – ٢ .
٢٨ – الكسندر . روفيه : « حوقى هملحما بسيفر دفاريم : موتسآم ، مجاماتام فيحيو بيوتام» (قوانين الحرب فى سفر العدد ، مصدرها ، واتجاهها وايجابيتها) ، ص ١٤٦ .
٢٩ – سفر يشوع ٢ : ٥ .
٣٠ – سفر يشوع ٦ : ٢٠ – ٢١ .
٣١ – سفر يشوع ٨ : ٢٤ – ٢٥ .
٣٢ – سفر يشوع : ١٠ – ٢٨ .
٣٣ – سفر يشوع ١٠ : ٢٩ – ٤٣ .
٣٤ – سفر صموئيل الثانى ٨ : ١ – ٢ ، وصموئيل الأول ٣٠ – ٧ وصموئيل الثانى ١٠ : ١٨ .
٣٥ – سفر منيحا ٤ : ١٣ .

٣٦ – ايلون . عاموس : الاسرائيليون ، المؤسسون والأبناء ، الفصل العاشر .
٣٧ – فيكتور مالكا : مناحم بيجن ، التوراة والبندقية ، ص ٩٥ – ٩٦ .
٣٨ – سفر يشوع ٦ : ٢١ .
٣٩ – منوحين . موشيه : م . س . ذ ، ص ٦ .
٤٠ – ش . فيدريوش : م . س . ذ ، ص ٢٥ .
٤١ – ظاظا . حسن (دكتور) وعاشور . السيد محمد : شريعة الحرب عند اليهود ، ص ١٢٨ .
٤٢ – المسيرى . عبدالوهاب : اليهودية والصهيونية وإسرائيل ، ص ١٥٨ .
٤٣ – المكابيون : أسرة من الكهنة : الملوك التى حكمت اليهود فى فلسطين . وتعود نشأة هذه الأسرة إلى أيام الملك السلوقى أنطيو خوس ابيفان حاكم سوريا الهللينى الذى فكر فى استعادة عظمة امبراطورية الاسكندر ، فبذل جهده من أجل نشر الحضارة الاغريقية بين اليهود وأوقف عبادة يهوه ، وأجبرهم على عبادة الالهة اليونانية . ولكن غالبية اليهود رفضت هذا النفوذ الثقافى الأجنبى . والمكابيون ينتسبون إلى يهودا المكابى أو ماكبياس الذى قاد الثورة اليهودية عام (١٦١ ق . م) ضد النفوذ الثقافى الاغريقى . وفى عام ١٤٣ ق . م وقع شمعون المكابى معاهدة سلام ، وأصبح كاهنا أعظم له سلطات الملك وبذلك ظهر مرة أخرى حكم الكهنة / الملوك وارتباط السلطتين الزمنية والروحية . وقد حكم المكابيون أو الحشمونيون حتى دخل القائد الرومانى فلسطين منهيا بذلك حكم الحشمونيين . وكلمة مكابى معناها «المطرقة» ويرى البعض أنها اختصار للحروف الأولى لاية وردت فى سفر الخروج ١٥ : ١١ تقول : « مى كموخا بئيلوهيم يهوفا » (من مثلك بين الالهة يارب) ، وتمتلئ كتابات بن جوريون بإشارات إلى «بركوخبا» والمكابيين والغزو اليهودى لأرض كنعان .

٤٤ – المسيرى . عبدالوهاب : أرض الميعاد ، ص ٢٠ – ٢١ .

٤٥ – اريئيل . يعوقب : « الأخلاق ، والإيمان الدينى وسياسة السلام» الجزء الثالث عشر ، ص ٢١٠ – ٢٢١ .

٤٦ – المرجع السابق .

٤٧ – ولد نبرج . يعقوب : هارآتس ، ١٩٧٦/٥/٩ .

٤٨ – «هاعولام هزيه» ، العدد رقم ١٩١٥ (حديث للحاخام العسكرى الأكبر لقيادة الوسط ، الربى افراهام زعير (إيبان).

٤٩ – مجلة « نيف مدراشيا » ، ص ٢٩ – ٣١ (رد الربى شمعون فيزر) .

٥٠ – هارآتس : ١ /١٩٧٨/٨ .

٥١ – عندما استولت بريطانيا على الإدارة فى فلسطين كان من بين السكان العرب البالغ عددهم ٧٠٠,٠٠٠ نسمة نسبة ١٠٪ من اليهود ، وكان نصف الـ ٧٠ ألف يهودى من المهاجرين منذ عام ١٨٨٠ ، أى من الأجانب. وفى عام ١٩٤٨ ونتيجة للهجرة من أوروبا ازداد تعداد الجالية اليهودية ليبلغ حوالى ٦٥٠ ألفا مقابل ١.٢ مليون عربى من المسلمين والمسيحيين وعند نهاية عام ١٩٤٩ صار تعداد العرب ١٥٠ ألف بينما ازداد تعداد السكان اليهود إلى المليون مما جعل نسبة العرب قليلة . وقبل توسع إسرائيل فى أعقاب حرب يونيو ١٩٦٧ كان العرب يشكلون ١٠٪ من مجموع السكان وهو عكس أرقام عام ١٩١٩ .

٥٢ – برز أول احتجاج فلسطينى رسمى ضد التدخل الصهيونى فى ٢٤ يونيو عام ١٨٩١ عندما بعث بعض وجهاء القدس عريضة إلى القسطنطينية يطالبون فيها بمنع اليهود من دخول فلسطين وشراء الأراضى فيها . فما كان من الحكومة العثمانية إلا أن أصدرت قوانين تمنع الهجرة اليهودية وشراء الأراضى . ولكن احتجاجات الدول الأوربية حدت من تلك القوانين .

٥٣ – « كل كتابات آحاد هاعام» : « كل كتبى آحاد هاعام» ، ص ٢٤ .

٥٤ – نفس المرجع ص ٢٩ .
٥٥ – مندل . نيفايل : الترك والعرب والهجرة اليهودية إلى فلسطين . ١٨٨٢ – ١٩٨٤ ، ص ٧٦ – ١٠٨ .
٥٦ – جانسن . ج . هـ . الصهيونية وإسرائيل والقومية الآسيوية ، ص ١٦٤ .
٥٧ – نفس المرجع .
٥٨ – المسيرى . عبدالوهاب : م . س . ذ . ص ١٨٦–١٨٧ .
٥٩ – راجع : الشامي . رشاد (دكتور) : التيار الروحي في الفكر الصهيوني الحديث (أطروحة دكتوراه، غير منشورة).
٦٠ – كل كتابات آحاد هاعام : م . س . ذ ، ص ٤٦٣ .
٦١ – شيختمان ، ج ، محارب ونبى ، ص ٦٤ .
٦٢ – افنيرى . شلومو : «الفكرة الصهيونية بتنوعاتها» (هرعيون هتسيونى لجفاناف) ، ص ٢٠٨ .
٦٣ – شيختمان . ج : م . س . ذ ، ص ٤٠٥ – ٤٢٣ .
٦٤ – العابد . لطفى : العنف والسلام فى إسرائيل ، دراسة فى الاستراتيجية الاسرائيلية ، ص ١١ .
٦٥ – حداد . بربارة : « فلاديمير جابوتنسكى» ، ص ٧٩ – ٨١ .
٦٦ – بيجن . م : الثورة ، ص ٤٦ .
٦٧ – المسيرى . عبدالوهاب : اليهودية والصهيونية وإسرائيل ، ص ١٥٤ .
٦٨ – المسيرى . عبدالوهاب : أرض الميعاد ، ص ١٩٨ – ١٩٩ .
٦٩ – نفس المرجع .
٧٠ – نفس المرجع .
٧١ – نقلا عن : كيتن . هنرى : فلسطين فى ضوء الحق والعدل ، ص ٤٤ من خطبة القاها هربرت صموئيل فى مجلس اللوردات أثناء مناقشة قضية

فلسطين فى ٢٣ أبريل ١٩٤٧ وقد استشهد بها : ج . ل . ماجنس فلسطين مقسمة أم موحدة ، ص ٨٤ .

٧٢ – نفس المرجع ، ص ٤٥ .

٧٣ – نفس المرجع .

٧٤ – نفس المرجع .

٧٥ – نفس المرجع ، ص ٤٦ .

٧٦ – نفس المرجع .

٧٧ – نفس المرجع .

٧٨ – نفس المرجع ، ص ٤٧ .

٧٩ – نفس المرجع .

٨٠ – على . على محمد ومحمد هانى عبدالهادى : دولة الإرهاب ، ص ٤١ .

٨١ – كيتن . هنرى ، ص ٤٨ .

٨٢ – ديميرون . بيير : ديميرون ضد إسرائيل ، ص ٤٠ .

٨٣ – نفس المرجع ، ص ٤٣ .

٨٤ – كيتن . هنرى ، ص ٥٦ .

٨٥ – نفس المرجع ، ص ٥٧ .

٨٦ – بيجن . مناحم : م . س . ذ .

٨٧ – ايلون . عاموس : م . س . ذ، ٣٢٣ .

٨٨ – تتم مراسم الجنازة بمجرد الوفاة وتتسم بالبساطة وإثارة المشاعر ، وتوارى الجثة فى التراب على لوح خشبى لا داخل تابوت ، وبذلك يكون من الممكن رؤية المعالم الرئيسة للجسد تحت الثوب الأسود الذى يكسوه . ولا توجد عادة تقديس الموتى ، لأن هذا الأمر من شأنه أن يعد عملا طفوليا وإهانة . وشواهد القبور متماثلة تقريبا ، وهى تتخذ عادة الطابع

الوظيفى ولا تتسم بأية عاطفة . ويستمر الحداد ، على نطاق خاص ، لفترة طويلة ، ولكن الاسرائيليين ينهون الحداد العام فى أسبوع بعد الوفاة ، وخلال هذا الأسبوع يتلقى أقرب أقرباء الشخص المتوفى وعائلته العزاء فى منازلهم من باقى الأقارب والأصدقاء . وبعد انتهاء هذا الأسبوع الذى يتركز فيه الحداد العام ومظاهر الحزن ، لا يبدى الغرباء أية إشارة أخرى عن الخسارة التى لحقت بالأسرة .

٨٩ - راجع بهذا الخصوص : الشامى . رشاد : جولة فى الدين والتقاليد اليهودية ، طقوس العزاء فى اليهودية .

٩٠- عرفت مأساة الإبادة التى احاطت بيهود اوروبا فى ظل النظام النازى بعدة تعبيرات مثل «الكارثة» و«النكبة»، وتعرف فى اللغة العبرية بإسم «هشوأه» أو «هاحوريان» (الخراب ـ الدمار) .

٩١ - ايلول . عاموس : م.س.ذ، ص ٢٠٤ .

٩٢- حفنى . قدرى : تجسيد الوهم ، ص ٩٧ - ١٠٣ .

٩٣- اسم مأخوذ من سفر اشعيا ٥٦ : ٥ بمعنى «نُصبا واسما» .

٩٤- ركز رئيس الحكومة الإسرائيلى مناحم بيجن فى خطاب القاه اثناء منحه الدكتوراه الفخرية من احدى الجامعات الامريكية فى مايو ١٩٧٨ ، على ضحايا اليهود على يد النازية ولكن أحد اساتذة التاريخ بالجامعة رد عليه بأن الارقام التى ذكرها مبالغ فيها. وقد حاول يهود المدينة التدخل لفصل هذا الاستاذ من الجامعة ولكن إدارة الجامعة لم توافق على ذلك .

٩٥- إيلون . عاموس : م.س. ذ، ص ٢٠٨ .

٩٦- تناولت الأديبة الإسرائيلية ياعيل ديان هذه المشكلة فى روايتها «ابنان للموت» . (شنى بانيم لمافت) ، حيث يتعرض أب يهودى بولندى لتجربة الاختبار بين أحد ولديه لكى يعدمه النازيون ، وتتدخل الصدفة لكى ينجو الذى اختاره الاب للموت على يد النازى، ليتعرض للموت فى اسرائيل من

خلال تجربة الحرب ضد العرب. وهنا تقوم الأديبة بتأكيد حتمية الموت بالنسبة لليهودى سواء ذلك الذى كان فى «الشتات اليهودى» على يد النازى ، أو ذلك الذى جاء الى فلسطين على يد العرب .

٩٧- كان الدكتور رودلف كاستبر موظفا بالوكالة اليهودية فى بودابست ايام الحرب، وكان هو المسئول عن لجنة إنقاذ اليهود من الصهيونية المحلية. وبعد الحرب بثمانى سنوات اتهم كاستبر فى اعلان خاص بأنه كان يتعاون مع النازيين فى مقتل مليون من اليهود بصورة غير مباشرة، حيث امتنع عن القيام بأى عملية انقاذ ، فيما عدا بضع مئات من المحاسيب، والاغنياء وزعماء الصهيونية المعروفين وأفراد اسرته حيث استطاع إطلاق سراحهم بعلاقته الودية مع الجستابو . وقد أثارت هذه القضية عاصفة قوية. ورأى الناس فى تقديم كاستبر للمحاكمة ، محاكمة لكافة زعماء الصهيونية اثناء الحرب (كتاب عاموس إيلون - ص ٢١٢) .

٩٨- لافين . جون : العقلية الإسرائيلية ، ص ٥٩ .

٩٩- نفس المرجع.

١٠٠ - ايلون - عاموس : م.س ذ، ص ٢٣٦ .

١٠١- كانت الوحدة (١٠١) وحدة شبه نظامية وكانت خاضعة لقيادة الجيش . ولكن كما يحدث كثيرا فى مثل هذه الحالات ، فإن رجال الوحدة الخاصة يعيشون ويقاتلون فى جو من التراخى وبصورة شبه بوهيمية، وكانوا خليطا من سلاح الحدود على غرار حروب الهنود الحمر بأمريكا ورعاة البقر والمغامرين . وكانوا مجموعة غريبة من شباب المدن، وأبناء الكيبوتس والجنود النظاميين وخريجى السجون والمدنيين الذين التحقوا لفترات قصيرة بالخدمة العسكرية .

١٠٢- إيلون . عاموس : م . س ذ ص ٢٣٢ -٢٣٥ .

١٠٣ لافين . جون : م. س . ذ ، ص ٩٤ - ٩٥ .

١٠٤ ـ إيلون . عاموس : المؤسسون والابناء (النسخة العبرية) وهي مترجمة للعربية ترجمة خاصة، حيث لم يرد هذا المقطع في الطبعة الانكليزية من كتابه .

١٠٥ – كوتلسر . يائير : م. س . ذ .

١٠٦ – كان من بين المحتجين على عجز اليهود واستسلامهم للذبح الشاعر الصهيوني الروسي حييم نحمان بياليك وذلك عن طريق قصيدته الكبرى، بعبر ههريجا، في مدينة القتل ، التي كتبها بعد عودته من كيشينيف ١٩٠٣ كعضو من اعضاء لجنة التقصي ، وقد أحدثت هذه القصيدة بما حوته من تعبيرات هجومية عن العجز والاستسلام اليهوديين ردود فعل كبيرة ادت الى قيام جماعات الدفاع الذاتي، في المدن التي يوجد بها اليهود في روسيا .

(راجع حييم نحمان بياليك – حياته واتجاهاته الادبية رسالة ماجستير في الادب العبرى الحديث، للمؤلف ، غير منشورة .

١٠٧– العسكرية الصهيونية ، المجلد الاول : النشأة والتطور (١٨٨٧–١٩٧٧) ، ص ٢٧ – ٢٨ .

١٠٨– بيرموتر . عاموس : العسكرية والسياسات العسكرية الاسرائيلية (النشأة – التطور ١٨٨٧ – ١٩٧٧) .

١٠٩– العسكرية الصهيونية : م. س. ذ ، ص ٤١ .

١١٠ – نفس المرجع ، ص ٥١ .

١١١– بيرموتر ، عاموس : م. س . ذ ، ص ٣ – ٤

١١٢– نفس المرجع ، ص ٤ .

١١٣– تلمي . افرايم ومناحم : م. س . ص ٩٢ .

١١٤– العسكرية الصهيونية : م. س . ذ ص ٩٩–١٠٠.

١١٥– ايتسل : الحروف الثلاثة الاولى من إسم المنظمة بالعبرية ، وهي الالف

والصاد واللام. ولكن فى العبرية الحديثة ينطقون الصاد، تساد ، وتنطق الكلمة مشكلة بالكسر ، لذلك فإن الحروف الثلاثة ، «إصل» تنطق «إيتسل».

١١٦- نظرية وتطبيق الحرب : للمحرر ميخال هوارد ، ص٢٤٠ .

١١٧- باروخ نيتانيل : حد السيف ص ٤٥ .

١١٨- بيرموتر . عاموس : م. س . ذ ، ص ٣٦ .

١١٩- المرجع السابق .

١٢٠- العسكرية الصهيونية ، م . س. ذ . ص ١٤٨ .

١٢١- جيش الدفاع الإسرائيلى (١٩٤٨-١٩٥٨) .

١٢٢- العسكرية الصهيونية : م.س. ذ. ص ١٧١ .

وص . ه. ل وتنطق تسهال هى اختصار للكلمات العبرية، تساقا هاجاناه ليسرائيل ، أى جيش الدفاع الإسرائيلى .

١٢٣- نفس المرجع . ص ٤٣٤ .

١٢٤- لافين . جون : م. س ذ، ص ٧٨ .

١٢٥- صدق الكنيست الإسرائيلى فى صيف عام ١٩٧٣ على مشروع قانون قدمه رئيوفين ارزى من حزب المايام يقضى بأنه يتعين على الضابط ان ينتظر مائة يوم على الاقل بعد تركه للجيش قبل ان يعين وزيرا او يرشح نفسه لانتخابات الكنيست . والجدير بالذكر فى هذا المجال انه بعد حرب عام ١٩٧٣ طفت على سطح الحياة السياسية ظاهرة اتجاه عدد من العسكريين الى الانضمام للاحزاب اليمينية بعد أن كانت هذه الظاهرة مقصورة قبل ذلك على الانضمام لحزب المباى اليسارى الحاكم فقط. وسوف تؤثر هذه الظاهرة على المستقبل السياسى لدولة اسرائيل فى المرحلة المقبلة .

١٢٦- آدار . بنكو : (الجيش والسياسة) . تساقا أو مدينيوت بيسرائيل ،

صحيفة عل همشمار ١٤/٤/١٩٧٢ .

١٢٧- نفس المرجع ، على همشمار ١٢/٥/١٩٧٢.

١٢٨- ربيع . حامد : تأملات في الصراع العربى الإسرائيلى ص ٨٨-١٢٧.

١٢٩- روبنشتين . امنون : م.س . ذ ، ص ١٢٦ - ١٢٧

١٣٠- غاستون بوطول : السلم المسلح ، ص ١٢١-١٢٩

١٣١- روبنشتين . امنون : م.س.ذ ص ١٨٣ .

١٣٢- المرجع السابق : م.س . ذ ص ١٣ .

١٣٣- شوكن . جرشوم : م.س. ذ .

١٣٤- اليهودى الجالوتى : نسبة الى كلمة «جالوت» العبرية وتعنى فى المفهوم الصهيونى «المنفى» وقد استخدمت فى البحث اصطلاع اليهودى الجيتوى ، نسبة الى الجيتو لأنه أكثر دلالة.

١٣٥- روبنشتين . امنون . م.س.ذ، ص ١٤٦ .

١٣٦- ميخد . اهارون : المحادثة المريرة هسيياح همار .

١٣٧- ن. أ. روز : الصهيونيون الأمميون ، ص ٧٧ .

١٣٨ - عفرون . يائير : بعض الاثار السياسية والاستراتيجية لميثاق الدفاع الامريكية الاسرائيلى ، مقال ضمن كتاب : الشر ق الاوسط والولايات المتحدة الامريكية، ص ٢٧٦ ، ٢٧٧ .

١٣٩- رايخ . برنارد . المصالح الامريكية فى الشرق الاوسط ، ص ٨٩ .

١٤٠ - بادو . جون . س : الشرق الاوسط ، صراع له الاولوية ، ص ٢٣٥ .

١٤١ - باجويت . غاى : الصهيونية والامبريالية ، مقال ضمن ابحاث ندوة طرابلس حول الصهيونية والعنصرية ص١٤٥-١٤٦ .

١٤٢- ليبليخ . عاميا : جنود الصفيح على شاطىء ، القدس ، ص ٩ .

١٤٣- نفس المرجع ، ص ١٠ - ١١ .

١٤٤- مؤرخ إسرائيلى مشهور .

١٤٥- روبنشتين - امنون : م.س. ذ ، ص ١٢٨ .

١٤٦- هيروشيلمى . ليفي بستحاك : سنة التضامن وأيام الانفصال ، تقرير ذاتي مع الاديب ب يهو شواع ، ١٩٨٣ .

١٤٧- ليبليخ . عاميا : م. س. ذ، ص ١٥.

١٤٨- روبنشتين . امنون : م.س.ذ، ص ١٢٨ .

١٤٩- كوتلر ، بائير : العنف يزيد والاستقطاب يزداد عنفا (هاأليموت جوفيرت، هاقيطوف معميق) ، ص ١٧.

١٥٠- ايلون . عاموس : م.س.ذ ص ٢٢٢ .

١٥١- نفس المرجع، ص ٢٢٥ .

١٥٢- تيمرمان . يعقوب : م.س . ذ، مجلة المصور القاهرية ١٩٨٣/٧/١٧.

١٥٣- البحراوى . ابراهيم دكتور : الاديب الصهيونى بين حربين ، ص ٤٢.

١٥٤- الشامي . رشاد : التمرد على الموت بلا ثمن فى الشعر العبرى . بعد حرب ١٩٦٧ .بحث غير منشور .

١٥٥- صحيفة دافار ١٩٥٦/٥/١٢ .

١٥٦- لافين. جون : م.س.ذ، ص ٩٥ .

١٥٧- سليم عبد المنعم : نماذج من الادب الإسرائيلى، ص ٣٤.

١٥٨- يهو شوًّاع . أ.ب. بفضل الطبيعة ، ص ١٥٧-١٥٨.

١٥٩- تيمرمان . يعقوب : م.س.ذ .

١٦٠- ايلون . عاموس : م.س.ذ، ص ٣٢٨ .

١٦١- روبنشتين . امنون : لنكن شعبا حرا، ص ١٢٧ .

١٦٢- عل همشمار ١٩٨٢/١١/٥ .

تم بحمد الله

الفهرس

رقم الايداع
١٩٣٦٦/ ٢٠٠٢
I.S.B.N
977-07-0856-9

روايات الهلال
تقدم

رجل أبله .. امرأة تافهة

بقلم

محمد ناجى

تصدر ١٥ ديسمبر ٢٠٠٢

كتاب الهلال القادم

كرومر فى مصر

بقلم

محمد عودة

تقديم

محمد حسين هيكل

يصدر ٥ يناير ٢٠٠٣

أحدث اصدارات كتاب الهلال
عام ٢٠٠١

الشهر	الكتاب	المؤلف
يناير	زرافة محمد على	تأليف: مايكل الين ترجمة: مجدى شرشر
فبراير	العالم من منظور غربى	د. عبدالوهاب المسيرى
مارس	حديث الزمان	د. أحمد زكى
ابريل	ماذا حدث للمصريين	د. جلال امين
مايو	مسيرتى ومصر فى القرن العشرين	د. مصفى سويف
يونيو	من التداخل إلى التفاعل الحضارى	د. مجدى يوسف
يوليو	مسرح بديع خيرى	نبيل بهجت

أحدث اصدارات كتاب الهلال
عام ٢٠٠١

الشهر	الكتاب	المؤلف
اغسطس	المعممون فى ساحة الغناء والطرب	عبدالنور خليل
سبتمبر	مذكرات طالب بعثة	د.لويس عوض
اكتوبر	حرب قذرة	تأليف: كليف تورنيل ترجمة: حسن الأهوانى
نوفمبر	تفاصيل الشجن فى وقائع الزمن	محمد المنسى قنديل
ديسمبر	رمضان وفقه الصيام	د.يوسف القرضاوى

أحدث إصدارات كتاب الهلال

عام ٢٠٠٢

الشهر	الكتاب	المؤلف
يناير	أعلام فى حياتنا	د.نعمات أحمد فؤاد
فبراير	كشف الاقنعة	د.جلال أمين
مارس	هوس الانترنت	د.أحمد محمد صالح
ابريل	أول الحكاية حكايتى مع الدبلوماسية	جميل مطر
مايو	شخصيات وقضايا معاصرة	طارق البشرى
يونيو	ذكريات من حياتى	د.عبدالعظيم أنيس

أحدث اصدارات كتاب الهلال
عام ٢٠٠٢

الشهر	الكتاب	المؤلف
يوليو	الأيك فى المباهج والأحزان	عزت القمحاوى
اغسطس	ذكريات باريس	د.زكى مبارك
سبتمبر	هارون الرشيد	تأليف: هارى فيلبى ترجمة: د.صبرى حسن
اكتوبر	الإنسان والحضارة	د.عبدالوهاب المسيرى
نوفمبر	مصر فى فكر العالم	مصطفى نبيل
ديسمبر	الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية	د.رشاد عبدالله الشامى

هذا الكتاب

اتخذ هذا الكتاب منهجا موضوعيا ومنحى عقلانيا فى تناول الشخصية اليهودية الإسرائيلية تلك الشخصية – مثل كل شخصية لجماعة بشرية – التى تخضع لتأثيرات ثقافية ولغوية متباينة.

لم ترتبط الشخصية اليهودية فى وجودها بأطار جغرافى محدد، ولم تكن الجغرافيا جزء من هويتها، ولم تكن كذلك سمة من سمات تراثها ولا يعطى اليهود حق اغتصاب أرض الغير .

وبذلك تمثل الشخصية اليهودية المعاصرة مرحلة منفصلة من مراحل سابقة تمثلها «الشخصية اليهودية الجيتوية»، ثم «الشخصية اليهودية الصهيونية».

وهذا الانفصال فى المراحل لا يقتصر على كونه حضاريا أو ثقافيا أو جغرافيا، بل يتعداه إلى نفس التعبير اللغوى، أى إلى رموز الاتصال، وهو انفصال لابد وأن ينعكس، ويثبت وجوده فى ذات «الشخصية اليهودية الإسرائيلية» التى تخضع لظروف الواقع الجغرافى الجديد فى المنطقة العربية، والبيئة اللغوية العبرية، والمناخ الفكرى والثقافى والاجتماعى والسياسى للمجتمع اليهودى الإسرائيلى، وملابسات الصراع العربى الإسرائيلى.

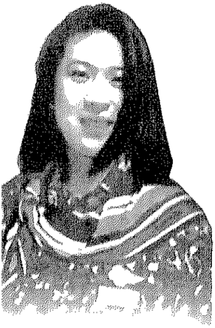
وأما ما يتصل بالعدوانية كسمة سلوكية للصهيونية فيمكن القول أن لها وجود فى الطابع القومى والتاريخ اليهودى ، والمجتمع الإسرائيلى.

وأنتجت هذه الظروف نمطا إسرائيليا عدوانيا ألقى بظلاله على مجمل السلوك العام لكل من ينتمى للمجتمع الإسرائيلى .

وزارة الطيران المدنى
الشركة القابضة لمصر للطيران
شركة مصر الطيران للخطوط الجوية

مصرللطيران
EGYPTAIR





تنشيطا لحركة السياحة و السفر
بين مصر و اليابان
تعلن مصرللطيران

عن رحلة جديدة ثالثة بدون توقف

القاهرة / طوكيو

كل يوم احد

اعتبارا من ٢٢ ديسمبر

بالاضافة الى رحلاتنا حاليا

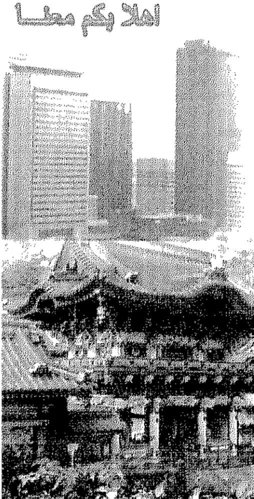
القاهرة / بانكوك / مانيلا / طوكيو

الثلاثاء والجمعة

القاهرة / اوزاكا

الجمعة و الاحد

اهلا بكم معنا







أدبيات
نساء العرب
مواقف وطرائف ومعارك
الكعبة المشرفة
هيكل اليهودى الثالث
أحمد بهاء الدين
غاندى
مقاتل بلا حروب
مجدى سلامة
من شرفات التاريخ
الأسرة
مناظرات على الورق
سيكولوجية الحكم
طغاة قريش
الشخصية المنتجة
سيكولوجية الإرادة
قادة الفكر الفلسفى
طباعة ونشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع